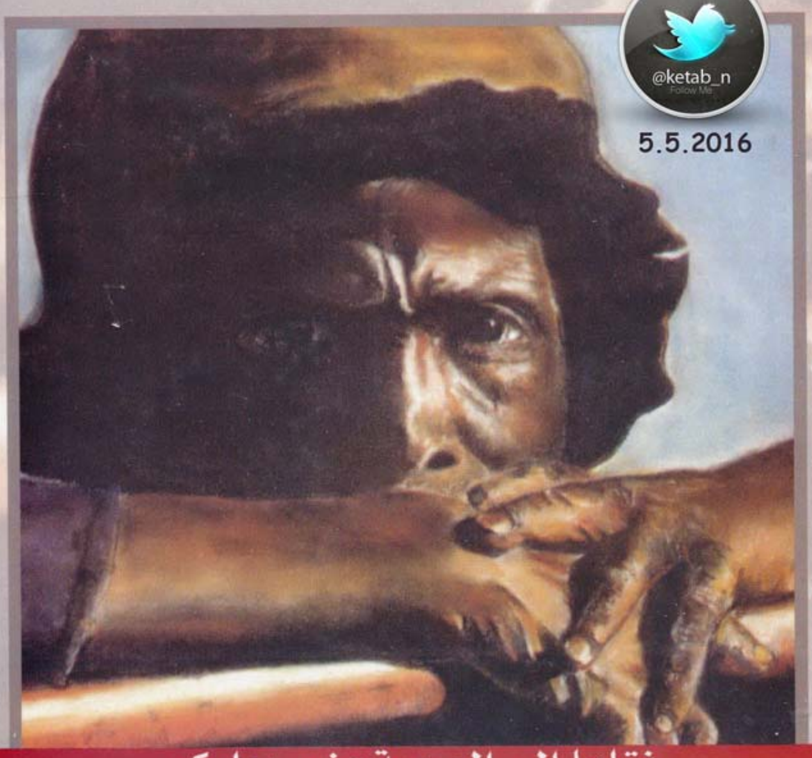
روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

هاربيت ستاو

كوخ العم توم



نقلها إلى العربية منير بعلبكي

هارييت ستاو

كوخ العم توم

نقلها إلى العربية:

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

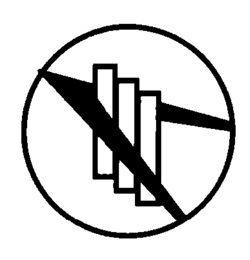
هاربيت ستاو

كوخ العم توم

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية مَتكو، الطابق الثاني
هاتف: ٧٠١٦٥٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٣٠٦٦٦٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



لقد تمت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة لتصدر في هذه الطبعة الانيقة كطبعة تذكارية لذكرى الاستاذ الكبير منير البعلبكي

هذه السلسلة
وهذا الكتاب

يسرّني أن أقدّم اليوم إلى قراء العربية، تحت كل سماء، هذه السلسلة الجديدة التي تهدف إلى إغناء المكتبة العربية بكل رائع جليل من شوامخ الآثار القصصية العالمية ذات النزعة الإنسانية، بعد الذي رأيت من عظيم حاجتنا إلى هذا الأدب الرفيع نقرأه، ونتدارسه، ونحتذيه في نهضتنا القصصية المباركة.

وقد آثرت أن أستهل هذه السلسلة الجديدة بهذه القصة الرائعة التي صورت فيها السيدة هارييت بيتشر ستاو حياة الزنوج الأميركيين قبل الحرب الأهلية، والتي قدّر لها أن تلهب النفوس الكريمة وتثير الرأي العام الأميركي ضد المظالم النازلة بتلك الفئة البائسة من المواطنين، فكانت حرب التحرير، تحرير العبيد، (سنة 1861) وتم النصر للولايات الشمالية على الولايات الجنوبية، وغدا اسم هارييت بيتشر ستاو رمزاً للمحبة الخالدة، تباركه ملايين الشفاه، وتعدّه نعمة من نعم الإله السابغة.

وإنما نُشرت قصة «كوخ العم توم» أول ما نُشرت في آذار سنة 1852، فبيع منها يوم إنزالها إلى الأسواق ثلاثة آلاف نسخة. ولم تنقض أربعة أشهر على نشرها حتى بلغت عائدات المؤلفة منها عشرة

آلاف دولار. وما استدار الحول حتى كان الكتاب قد طبع مئة وعشرين طبعة، مجموع النسخ المبيعة منها ثلاثمائة ألف نسخة. أما اليوم فقد بلغت النسخ المطبوعة من «كوخ العم توم» الملايين عداً.

ولم يكن انتشار القصة خارج الولايات المتحدة أضيق نطاقاً. فما كادت تصدر في أميركا حتى انبرت ثماني عشرة داراً من دور النشر اللندنية إلى تزويد القراء بطبعات منها مختلفات، حتى لبلغت طبعاتها هناك أربعين طبعة في سنة واحدة.

ليس هذا فحسب، بل إن خمسمائة ألف امرأة إنكليزية وقّعنَ خطاب شكر موجهاً إلى المؤلفة. وجمعت اسكتلندا ألف جنيه من أشد سكانها فقراً، بنساً واحداً من كلٍّ، كمساعدة رمزية لحركة تحرير العبيد. وإلى جانب طبعات خمس صدرت باللغة الفرنسية، تُرجم الكتاب إلى الأرمنية، والبوهيمية، والدانمركية، والفنلندية، والفلمنكية، والألمانية، والهنغارية، والإيطالية، والبولندية، والبرتغالية، واليونانية، والروسية، والصربية، والإسبانية. ويقال إن بعض الروس أعتقوا أقنانهم بسبب من عظيم تأثرهم بالقصة.

وبُعَيد صدور القصة ببضعة أشهر، انبرى كثير من الكتّاب لصياغتها في قالب تمثيلي. فعرف المسرح الأميركي ثماني نسخ على الأقل من الرواية في قالبها المسرحي، مثّلت ستٌّ منها قبل نشوب الحرب الأهلية. واستمر عرضها أشهراً بكاملها في كل من الولايات المتحدة وإنكلترا على السواء. وفي عهد السينما قدّر لملايين الناس أن يكحلوا العين برؤية شيرلي تامبل تلعب دور «إيفا الصغيرة»...

وأحدثت القصة لدى نشرها هزة في الديار الأميركية من أقصاها إلى أقصاها. لقد تلقّتها الولايات الشمالية بالتهليل الصاخب، ولم تشجعها الولايات الجنوبية بادئ الأمر. حتى إذا طارت شهرتها كل

مطار، وفي ولايات الجنوب بخاصة، تغيّر الموقف. فطبعت الكتيّبات ونشرت المقالات الصحفية في الطعن على الكاتبة وتسفيهها. وشجبت بعض الصحف والمجلات الشمالية ـ المتخذة لنفسها صفة دينية ـ هذا الأثر الاجتماعي والأدبي العظيم، معتبرة إياه عملاً غير مسيحي حيناً، وعملاً وثنياً حيناً، وفي أسلوب لاذع مرير لم ينته إلى مثله أسلوب الصحف الجنوبية المؤيدة للاسترقاق، نفسها. وتدفقت الرسائل الخاصة على المؤلفة كالسيل، فأما بعضها فكان يفيض بالتأييد، وأما بعضها الآخر فكان ينطوي على أقبح ضروب الإهانة والتهديد. وقد تضمنت إحدى هذه الرسائل أذن رجل زنجي وورقة كُتب عليها ما مفاده أن هذا الصنيع هو إحدى النتائج المحتومة لكل حملة تُشن من أجل الدفاع عن «الزنوج اللعينين»...

ولم تجتمع السيدة ستاو إلاّ مرة واحدة بالرئيس أبراهام لنكولن. وكان ذلك سنة 1862 والحرب الأهلية بين ولايات الشمال المناوئة للاسترقاق، وبين ولايات الجنوب المؤيدة له، محتدمة أشد الاحتدام. ولم تكد تدخل على الرئيس حتى هرع لاستقبالها وقال:

ـ «حسناً، مسز ستاو، إني سعيد بأن أرحب بكِ بوصفكِ مؤلفة تلك القصة التي أحدثت هذه الحرب العظيمة!»

ويحسن بنا في هذا المقام أن نشير أن «كوخ العم توم» رواية واقعية مئة بالمئة. وقد أشارت السيدة ستاو يوماً إلى هذا المعنى فقالت: «أنا لم أؤلف كوخ العم توم..» حتى إذا قوبل كلامها بالدهشة والاستغراب قالت: «أجل أنا لم أؤلف هذه القصة. كل ما فعلته أني دوّنتُ ما شهدته بعينيّ في بعض ولايات الجنوب!»

* * *

ذلك، وقد أنفقتُ غاية الجهد لكي أقدم إلى القراء ترجمة أمينة شبه كاملة للأصل الإنكليزي. ولي مكين الأمل في أن تحظى هذه الرواية على رضا المثقفين، وثقة الأجيال الطالعة.

10 نوار 1953

منير البعلبكي

ـ 1 ـ

رجل إنساني

في أصيل يوم بارد من أيام شباط، كان رجلان يحتسيان الشراب في غرفة حسنة الأثاث بمدينة «ب» من أعمال ولاية كانتاكي. لم يكن ثمة أحدٌ من الخدم. وكان يبدو وكأن الرجلين يدرسان موضوعاً يستأثر باهتمامهما كله.

كان أحد الرجلين قصيراً، بديناً، ذا ملامح غليظة، وروح من الادعاء الأجوف التي تطبع الرجل الوضيع حين يسعى لأن يشقّ طريقه نحو دنيا الرفاه والثروة. كان يلبس ثياباً متراكبة، تتعدد فيها الألوان وتتضارب، ويداه الغليظتان الخشنتان مثقلتين بالخواتم، وكانت لغته تتحدى قواعد النحو فلا تعرف قيداً ولا ضابطاً.

أما رفيقه، السيد شيلبي، فكان مظهره يؤذن بأنه عريق في النبل والوجاهة. وكان الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث في أمر مهم.

ـ «وهكذا ينبغي أن تُسَوّى المسألة...» قال مستر شيلبي.

ـ «ولكني لا أستطيع أن أقرّك على هذا العرض...»

ـ «تأكد يا هيلي، أن توم عبدٌ يندر مثيله. وهو لا شك يستحق هذا المبلغ. إنه قوي مخلص وهو يدير مزرعتي كلها كالساعة.»

فقال هيلي:

ـ «تقصد أنه مخلص على طريقة الزنوج...»

ـ «لا، أنا أعني أن توم ولد طيب حساس وتقي. لقد تعلم الدين منذ أربع سنوات فعمر قلبه بالإيمان. ومنذ ذلك الحين وأنا أأتمنه على كل شيء، على مالي وبيتي وأفراسي.. في الخريف الماضي أرسلته منفرداً إلى سينسيناتي، في عمل من أعمالي، وكلفته أن يحمل إليّ خمسمائة دولار، فلم يخيّب ظني فيه. وقد قال له بعضهم هناك: توم، لماذا لا تهرب إلى كندا؟ فأجاب: لقد وضع سيدي ثقته فيَّ وقد وعدته بأن أعود، وليس من خلقي أن أغدر أو أخلف بوعد. وعلى أية حال فأنا آسف لاضطراري إلى التخلي عن توم. وأحسب أنك لن ترد رجائي في أن تعتبره سداداً مني لكامل دينك...»

ولكن النخّاس اعتذر، في تلطف، عن تلبية رغبة السيد شيلبي وقال:

ـ «ولكن أليس عندك صبي تستطيع أن تستغني عنه، أو صبية تستطيع أن تستغني عنها، مع توم؟»

ـ «لا، لا! أقول لك الحق. إن الضرورة القاهرة هي التي تحملني على البيع ليس غير. أنا لا أحب أن أفارق أياً من هؤلاء الذين أملكهم.»

وهنا فُتح الباب، ودخل الغرفةَ صبي نصف خلاسي، يتراوح عمره ما بين الرابعة والخامسة. وكان هذا الصبي على جمال رائع. كان شعره الفاحم، الناعم كالحرير، يتدلى جعداً لامعاً على وجهه المستدير ذي الغمازة، وكانت عيناه الكبيرتان السوداوان تطلان من وراء أهدابه الطويلة الوارفة. وكان ثوبه القرمزي الزاهي ورداؤه المخطط الأصفر يزيدان جماله الداكن روعة على روعة.

ورحب السيد شيلبي بالصبي، ومرّر يده على شعره الجعد في حنوّ بالغ ثم قال له:

ـ «جيم كراو، دع هذا السيد يرى كيف ترقص وتغني.»

فانبرى الصبي ينشد أغنية من تلك الأغاني الشائعة بين الزنوج محركاً يديه، ورجليه، وجسمه جميعاً حركات منسجمة كل الانسجام مع اللحن...

وأُعجب هيلي بالصبي فالتفت إلى السيد شيلبي، وقال:

ـ «حسناً، إني مستعد أن أعفيك من الدين كله إذا أعطيتني هذا الغلام أيضاً.»

وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب، في رفق، ودخلت الغرفةَ شابةٌ نصف خلاسية، لا يزيد عمرها على خمس وعشرين سنة في ما يبدو.

كان واضحاً أن تلك المرأة كانت والدة الغلام. كان لها عيناه السوداوان، وأهدابه الطويلة الوارفة، وشعره الفاحم المتجعد، وكانت على جمال ورشاقة، استأثرا في الحال بإعجاب تاجر الرقيق الغليظ الفؤاد.

وسأل السيد شيلبي:

ـ «ما الذي أتى بكِ يا أليزا؟»

ـ «كنت أبحث عن هاري يا سيدي.»

واندفع الصبي نحوها، فطلب إليها سيدها أن تأخذه إذا شاءت.

وعرض النخاس على شيلبي أن يبيعه المرأة بأي ثمن، فأبى. حتى إذا قطع الرجاء من إقناعه سأله أن يعطيه الغلام فأبى كذلك، قائلاً:

ـ «لا تُتعب نفسك، فلن أبيعه. إني يا سيدي رجل إنساني وأكره أن أنتزع الغلام من حضن أمه.»

فلم يكن من التاجر إلاّ أن شرع يحدث السيد شيلبي عن إنسانيته

هو، وعما يعمر قلبه من عطف على العبيد جعله موضع تندّر زملائه وسخريتهم. حتى إذا آنس من مخاطبه نزعةً إلى تصديقه أشرقت عيناه ببريق الأمل وقال:

ـ والآن، ماذا ترى؟»

ـ «سأقلّب الأمر مع زوجتي، وباستطاعتك أن تسمع جوابي النهائي، هذا المساء، بين السادسة والسابعة.»

والواقع أن نظام الرقيق في ولاية كانتاكي كان في الأعم الأغلب أخفّ وطأة على الزنوج منه في سائر الولايات الأميركية. ومن يزور بعض المزارع في تلك الولاية ويرى التسامح الذي يبديه بعض رجالها ونسائها البيض ليخيَّل إليه أن الزنوج في خير. ولكن شبحاً رهيباً كان يخيم على هذا المشهد، هو شبح القانون. فما دام القانون يعتبر جميع تلك الكائنات البشرية، بقلوبها النابضة وأحاسيسها الحية ملكاً للسيد الأبيض، يتصرف بها كما يتصرف بما يملك من أشياء، وما دام موت المالك الرؤوف أو افتقاره أو طيشه كثيراً ما تنقل الزنوج من حال من التسامح والحماية الرفيقة إلى حال من الكدح والشقاء، فلن يكون في أحسن أنظمة الرقيق وأكثرها تلطفاً ورحمة ذرةٌ من جمال تبرر وجوده، أو ذرة من فائدة تشفع به.

وكان السيد شيلبي رجلاً نبيلاً، كبير القلب، ميّالاً إلى الإحسان إلى كل من يحيط به. ولم يكن يضنّ على زنوجه بأيما شيء يساعد على تمتعهم بالرفاه الجسدي. بيد أن إسرافه الطياش أغرقه في الديون. فإذا بدائنه النخاس، هيلي، يطالبه بالمال، وعلى هذا كان يدور الحديث الذي افتتحنا به قصتنا بين الرجلين.

لقد أدركت أليزا بغريزتها، وهي تقترب من باب الغرفة، أن النخاس يعرض على مولاها بيع شخص ما ـ ومن يدري فلعله يريد

شراء ابنها، فرجف قلبها، وانقبضت نفسها حتى إذا رأتها سيدتها على هذه الحال، وسألتها ما بها أجابت والدمع يترقرق في عينيها والزفرات تتصاعد من صدرها:

ـ «أواه يا سيدتي، كان ثمة نخاس يتحدث إلى سيدي، في غرفة الاستقبال..»

ـ «وأي بأس في ذلك؟»

ـ «ولكن يا سيدتي، هل تعتقدين أن سيدي يمكن أن يبيع هاري؟»

قالت ذلك وألقت بنفسها على الكرسي وشرعت تنتحب.

ـ «يبيعه؟ لا أيتها الحمقاء. أنت تعرفين أن سيدكِ لا يتعامل مع هؤلاء النخاسين الجنوبيين، وليس ينوي أن يبيع أحداً من خدمه ما داموا يسلكون النهج القويم. ولكن من هو ذلك المغفل الذي يرغب في شراء هاري؟ أتحسبين أن مصائر الناس جميعاً مرتبطة به شأن مصيركِ؟ استعيدي مرحكِ، ولا تسترقي السمع من وراء الأبواب بعد اليوم!»

ـ 2 ـ

الأم والأب

نشأت أليزا، منذ صباها الأول، في رعاية مولاتها الورعة، الطيبة، فبلغت سن النضج من غير أن تتعرض للتجارب التي تجعل الجمال شديد الشؤم على الفتاة السوداء. ثم تزوجت من فتى خلاسي، موهوب يملكه سيد الإقطاعية المجاورة.

وكان ذلك الفتى، واسمه جورج هاريس، يعمل في مصنع للأكياس، فاخترع آلة لتنظيف القنّب تعتبر عملاً من أعمال العبقرية.

وعلم سيد الإقطاعية، وكان فظاً غليظ القلب، بنبأ الاختراع فهرع إلى المصنع ليرى الآلة البارعة. وفيما كان جورج يعرض على سيده اختراعه، مزهواً بما ابتدع، استشعر السيد ضرباً من الشعور بالنقص، فإذا به يثور ويرغي ويزبد، ويأمر القيِّم على المصنع بفصل جورج ونقله إلى أحد الحقول ليعزق الأرض وينكشها.

وفيما كانت أليزا واقفة ذات يوم على شرفة البيت الذي تعمل به فاجأها جورج بضربة رفيقة على كتفها فصرخت فرحة:

ـ «جورج! أهذا أنت؟ لقد أفزعتني! حسناً، إنني سعيدة بلقائك. لقد خرجت سيدتي في زيارة. تعال معي إلى غرفتي الصغيرة لنقضي فترة الأصيل معاً.»

قالت ذلك وانسحبت هي وزوجها إلى تلك الغرفة المؤدية إلى الشرفة ثم استطردت:

ـ «ما أشد سعادتي! ولكن ما لك لا تبتسم؟ انظر إلى هاري الصغير كيف ينمو ويكبر؟»

وطبعت على جبين طفلها قبلة تمور بالعطف والحنان.

فقال جورج:

ـ «ليته لم يولد قط! وليتني لم أولد أنا أيضاً!»

وارتاعت أليزا، فجلست، وأسندت رأسها إلى كتف زوجها وانفجرت تبكي.

فقال جورج:

ـ «يبدو أنني أسبب لكِ كثيراً من الشقاء. وإني لأتمنى الآن لو أني لم أركِ ولم ترني، إذن لكنتِ سعيدة خالية البال.»

ـ «جورج! جورج! كيف تقول ذلك! أي كارثة حدثت أو توشك أن تحدث؟ لقد كنا سعداء جداً حتى وقت قريب.»

ـ «هذا صحيح، يا عزيزتي.»

قال ذلك وأجلس الصبي على ركبته، وراح يحدّق إلى عينيه الفاحمتين، ويُمرّر يديه خلال شعره الجعد الطويل.

ـ «أجل يا أليزا، لقد غدت حياتي مريرة حتى لا تكاد تطاق. إني كادح فقير، يائس، منبوذ.. فأيّ سعادة في أن أحيا؟ ليتني مت قبل هذا؟»

ـ «أنا أعلم يا جورج أنك ما زلت متحسراً على عملك الذي فقدته في المصنع، كما أعلم أن لك سيداً لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه. ولكن اصبر، فلعل..»

فقاطعها قائلاً:

ـ «أصبر؟ ألم أتجمّل وأصبر طوال هذه المدة؟»

ـ «حسناً، إنه لشيء فظيع. ولكن الرجل على أية حال هو سيدك.»

ـ «سيدي! ومن الذي جعله سيدي؟ ذلك ما يقضّ مضجعي. أي حق له عليَّ.؟ أنا إنسان بقدر ما هو إنسان. بل إنني خير منه. فأنا أعلم منه بالتجارة، وفي ميسوري أن أقرأ أحسن مما يقرأ، وأن أكتب بخط أجمل من خطه. لقد تعلمت ذلك كله بنفسي ولم يكن له أيما فضل عليَّ في هذا. بل لقد تعلمت بالرغم منه. والآن بأي حق ينتزعني من عملي ويحملني على القيام بأعمال يستطيع أي حصان أن يقوم بها؟»

ـ «أوه، جورج! ولكني لم أسمعك تتحدث بهذه اللهجة قبل اليوم. أرجوك هلاّ اعتصمت بالأناة والصبر، من أجلي أنا، من أجل هاري!»

فقال جورج:

ـ «لقد صبرت طويلاً. ولكن الأمر لم يعد يطاق. إن اللحم والدم لا قِبَل لهما بمثل هذه الحال... أمس كنت منهمكاً في نقل الحجارة إلى العربة عندما رأيت توم ابن السيد، يلوّح بسوطه قريباً من الفرس، حتى لقد أفزعها. فسألته في كثير من التأدب أن يقلع عن ذلك فاستمر في عبثه السمج، حتى إذا التمست منه الإقلاع عن عبثه، كرة أخرى، ارتد إليّ وأخذ يلهب جسدي بسوطه. فأمسكت بيده، فصرخ ورفسني، وانطلق إلى أبيه وزعم أنني ضربته ضرباً مبرحاً. فما كان من الأب إلاّ أن أقبل والشرر يتطاير من عينيه وشدني إلى شجرة وقطع للسيد الصغير عدداً من القضبان وأمره أن يضربني بها حتى ينهكه التعب. وهكذا فعل. ولكني لا بدَّ أن أذكِّره بذلك يوماً من الأيام..»

وارتعدت أليزا ولم تنبس بكلمة. ثم سألته بعد قليل:

ـ «ولكن ما الذي ستفعله؟ أوه، جورج! حذار أن تقدم على عمل غير صالح. واعلم أنك إذا سلّمت أمرك للّه، وحاولت أن تعمل صالحاً، خلّصك من هذا البلاء.»

فقال:

ـ «أنا لست مسيحياً، مثلكِ يا أليزا. إن قلبي ليتآكله الغيظ. ولست أستطيع أن أسلّم أمري إلى الله. ولا أفهم لماذا يسمح الله بأن تجري الأمور على هذه الشاكلة؟»

ـ «ولكن يحسن بك أن تعتصم بالإيمان يا جورج. لقد قالت سيدتي إن علينا، حتى حين نغرق في بحر من الظلام، أن نؤمن بأن الله يبذل غاية جهده لرعايتنا.»

ـ «هذا كلام يمكن أن يوجه إلى المستريحين في سرُرهم، الممتطين متون عرباتهم ولكن دعيهم يعيشوا لحظة كما أعيش وأنا أؤكد لكِ بأنهم سيفقدون أعصابهم أكثر مما فقدتُ أعصابي. إني أتمنى لو أجد إلى الطمأنينة سبيلاً، ولكن قلبي يشتعل، وليس في الإمكان مخادعته، ولو كنتِ مكاني لما استطعتِ الصبر، وبخاصة إذا علمتِ بقية القصة...»

ـ «وهل من بقية، بعدُ، لهذه القصة؟»

فقال جورج:

ـ «لقد قال سيدي إنه كان مخبولاً حين سمح لي بالزواج من امرأة تعيش في إقطاعة غير إقطاعته، وإنه لن يدعني آتي إلى هنا منذ اليوم، وأن علي أن أتزوج امرأة أعيش معها على أرضه. وأمس أنبأني بأنه يتعين علي أن أتخذ «ميناء»، زوجة، وإلاّ باعني لسيد في الجنوب!»

ـ «ولكنك زوجي أنا، زوّجني إياك القس كما لو كنت رجلاً أبيض!»

فأجابها جورج:

ـ «ألا تعلمين أن العبد لا يجوز أن يتزوج؟ ليس في هذه البلاد قانون ينص على ذلك. وليس في استطاعتي أن أتمسك بكِ زوجة إذا شاء أن يفرّق بيننا. من أجل ذلك قلت إني أتمنى لو أنني ما رأيتكِ، ولو أنني ما ولدت، إذن لكان ذلك خيراً لي ولكِ. بل ليت هذا الطفل المسكين لم يولد، لكان خيراً له أيضاً، فقد يقع هذا البلاء له في مستقبل غير بعيد...»

ـ «أوه، ولكن مولاي أرأف من ذلك!»

ـ «صحيح. ولكن من يدري؟ قد يموت. وعندها يباع لسيد لا نعرف من أمره شيئاً، من غير أن يدفع عنه الضر جماله وذكاؤه ولياقته. أتريدين الحق؟ إنك سوف تدفعين غالياً ثمن هذه المحاسن جميعاً لأنها ستُطمع فيه تجار الرقيق وتجعل احتفاظكِ به أمراً عسيراً.»

وارتجفت أليزا. لقد تراءت لها صورة هيلي، النخاس، فامتقع لونها وضاقت أنفاسها. ثم إنها تطلعت، في عصبية، إلى الشرفة حيث كان الصبي يلعب بعصا السيدة شيلبي ويتخذ منها حصاناً يركبه. وكادت تبوح لزوجها بالذي يقبض فؤادها ولكنها آثرت أن لا تضيف إلى جراحه جرحاً جديداً...

وأردف الزوج في حسرة بالغة:

ـ «كل ما أوصيك به يا أليزا أن تصبري نفسكِ على البلاء. واسمحي لي، الآن، أن أودّعكِ فأنا ذاهب...»

ـ «ذاهب؟ ولكن إلى أين يا جورج؟»

ـ «إلى كندا. وعندما أبلغ تلك الديار سأشتريكما. ذلك هو الأمل الأوحد الذي بقي لي. إن لكِ سيداً كريماً وهو لن يرفض أن يبيعكِ. سوف أشتريكِ وأشتري هاري، إذا وفّقني اللّه!»

ـ «ولكني أخاف أن يُقبضَ عليك؟»

ـ «لن يقبض عليّ، يا أليزا. سوف أموت قبل ذلك. إما أن أحرّر نفسي، وإما أن أموت!»

ـ 3 ـ

فرار الأم

كان كوخ العم توم صغيراً تحيط به حديقة نظيفة تنوّر فيها، أيام الصيف، أنواع من الأزهار تدخل البهجة على قلب العمة كلو، التي كانت بوصفها زوجة توم، والطاهية الرئيسية، تهيمن على كل شيء في المنطقة. حتى الدجاج، والديكة الرومية والأوز التي تضج بها زرائب آل شيلبي كانت ترتعد فرائصها حين ترى وجهها الأبنوسي اللامع قادماً من مكان بعيد.

أما العم توم نفسه فكان رجلاً ضخم الجسم عريض الكتفين تنطق ملامحه الأفريقية بكرم نفسه ورجاحة عقله. وكان يجمع إلى احترام الذات، وَدَاعة وبساطة محبّبتين.

وكان إلى ذلك كله «صاحب دين». كان يصلّي هو وامرأته وولداه وابن سيده في ساعة متأخرة من الليل، في كوخه الحقير، حين أقبلت أليزا حاملةً طفلها هاري، وطرقت بإصبعها على النافذة.

وفي الحال فُتح الباب، ودخلت أليزا لاهثة، وقالت:

ـ «أنا هاربة، أيها العم وأيتها العمة كلو، هاربة بطفلي من الجحيم. فقد باعه السيد للنخاس!»

فصاح العجوزان، ورفعا أيديهما في ذعر:

ـ «باعه؟»

ـ «أجل باعه! لقد سمعت السيد يقول للسيدة إنه باع صغيري هاري، وباعك أنت أيضاً أيها العم توم، لأحد النخاسين، وهذا النخاس سوف يأتي اليوم لأخذنا.»

وجمد توم في مكانه، واتسعت حدقتاه، وكأنه في حلم. وفي صمت مرعب، انكمش على كرسي قديم، وخفض رأسه حتى لكاد يلامس ركبتيه.

قالت العمة كلو:

ـ «ليرحمنا رب السماء، أي ذنب اقترف؟»

ـ «لم يفعل شيئاً. والسيد لم يكن راغباً في البيع. وقد سمعتُ سيدتي تنتحب وتلتمس منه إنقاذنا. ولكنه قال لها إنه مدين للنخاس، وإنه إن لم يفعل فهو مضطر إلى بيع الإقطاعة كلها.»

فالتفتت العمة كلو إلى زوجها وقالت:

ـ «حسناً، أيها العجوز، لماذا لا تفر أنت أيضاً؟ أليس ذلك أفضل من أن تُحمل إلى ما وراء النهر، حيث يموت الزنوج كدحاً وجوعاً؟!»

فرفع توم رأسه في بطء، وتطلع حوله في حسرة، ثم قال:

ـ «لا، لن أبرح هذا المكان. دعي أليزا تفرّ. إن ذلك حقها. لقد كنت دائماً عند حسن ظن السيد بي، وسأظل على ذلك ما حييت.»

ـ «والآن...»، قالت أليزا لدى الباب، لم أرَ زوجي إلاّ ظهيرة اليوم، وما كنت عالمة آنذاك بما كُتب عليَّ. فرجائي إليكما أن تكتبا إليه وتعلماه أنني هربت، وأنني سأحاول اللحاق به إلى كندا. بلّغاه حبي له وأوصياه ـ إذا لم يقدّر لي أن ألتقي به بعد اليوم ـ بأن يكون صالحاً ما استطاع، وأن يسعى للاجتماع بي في مملكة السماء.»

واختنق صوتها وانسلّت تحت جنح الظلام.

* * *

ما كان لمخلوقٍ بشري أن يبدو أشد بؤساً وشقاء من أليزا عندما غادرت كوخ العم توم. لقد تمثلت آلام زوجها، والخطر الذي يتهدد ابنها. وحزّ في نفسها أن تغادر البيت الوحيد الذي عرفته في حياتها، وتخسر حماية السيدة التي أحبتها واحترمتها، وتنقطع صلتها بالمكان الذي نشأت فيه والأشجار التي لعبت في ظلالها، والغياض التي نعمت بالتنزه فيها إلى جانب زوجها، في الأمسيات السعيدة من عمرها. ولكن جزعها على ابنها كان أقوى من هذه العواطف كلها... والواقع أن ابنها كان في سن تمكنه من السير إلى جانبها، ولكن مجرد التفكير بإنزاله عن صدرها كان كافياً، في تلك اللحظات الرهيبة، لأن يوقع الرجفة في أوصالها، فشدّته إلى صدرها الواجف، وانطلقت لا تلوي على شيء.

وقبيل الغروب، انتهت أليزا إلى نهر أوهيو الفاصل ما بينها وبين أرض الحرية. كان الربيع طفلاً هو الآخر، وكان النهر متلاطم الأمواج، وكانت قطع كبيرة من الجليد تتأرجح فوق سطحه الهائج.

وإذ لم تجد أليزا مركباً ينقلها إلى الضفة الثانية من النهر، فقد أوت إلى شبه فندق صغير، حيث أضجعت ابنها المكدود، وبقيت تتقلب على جمر الانتظار، في حين كان هيلي، النخاس ـ الذي صعقه نبأ فرارها والذي بذلت السيدة شيلبي غاية جهدها لتعوقه عن اللحاق بها ـ قد انتهى في بحثه المحموم عن مقرها إلى ذلك الخان. حتى إذا أحست أليزا بالخطر المحدق بها حملت طفلها وانطلقت نحو النهر فبلغته في مثل لمح البصر. ولحق بها النخاس ومن معه. وبتلك الشجاعة البالغة التي لا يمنحها الله إلاّ لليائس المسكين وثبت من

الشاطئ إلى أول قطعة من قطع الجليد العائمة على النهر. . . وأحست بالجليد يتكسر تحت قدميها، ولكنها لم تُضع لحظة، فوثبت إلى قطعة ثانية، ومنها إلى ثالثة، وهكذا. لقد أفلتت فردة حذائها من رجلها، وتمزق جوربها، وصبغ الدم كل خطوة من خطواتها، ولكنها لم ترَ شيئاً، ولم تشعر بشيء. إلى أن تكحلت عيناها، على نحو ضبابي مبهم، وكأنها في حلم، برؤية شاطئ أوهيو، ورجل يساعدها على النزول إلى اليابسة. . .

ـ 4 ـ

ليس عضو مجلس الشيوخ إلاّ إنساناً

كان ضوء النار البهيجة يزيد في روعة الأثاث الذي يزين حجرة الاستقبال الفخمة، ويتلألأ على جوانب كؤوس الشاي والإبريق المغالى في صقله وتلميعه عندما شرع عضو مجلس الشيوخ، السناتور بيرد، يخلع حذاءه ليلبس النعلين الجديدين اللذين أعدتهما زوجته له أثناء غيبته الأخيرة عن الديار بسبب انعقاد الدورة البرلمانية.

ولم يكد يفعل حتى التفت إلى زوجته وزفر:

ـ «الحق، يا ماري، أن مهمة التشريع هذه مهمةٌ مضنية!»

ـ «حسناً، ولكن ما الذي عملتموه في هذه الدورة؟»

وإذ لم يكن من عادة السيدة بيرد أن تصدع رأسها بما يجري في مجلس شيوخ الولاية، معتبرة أن ما عندها من المهام يكفيها وزيادة، فقد فتح السيد بيرد عينيه في استغراب وقال:

ـ «لا شيء يستحق الاهتمام الكبير.»

ـ «حسناً، ولكن هل صحيح أنهم يدرسون قانوناً يقضي بمنع الناس من تقديم الطعام والشراب إلى أولئك الملونين البائسين الذين يلجأون إلى الولاية؟ لقد سمعت أنهم ينظرون في شيء كهذا، ولكني لا أحسب أن مجلساً مسيحياً يمكن أن يقرّه بحال!»

ـ «يُخيّل إليّ أنك انقلبتِ، فجأة، إلى سياسية متحمسة...»

- «لا، هذا هراء. إني أوثر أن لا أضيع ثانية واحدة في مناقشة سياستكم. ولكني أظن أنكم تقدِمون، ههنا، على عمل وحشي، منافٍ لروح المسيحية. وأرجو، يا عزيزي، أن لا يُقَرَّ مثل هذا القانون.»

وحاول السناتور أن يُفهم زوجته أن العبيد يهربون بأعداد كبيرة من ولاية كانتاكي، وأن الداعين إلى إلغاء الرق قد استثاروا أهل تلك الولاية بتصرفاتهم الشاذة. ومن أجل ذلك أقر مجلس شيوخ ولاية أوهيو ذلك القانون، لتهدئة الخواطر في الولاية الجارة.

ولم تكد السيدة بيرد تسمع إلى هذا الكلام حتى تجمّع الدم في وجنتيها وسألت زوجها في لهجة حازمة:

- «والآن، جون، أحب أن أعرف ما إذا كنت تعتقد أن ذلك القانون عادل ومنسجم مع التعاليم المسيحية؟»

فقال في شيء من السخرية:

- «إنكِ لن تطلقي النار عليَّ إذا قلت إني أجده عادلاً ومنسجماً مع الروح المسيحية...»

- «ولكنك لم تصوت مع القانون طبعاً!»

- «لقد فعلت!»

فازدادت السيدة بيرد ثوراناً وهياجاً:

- «يجب أن تخجل من نفسك يا جون. إنه لقانون مخجل، كافر، شرير. ولسوف أكسره بنفسي حالما تسنح لي الفرصة. وإني لأسأل الله أن يتيح لي مثل هذه الفرصة. إن الحياة تصبح كريهة جداً حين ينتهي الأمر إلى أن تمنع المرأة من تقديم عشاء ساخن وفراش إلى المخلوقات البائسة الجائعة، لا لشيء إلاّ لأن لهذه المخلوقات بشرةً سوداء، ولأنها أُخضِعت طوال عمرها للاستغلال والإيذاء.»

وحاول السيد بيرد أن يهدئ من ثورة زوجته ولكنها أبت الإنصات إلى كلامه المتهافت وصرخت:

ـ «هراء، كل ما تقوله هراء. تستطيع أن تتكلم من الآن حتى مطلع الفجر ولكنك لن تقنعني. ولكي ترى مدى الوحشية التي ينطوي عليها قانونكم أحب أن أوجِّه إليك هذا السؤال: لو طرقتْ بابك الآن مخلوقة بائسة مرتجفة جائعة، فهل تنهرها وتردها كسيرة الخاطر والفؤاد، لمجرد أنها هربت من سياط جلاديها القساة؟ إني لأحبّ حقاً أن أرى ما الذي تفعله، يا جون، في هذه الحال. أتطرد هذه المرأة تحت العاصفة الثلجية أم تلقي عليها القبض وتسوقها إلى السجن! إنك خليق عندئذ بأن تفخر وتعتز بتلك المأثرة!»

وفي هذه اللحظة الحاسمة، مدَّ «كودجو» الزنجي العجوز رأسه من وراء الباب ونادى سيدته أن تحضر إلى المطبخ. فتنفس عضو مجلس الشيوخ الصعداء، واسترخى في كرسيه ذي الذراعين، وشرع يتصفّح جرائد اليوم.

ودوّى صوت السيدة في أرجاء المنزل:

ـ «جون! جون! أسرع! تعال إلى هنا لحظة!»

رمى السناتور صحفه، وهرع إلى المطبخ فإذا به أمام امرأة هزيلة شابة، ترتدي أسمالاً ممزقة، ترتعد من البرد، وتلبس في إحدى رجليها فردة حذاء، والدم يسيل من رجلها الأخرى ذات الجورب الممزق. كانت على وجهها مسحة تؤذن بأنها تتحدر من العِرق المحتقَر، ولكن جمالها البائس وارتجافها من التعب والجوع حتى الموت أوقعا الرجفة في جسم المتشرِّع الشيخ. فأمسك أنفاسه، ووقف صامتاً لا ينبس. في حين انصرفت زوجته وخادمتها السوداء العجوز العمة دينا، إلى إنعاش المرأة الفاقدة الوعي، وفي حين وضع

كودجو الصبيّ على ركبتيه، وانهمك في خلع حذائه وجوربه، وتدليك قدميه الصغيرتين الباردتين.

وصرخت السيدة بيرد في حنان:

ـ «لا تخافي أيتها المخلوقة البائسة!» ثمّ رأتها تفتح عينيها الواسعتين السوداوين وتجيلهما في ما حولها، ثم نهض وعلى وجهها انطباعة احتضار وقالت:

ـ «أوه؟ هاري؟ هل قبضوا عليه؟»

وهنا وثب الصبي من حجر كودجو وعدا إلى جانبها، فتلقفته بذراعيها متنهدة:

ـ «أوه؟ إنه هنا! إنه هنا!»

ثم التفتت إلى السيدة بيرد وقالت في انكسار:

ـ «أسألك بالله يا سيدتي، أن تسبغي حمايتكِ علينا. لا تدعيهم يأخذوه!»

فقالت السيدة بيرد في حماسة:

ـ «لن يمسّك، ههنا، أحدٌ بسوء، أيتها المرأة البائسة. أنتِ آمنةٌ منذ اليوم، فلا تخافي!»

وأعدّت السيدة بيرد فراشاً مؤقتاً للمشردة المسكينة، فنامت ملء جفنيها، ونام الصبي على ذراعيها. بعد أن قاومت المرأة، بعصبية واضحة، جميع محاولات السيدة بيرد لإقناعها بضرورة نقله إلى فراش آخر.

وعاد السيد بيرد وزوجته إلى الحجرة التي كانا فيها قبل من غير أن يشيرا بكلمة إلى حديثهما السابق. وتشاغلت السيدة بيرد بحبكِ الصوف، في حين تظاهر السيد بيرد بقراءة الصحيفة.

وأخيراً قال السيد بيرد:

ـ «إني لأتساءل من تكون هذه المرأة؟»

فأجابت السيدة بيرد:

ـ «عندما تنهض من نومها وترتاح قليلاً سنرى.»

ران الصمت على الغرفة. وما هي إلاّ لحظة حتى أقبلت العمة دينا لتعلن أن المرأة قد أفاقت وأنها ترغب في أن ترى السيدة بيرد.

قصد الشيخ وزوجته المطبخ. كانت المرأة جالسة على مقعد خشبي قرب النار. وكانت ترنو ببصرها إلى اللهب، في وداعة وانكسار.

وبصوت رقيق قالت السيدة بيرد:

ـ «أرجو أن تكوني في حال أفضل، الآن.»

وتنهدت المرأة. ثم رفعت عينيها السوداوين وركزتهما عليها في ابتهال صارخ، بصمت، لم تتمالك معه السيدة إلاّ أن تذرف دمعة كريمة:

ـ «لا داعي لأن تخافي من شيء. أنتِ هنا بين أصدقائكِ أيتها المرأة المعذبة. ولكن أخبريني من أين أقبلت وماذا تريدين؟»

فأجابت المرأة:

ـ «من ولاية كانتاكي.»

فانبرى السناتور لاستجوابها:

ـ «متى؟»

ـ «هذه الليلة.»

ـ «ولكن كيف؟»

ـ «لقد عبرت النهر فوق الجليد.»

فصرخ السامعون جميعاً:

ـ «فوق الجليد!»

فقالت المرأة:

ـ «أجل. لقد فعلت. وقد ساعدني الله. لقد اجتزت الجليد، لأنهم كانوا من ورائي، ولم يكن ثمة سبيل آخر.»

وسألها السيد بيرد:

ـ «وهل كنت أَمَة عبدة؟»

ـ «نعم، يا سيدي. وكان يملكني رجل من كانتاكي.»

ـ «وهل أساء معاملتكِ؟»

ـ «لا، يا سيدي. لقد كان سيداً كريماً.»

ـ «هل أساءت سيدتكِ إليكِ؟»

ـ «لا، لقد كانت تحسن إليّ دائماً.»

ـ «إذن، ما الذي أغراكِ بترك هذا المنزل الطيب، ومجابهة هذه المخاطر كلها؟»

وتنهدت الأَمَة. ثم ألقت على السيدة بيرد نظرة باكية وقالت:

ـ «أيتها السيدة، هل فقدتِ يوماً، ولداً من أولادك؟»

كان السؤال غير متوقع. وكان أشبه بطعنة في جرح لمّا يلتئم. ذلك بأن الأسرة فقدت، منذ شهر واحد، طفلاً عزيزاً ووارته في التراب.

واستدار السيد بيرد متجهاً نحو النافذة. وانفجرت السيدة بيرد في بكاء مرير. حتى إذا هدأت قالت:

ـ «لماذا توجهين إليّ هذا السؤال؟ أجل، لقد فقدت صغيري.»

ـ «إذن، لا ريب في أنكِ سترقّين لحالي. لقد فقدتُ ولدين، واحداً إثر واحد، وغادرتهما دفينين في البقعة التي أقبلت منها. ولم يُبق لي الدهر غير هذا الصبي. لم أنم ليلة بعيدة عنه. كان كل ما

أملك. كان عزائي وموضع اعتزازي، وكانوا أيتها السيدة على وشك أن ينتزعوه مني، أن يبيعوه، أن يبيعوه للنخاسين وهو الطفل الذي لم يفارق أمه طوال حياته! لم أحتمل ذلك، أيتها السيدة، فحملته وهربت، فتعقبني النخاس، هو ونفرٌ من جماعة مولاي القديم، وكادوا يمسكون بي، فوثبت إلى الجليد وعبرت النهر لا أدري كيف. . .»

وكانت السيدة بيرد تبكي، وتأوّهت دينا والدمع يفيض على وجهها الأسود: «اللهم ارحمنا!» في حين فرك كودجو العجوز عينيه، فركاً عنيفاً، وبدت على وجهه أمارات التأثر. أما السناتور بيرد فكان رجل دولة، فليس منتظراً منه طبعاً، أن يتأوّه أو يبكي، شأن غير المخلّدين من الناس. . من أجل ذلك تشاغل بالتطلع إلى بعيد، من خلال النافذة، وبصقل حنجرته، وتنظيف نظارتيه، والتمخط بطريقة قُصِدَ بها إثارة الشك والظنون. ثم إنه صاح فجأة:

ـ «ولكنكِ زعمتِ أن سيدكِ كان رجلاً طيباً كريماً؟»

ـ «أجل، إنه رجل طيب، ولكنه اضطر إلى أن يتخذ هذا الموقف لدين كان يرزح تحت ثقله الثقيل.»

ـ «وهل لك زوج؟»

ـ «نعم، ولكن رقبته مِلكٌ لرجل آخر، وهو يسومه سوء العذاب، ويهدده بأن يبيعه من نخّاسي الجنوب. وأغلب الظن أنني لن أراه بعد اليوم!!»

فسألتها السيدة بيرد:

ـ «وإلى أين تفكرين أن تذهبي، أيتها المرأة الشقية؟»

ـ «إلى كندا، التي لا أعرف أين تقع. هل هي بعيدةٌ جداً كندا، هذه؟»

فأجابتها السيدة بيرد:

ـ «أبعد مما تظنين بكثير. ولكننا سنرى ما الذي نستطيع أن نفعله من أجلكِ. ثقي بالله، أيتها المرأة، وهو لن يتخلى عنكِ.»

وعندما رجع السيد بيرد وزوجته إلى غرفتهما قال السناتور:

ـ «هذه المرأة يجب أن تخرج من بيتنا الليلة. أنا لا أرضى أن يُلقى القبض عليها عندي هنا. إن ذلك ليسيء إلى مركزي أعظم الإساءة...»

ـ «الليلة؟ كيف السبيل إلى هذا، وإلى أين؟»

ـ «أنا أعرف جيداً إلى أين!»

قال السناتور ذلك، وشرع يلبس نعليه.

ـ «سوف أحملها إلى صديقنا جون فان ترومب الذي أعتق في يوم من الأيام عبيده جميعاً وهجر كانتاكي ليشتري بيتاً يقع بعيداً عن الغدير، في قلب الغابة. إنه مكان منيع لا سبيل إلى الوصول إليه... والمصيبة أن أحداً لا يستطيع أن يجتاز هذا الطريق الوعر، غيري...»

ذلك أن السناتور الجليل الذي ناضل من أجل إقرار القانون اللاإنساني في مجلس الشيوخ نضال الأبطال لم يكن يفهم من كلمة اللاجئ شيئاً أكثر من أنها تتألف من أربعة أحرف بعينها، أو أكثر مما توحيه صورة تنشرها الصحف لرجل يحمل عصاه وجرابه. أما وجود البؤس الحقيقي، أما العين البشرية الصارخة بالتضرّع، أما اليد البشرية الواهنة المرتجفة، أما نداء الاحتضار اليائس الذي ينفذ إلى شغاف القلب فشيءٌ لم يعرفه السيد بيرد من قبل. لم يَقُم في وهمه قط أن اللاجئ قد يكون أمّاً تعسة، أو طفلاً لا يمكنه الدفاع عن نفسه. وإذ لم يكن شيخنا المحترم صخراً أو فولاذاً، فقد رقّ قلبه للأَمَة

وابنها واعتزم أن ينقلهما تلك الليلة إلى بيت صديقه النائي عن الأعين. ولم يكد يبلغ الباب ليعدّ العربة للرحلة الجاهدة حتى رجع وقال في شيء من التردد:

ـ «ماري، لست أدري أي شعور سوف يستحوذ عليكِ، ولكن اقصدي تلك الخزانة المليئة بالأمتعة... أمتعة هنري... الصغير المسكين.»

قال هذا وانقلب على عقبيه، موصداً الباب خلفه.

ولم تكن ماري مرتابة بأن زوجها ذو قلب كبير، فطفرت الدموع من عينيها وهرعت إلى الخزانة المغلقة، ففتحتها. وقد تعلق بها ولداها، فإذا فيه سترات صغيرة مختلفة الأشكال والنماذج، وركام من المآزر، وصفّ من الجوارب الصغيرة، ونعلان صغيران مُجلّفان من أمام. وكان ثمة أيضاً فرسٌ خشبي وعربة، وخذروف (بلبل) وكرة ـ تذكاراتٌ جمعتها بدمع العين، وجرح في القلب لا يندمل. وجلست السيدة بيرد إلى جانب الدرج، وأسندت رأسها إلى يديها، وانخرطت في البكاء حتى تسرّب الدمع من بين يديها إلى الدرج ثم رفعت رأسها فجأةً، وشرعت تختار في سرعة عصبية، أخف الأشياء وأثمنها وتجمعها كلها في ربطة واحدة.

وصاح أحد الولدين:

ـ «ماما، أتريدين أن تقدّمي هذه الأشياء إلى أحد؟»

فقالت الأم في حنان وصدق:

ـ «لو تطلّع هنري الصغير إلينا من علياته، إذن لابتهج بما نصنع الآن. ما كنت لأحتمل أن أقدّم هذه الأشياء إلى شخص يعيش حياة عادية سعيدة، ولكني أقدمها اليوم إلى أمّ عرفت انسحاق الفؤاد بأكثر مما عرفته أنا، وأنا أسأل الله أن يسبغ بركاته علينا جميعاً.»

ثم إنها فتحت خزانة للملابس، وأخذت منها ثوباً أو ثوبين لتعطيهما إلى الأَمَة المسكينة.

وعندما دقت ساعة الحائط العتيقة الثانية عشرة، ليلاً، حمل بيرد أليزا وابنها إلى منزل جون فان ترومب، فبلغوه بعد جهد موصول، ومخاطر بالغة. وقد رحب جون بأليزا وهاري الصغير، وأنزلهما أكرم منزلة. ومن هناك وفّقت أليزا إلى أن تفرَّ إلى مستعمرة من مستعمرات طائفة «الكويكرز» المعروفة بالتدين والصلاح، حيث التقت بزوجها جورج وكحلت عينيها برؤيته بعد أن يئست من لقائه أبد الدهر.

ـ 5 ـ

السلعة البشرية تحوّل إلى مالكها الجديد

أطل صباح ذلك اليوم من أيام شباط على وجوه واجمة، وقلوب منكسرة في كوخ العم توم. كانت المنضدة الصغيرة قائمة إلى جانب النار، وعليها القماشة الخاصة بكيّ الملابس. لقد كوت العمة كلو قميصين خشنين، ولكنهما نظيفان، وها هي ذي تنشر قميصاً ثالثاً على المنضدة استعداداً لكيّه. إنها تنظف كل جزء من أجزائه ثم تكويه في عناية بالغة رافعة يدها، بين الفينة والفينة، لتكفكف دموعاً تنحدر ساخنة على خديها.

وكان توم جالساً غير بعيد عنها، والكتاب المقدّس على ركبتيه يقلب نظره في بعض صفحاته مسنداً رأسه إلى يده. ولكن أياً منهما لم ينطق بكلمة. كان الضحى على وشك أن يرتفع. وكان الأولاد لا يزالون نائمين معاً في سريرهم الصغير، القديم، ذي العجلات.

وبقلب مُثقل، نهض توم واتخذ سبيله صامتاً، ليرى أولاده ثم قال:

ـ «إنها المرة الأخيرة التي أراهم فيها!»

ولم تُجب العمة كلو. لقد واصلت حركة المكواة جيئة وذهاباً على القميص الخشن، إلى أن غدا أملس ناعماً بعض الشيء. حتى إذا أتمت عملها ألقت بنفسها في يأس، وأنشأت تجهش وتنتحب.

فقال توم:

ـ «لا تجزعي، يا كلو، فلسوف أجد هناك، الإله نفسه الذي أسبغ علينا رعايته هنا.»

ـ «لنفرض أن ذلك صحيح. ولكن الإله كثيراً ما يسمح بحدوث أشياء مروّعة. أنا خائفة عليك يا توم.»

فقال توم:

ـ «إني أسلم نفسي إلى الله. وليس من شيء يمكن أن يذهب إلى أبعد مما يرسمه هو. والحق أن هناك شيئاً واحداً أستطيع أن أحمده عليه وهو أن السيد باعني أنا، ولم يبعكِ أنتِ أو يبعْ أحداً من أولادنا. أنتم هنا في مأمن، وكل شرّ قد يقع خليق بأن يصيبني وحدي. ولست أشك في أن الله سوف يساعدني على احتماله.»

ـ «وعلى كل حال، أنا لا أستطيع إلاّ أن ألوم السيد على موقفه هذا. كان في استطاعته أن لا يبيعك، لو شاء.»

فقال توم:

ـ «كلو، إذا كنتِ تحبينني فلا تتحدثي بهذه اللهجة. أنا لا أحب أن أسمع أيما انتقاد للسيد شيلبي. ألم أحمله على صدري، وهو طفل صغير؟»

ـ «لست أدري. ولكني أحس أن في المسألة خطأ ما.»

قالت ذلك وانصرفت إلى إعداد طعام الفطور الأخير لزوجها العجوز. وكانت المسكينة قد حرصت على جعل ذلك الفطور أطيب ما يكون، وأغنى ما يكون، فذبحت أفضل دجاجاتها وأعدت ضروب الحلوى والفطائر...

ورأى ابنها «موز» المائدة السخية، فمدّ يده وأمسك بقطعة من دجاجة، فما كان من «كلو» إلاّ أن ضربته صارخة:

ـ «كيف تجرؤ على أن تمسها؟ ألا تعرف أنه آخر فطور لأبيك المسكين في هذا المنزل؟»

ولامها توم على تصرفها، فقالت وهي تخفي وجهها وراء مئزرها:

ـ «لا تؤاخذني، فما كان ذلك برغبة مني.»

وجمد ولداها في مكانيهما، وتطلعا أولاً إلى أبيهما، ثم إلى أمهما، في حين تعلق الطفل الصغير بثيابها وهو يبكي.

عندئذ دعت «كلو» أولادها إلى المائدة، فأقبلوا عليها في شوق ولذة.

ـ «والآن»، قالت كلو، «يجب أن أعدّ لك ثيابك. ها هو ذا ثوبك الصوفي الذي يقيك الروماتيزم، في هذه الزاوية. حافظ عليه جيداً فلن تجد منذ اليوم من يصنع لك ثوباً مثله. وهذه هي قمصانك العتيقة، وهذه قمصان جديدة لك. وهذه الجوارب، لقد أصلحتها أمس. ولكن يا إلهي! من الذي سيصلح جواربك منذ اليوم؟»

وأسندت رأسها إلى جانب الصندوق وتنهدت...

وهنا صاح أحد الأولاد:

ـ «ها هي ذي سيدتي بالباب!»

فقالت كلو:

ـ «إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً فلماذا جاءت؟»

ودخلت السيدة شيلبي. فقدمت إليها كلو، في تجهم واضح، كرسياً تجلس عليه.

وقالت السيدة:

ـ «توم، إني آتية لـ...»

وسكتت فجأة. وتطلعت إلى الجماعة المحزونة الصامتة، ثم جلست على الكرسي وأجهشت بالبكاء.

وإذ رأتها كلو تنشج قالت:

ـ «لا، لا تبكي!»

وانفجرت بدورها بالبكاء.

وأخيراً قالت السيدة:

ـ «توم، لا أستطيع أن أقدّم إليك شيئاً ينفعك. فلو قدّمت إليك مالاً فإنهم سيأخذونه منك. من أجل ذلك لست أجد خيراً من أن أقسم لك بالله القدير إني سوف أتتبع أخبارك، وأفتديك من مالكك حالما يتيسر لديّ المال الضروري لذلك. وحتى ذلك الحين، سلّم أمرك إلى الله!»

وهنا أعلن الأولاد وصول السيد هيلي. وما هي إلاّ لحظة حتى فتحت الباب رفسة غير لبقة ولا محتشمة، وبدا السيد هيلي مغتاظاً نكداً بعد الذي عاناه ليلة أمس من جهد ذهب أدراج الرياح وصاح:

ـ «تعال أيها العبد! هل أنت حاضر؟»

وأقفلت كلو الصندوق وتطلعت عابسة إلى النخاس، وهي تنهض، وبدت دموعها وكأنما استحالت فجأة إلى شرارات من نار.

نهض توم، في وداعة، ليتبع مولاه الجديد. ورفع صندوقه الثقيل على كتفه. وحملت زوجته طفلها الصغير بين يديها لتتبعه إلى العربة، ولحق بها الطفلان الآخران وهما يبكيان.

تقدّمت السيدة شيلبي إلى النخاس وتحدثت إليه ملياً. وفيما هما يتجاذبان أطراف الحديث تقدّمت الأسرة كلها إلى العربة الواقفة بمحاذاة الباب، حيث احتشدت جمهرة من نساء المنطقة ورجالها وأولادها لتودع الراحل العجوز الوداع الأخير.

والتفتت إحدى النساء المنتحبات إلى العمة كلو وقالت:

ـ «يبدو أنكِ قادرة على تحمّل الكارثة أكثر مما نستطيع يا كلو!»

فأجابتها الزوجة التعسة، وهي ترمق النخاس الذي كان يتقدم نحو العربة شزراً:

ـ «لقد نضبت دموعي... إني لا أستشعر القوة على البكاء منذ اليوم.»

وصرخ هيلي في وجه توم:

ـ «اصعد!»

فصعدت السلعة البشرية، وسحب النخاس من تحت المقعد قيدين حديديين ثقيلين وقيّد بهما رِجلَي العجوز.

وصاح الحشد صيحة استنكار، في حين قالت السيدة شيلبي، من شرفتها:

ـ «مستر هيلي. أؤكد لك أن لا ضرورة لهذا الحذر كله...»

وهنا أدرك الصبيان الصغيران حقيقة المصير الذي يساق إليه أبوهما، فتعلقا بثوب والدتهما وصارا ينشجان على نحو تتفتت لهوله الأكباد.

وقال توم:

ـ «آسف لعدم تمكني من توديع السيد جورج...»

وكان جورج، نجل السيد شيلبي، غائباً عن الإقطاعة فلم يدرِ بالمصير الذي انتهى إليه العم توم. ثم استطرد في صدق وإخلاص:

ـ «بلّغوا السيد جورج سلامي وحبي!»

ألهب هيلي الفرس بسوطه. وانطلقت العربة بهما، وتوم يتلفّت بعينيه وبقلبه إلى بيته وبيت امرأته وأولاده، حتى غاب عنه الكوخ والمودعون المحتشدون قرب الكوخ.

وواصلت العربة سيرها مسرعة إلى أن توقفت أمام دكان أحد الحدادين.

وأخرج هيلي من تحت المقعد قيدين يدويين وخاطب الحداد بقوله:

ـ «هذان صغيران على يديه، فهل لك في أن توسعهما قليلاً؟»

وعرف الحداد توم فصاح:

ـ «ولكنه توم. هل باعه سيده؟»

ـ «أجل باعه.»

ـ «ولكنك في غير ما حاجة إلى تصفيده بالأغلال. إنه أشد الناس إخلاصاً وأكرمهم نفساً!»

ولكن هيلي أمر الحداد بالإسراع، فانصرف الصانع إلى عمله. وفيما كان توم ينتظر خارج الدكان، مطرق الرأس، كسير الجناح، إذا به يسمع وقع حوافر فرس تسرع العدو من ورائه. وقبل أن يفيق من غمرة استغرابه، كان جورج ابن السيد شيلبي، يقفز إلى العربة، ويطوق عنقه بذراعيه، وينخرط في بكاء مرير ويقول:

ـ «إني أعلن على رؤوس الأشهاد أنه عمل وضيع. أنا لا آبه لما يقولون. إنه لمخجل حقاً. ولو قد كنت رجلاً لما سمحت لهم بذلك!»

ـ «أواه أيها السيد، إني لسعيد حقاً بأن أراك. إن رؤيتك تفرحني كثيراً!»

وعندما حرك قدميه، وقعت عين جورج على الأصفاد فصرخ رافعاً يديه:

ـ «يا للعار! يجب أن أضرب هذا الوغد. أجل يجب!»

ـ «لا، لا تفعل يا سيدي. ولا تتحدث بصوت مرتفع. فليس من الحكمة إغضابه.»

«إنه لمعيب. لم يستدعوني ولم يبعثوا إليّ بأيما كلمة. ولولا «توم لنكولن» لما سمعت بالفاجعة. إني سأؤدبهم جميعاً كباراً وصغاراً.»

ـ «ولكن هذا ضلال، يا سيدي الصغير، وليس فيه ما يرضيني!»

وهنا أدار جورج ظهره إلى الدكان وهمس في أذن العبد:

ـ «لقد جئتك بدولاري الفضي!»

فغلب التأثر على توم وقال بصوت متهدج:

ـ «أوه، ولكني لا أستطيع أن آخذه معي، أيها السيد. لا، لا، اعذرني!»

ـ «بل ينبغي لك أن تفعل. انظر، لقد أخبرت العمة كلو بذلك فنصحتني بأن أحدث فيه ثقباً وأربطه بشريط حتى يكون في ميسورك أن تعلقه حول عنقك، وتخفيه عن الأنظار، وإلاّ سلبك إياه هذا الوغد اللئيم. أقول لك الحق يا توم، إني راغب في سحقه بقدمي. إن في ذلك ما يشفي غليلي!»

ـ «لكن يا سيدي، هذا لن يفيدني.»

ـ «حسناً.»

قال جورج ذلك وانهمك بتعليق الدولار في رقبة توم. ثم استطرد:

ـ «والآن زرّر سترتك فوقه، وحافظ عليه، وتذكّر كلما رأيته أنني سآتي يوماً إليك وأنقذك. لقد تحدثتُ إلى العمة كلو في هذه المسألة، وطمأنتها. سأتدبر الأمر بنفسي، وسأنغص حياة أبي إن لم يوافق على افتدائك!

ـ «أوه، أيها السيد، ينبغي أن لا تتحدث هكذا عن أبيك!»

ـ «أنا لم أعنِ شيئاً سيئاً!»

فقال توم:

ـ «والآن، أيها السيد جورج. ينبغي أن تكون ولداً طيباً. أطع أمك والتمس رضاها. فالرب يعطينا كثيراً من الأشياء مرتين بل مرات عديدة ولكنه لا يعطينا الأم إلاّ مرة واحدة. ويصعب أن ترى مثل هذه المرأة، أيها السيد الصغير، طوال عمرك.»

ـ «أعدك بذلك يا عم توم!»

وهنا أقبل السيد هيلي وفي يده القيدان، فابتدره جورج بقوله:

ـ «احسب أنه قد آن لك أن تستحي من إنفاق عمرك كله تشتري الرجال والنساء وتقيّدهم بالأغلال، وكأنهم بهائم...»

فقال هيلي:

ـ «ما دامت عائلتك راغبة في بيع الرجال والنساء فلست أجد بأساً في ذلك. إن شراء الرجال والنساء ليس أدعى إلى الخجل من بيعهم!»

ـ «إني لن أقترف أياً من الإثمين يوم أبلغ مبلغ الرجال. إني لأستحي من نسبتي إلى كانتاكي، بعد أن كنت من قبل شديد الاعتزاز بهذه النسبة.»

قال ذلك وامتطى جواده ثم التفت إلى توم مودعاً:

ـ «حسناً، أستودعك الله، أيها العم توم...»

ـ «مع السلامة أيها السيد الصغير. ليحمِك الله القدير وليباركك. آه، إن كانتاكي ليس فيها الكثير مثلك!»

قال ذلك من شغاف قلبه ونظره يتابع الوجهَ النبيل الذي مضى

لسبيله. ظلت عينا توم مسمرتين في ذلك الاتجاه حتى تلاشى وقع حوافر الفرس نهائياً، وفقد توم آخر صدىً من أصداء بيته القديم. اغرورقت عيناه بالدموع وسَرت الرعدة في أوصاله. بيد أن شيئاً دافئاً كان يعلو فؤاده في ما يبدو، هناك حيث وضع الفتى الكريم ذلك الدولار الثمين.

رفع توم يده المعروقة وضغط على التذكار بأقصى ما يستطيع وكأنما يريد أن يلصقه بقلبه!

ـ 6 ـ

على متن السفينة

انطلقت العربة بالسيد هيلي ومعه توم، وكلّ منهما مستغرق في أفكاره الخاصة. فأما هيلي فكان يفكّر في طول توم وفي عرضه وفي السعر الذي سيبيعه به إذا ما ظلّ بديناً حتى ذلك اليوم الذي يحمله فيه إلى سوق النخاسة... وأما توم فكان يفكر في جملةٍ من كتاب قديم ما فتئت تتردّد في رأسه فتضجّ لها جنبات نفسه: «ليس عندنا ههنا مدينةٌ خالدة، ولكننا نلتمس واحدة ستأتي. من أجل ذلك لا يستحي الله من دعوتنا إياه إلّهنا، لأنه قد أعدّ لنا هذه المدينة.»

وسحب السيد هيلي صحفه من جيبه وراح يبحث عن الإعلانات في شوق بالغ. ولم يكن ليحسن القراءة، فهو يرفع صوته بعض الشيء. وهكذا تلا الفقرة الآتية:

«**تركة للبيع، زنوج!** نزولاً عند أمر القضاء سيباع يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠ شباط، أمام قصر العدل بمدينة واشنطن، كانتاكي، الزنوج الآتون: هاجر، ٦٠ سنة. جون، ٣٠ سنة. بين، ٢١ سنة. ساول، ٢٥ سنة. ألبرت، ١٤ سنة. وإنما سيباع هؤلاء لمصلحة دائني إقطاعة جيس بلاتشفورد وورثتها.»

ثم التفت إلى توم وقال:

ـ «لقد اعتزمت أن أشتري رفاقاً لك، يا توم، وأرجو أن يكونوا

اجتماعيين قريبين إلى القلب حتى تنعم برفقتهم. لذلك يتعيّن علينا أن نقصد إلى واشنطن مباشرة حيث سأودعك السجن، وأنصرف لإتمام الصفقة.»

وتلقّى توم هذا النبأ بصبر، وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه كم واحداً من هؤلاء البائسين له زَوج وأولاد، وما إذا كانوا سيشعرون بالذي شعر به هو، عند فراقهم. وأياً ما كان فقد تصرم النهار، وهبط الليل على هيلي وتوم في مدينة واشنطن، فأما أحدهما فآوى إلى الفندق، وأما ثانيهما فزُجّ به في السجن.

وحوالى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي احتشد جمع غفير أمام قصر العدل ينتظرون افتتاح المزايدة. كان الرجال والنساء المعدّون للبيع ينتحون زاوية، ويتحدثون بصوت خافت. وكانت الأمَة التي أعلن عنها باسم هاجر في الستين من عمرها، ولكنها بدت أكبر من ذلك بفعل الإرهاق والمرض. وكانت نصف عمياء، وشبه مقعدة بالروماتيزم. وإلى جانبها، كان يقف ألبرت، ابنها الذي لم يَبقَ لها غيره، وهو فتى في الرابعة عشرة من عمره، تبدو على وجهه أمارات الذكاء. كان هو البقية الباقية من أسرة كبيرة انتُزعت من قلب المرأة، عضواً إثر عضو، لتباع في أسواق الرقيق بالجنوب. فلا غرو إذا ما تعلقت العجوز به بكلتا يديها الراجفتين وسمّرت عينيها، في خوف مزلزِل، على كل من تقدّم لفحصه.

وقال أكبر الرجال:

ـ «لا تخافي، أيتها العمة هاجر. لقد حدّثت السيد توماس في ذلك، ووعد بأن يسعى لبيعكما معاً من رجل واحد.»

فقالت وهي ترفع يديها الراجفتين:

ـ «قل لهم أن لا ينظروا إليّ نظرتهم إلى شيء بالٍ أو مهترئ.

إني لا أزال قادرة على أن أطبخ وأغسل، وأجلي. قل لهم ذلك، قل لهم!..»

وهنا شقّ هيلي طريقه وسط الجمع، وتقدّم إلى أحد العبيد ففتح فمه، وتطلع إليه، وأمسك بأسنانه يفحصها، واستعرضه واقفاً وماشياً وحمله على أن يأتي بحركات عديدة تظهر فيها عضلاته وتبرز. ثم انتقل إلى عبد آخر فأخضعه للفحص نفسه، حتى إذا انتهى إلى الغلام جس ذراعيه وتطلع إلى أصابعه وأمره أن يقفز ليرى مدى ما يتمتع به من خفّة ورشاقة.

وفي نبرة تنضح بمزاج من الجزع والحماسة قالت المرأة العجوز:

ـ «إنه لن يباع إلاّ معي. أنا وهو نؤلف صفقة واحدة. إني لا أزال قوية، أيها السيد، وأستطيع أن أنهض بأكوام من العمل...»

ـ «في الزراعة، أليس كذلك؟»

قالها في سخرية. ثم مشى والارتياح بادٍ على وجهه، ليقف بعدُ ويداه في جيبه، وسيكاره في فمه، وقبعته مائلة إلى جانب، وكأنه مستعدٌ للمساومة.

وفيما كان هيلي يتحدث إلى أحد الرجال معلناً رغبته في شراء الفتى دون أمه العجفاء سرت همهمة مجنونة بين النظارة، وتقدم الدلال يشق سبيله في قلب الحشد، وأمسكت العجوز أنفاسها وتعلقت أكثر فأكثر بابنها.

ـ «ابقَ قريباً يا ألبرت. إنهم سيبيعوننا معاً.»

فقال الصبي:

ـ «ولكني أخشى أن لا يفعلوا...»

ـ «يجب أن يفعلوا. وإلاّ فلن أقوى على العيش إذا ما فُصلت عنك!»

وأعلن افتتاح السوق. وبدأت المزايدة. وبيعت السلع البشرية المعلن عنها، بأسعار جيدة. ورسا المزاد على هيلي مرتين اثنتين.

ـ «والآن، تعال أيها الفتى الصغير!» قال الدلال ذلك ولكز ألبرت بمطرقته. «اصعد إلى المنصة، وأرنا عدوك ووثبك!»

فصاحت العجوز وهي تتمسك بتلابيب ابنها:

ـ «ضعنا نحن الاثنين معاً على المنصة. ضعنا معاً. من فضلك، أيها السيد!»

فنهرها الرجل، وردّ يديها المتوسلتين قائلاً:

ـ «سوف يأتي دوركِ في الآخر. اقفز، الآن، أيها الأسود الصغير!»

ودفع الفتى إلى المنصة في حين ارتفعت من خلفه أنّة عميقة ثقيلة. ووقف الفتى متمهلاً، وألقى نظرة إلى الوراء، ولكن الدلال استحثه فاتخذ سبيله إلى المنصة وهو يسفح الدمع من عينيه الواسعتين البراقتين.

وأثارت طلعته الجميلة وقوامه الرشيق مناقشة حادّة بين النخاسين. وانصبت في أذن الدلال نصف دزينة من العروض، في آن معاً، والفتى شارد اللب، مروّع الفؤاد لا يفتأ ينقل طرفه من جانب إلى جانب متتبعاً أصوات المزايدين، المنطلقة من هنا حيناً ومن هناك حيناً. وأخيراً أعلنت المطرقة اختتام المزاد، وفاز هيلي بالصفقة. فاقتيد الفتى من المنصة إلى سيده الجديد، ولكنه وقف لحظة وتلفت إلى الوراء، في حين كانت أمه العجوز وقد عصفت بها رعدة عارمة، تمد يديها المرتعشتين نحوه.

ـ «اشترني أيضاً، أيها السيد، أستحلفك بالله! اشترني، وإلاّ قضيت نحبي من الغم والحزن!»

ولكن هيلي لم يأبه لتوسلاتها، فاشتراها أحد النخاسين بثمن بخس، دراهمَ معدودة، وتفرق شمل النظارة.

وتحلق ضحايا المزاد، الذين عاشوا سنوات في منزل واحد، حول العجوز المعولة المنتحبة، المرددة أبداً في صوت كسير:

ـ «أما كان في إمكانهم أن يتركوا لي واحداً؟ ما كنت أحسب أن قسوة الدهر عليّ ستبلغ هذا المبلغ!»

فقال أكبر العبيد سناً، يواسيها:

ـ «سلّمي أمركِ إلى الله، أيتها العمة هاجر!»

فتنهدت وقالت:

ـ «وأي فائدة ترتجى من ذلك؟»

فصاح الفتى:

ـ «أمي، أمي، لا تقولي هذا. إنهم يقولون إن سيدكِ الجديد رجل طيب.»

ـ «لستُ أبالي، لستُ أبالي. أوه، ألبرت! أوه، يا ولدي! إنك طفلي الأخير. إلهي، كيف أقوى على الاحتمال؟!»

وصاح هيلي في غلظة:

ـ «تعالوا! أبعدوها من هنا. لا يمكن أن تستمر على هذه الشاكلة.»

وفُصلت المخلوقة البائسة عن ابنها واقتيدت إلى عربة مولاها الجديد. وفرغ هيلي لوضع القيود في أيدي السلع البشرية الثلاث التي امتلك رقابها. وبعد أن أوثق هذه القيود بسلسلة حديدية طويلة اقتاد ممتلكاته إلى السجن.

وبعد أيام ركب هيلي وممتلكاته متن مركب من مراكب أوهيو.

لقد كان العبيد الثلاثة يؤلفون نواة «ثروته البشرية» المقدر لها أن تتعاظم كلما انتهت السفينة إلى مرفأ جديد.

كانت السفينة تشقّ عباب الماء، في زهو وبشر، تحت سماء صافية، وفي ظل العلم الأميركي ذي الخطوط والنجوم. وكان الحرس متجمهرين مع السيدات والرجال اللابسين أحسن الثياب يتمشون على ظهر السفينة ويستمتعون بالنهار الجميل. كل شيء كان يمور بالهناء والسعادة إلاّ ممتلكات هيلي البشرية التي حُشرت، مع الأحمال الأخرى، في الطبقة الدنيا من السفينة، والتي لم تكن لتقدّر، في ما يبدو، عظيم ما مُنحته من امتيازات حين سُمح لها بأن يخلو بعضها إلى بعض وتتحدث بصوت خافت.

ذلك أن هيلي خفّ إليهم، وقد رآهم على هذا الوضع، وصاح:

ـ «هيه! آمل أن تكونوا فرحين مستبشرين. وثقوا أنكم إذا ما خلصت نياتكم نحوي وجدتم عندي خيراً كثيراً.»

وأجابوا جميعاً:

ـ «نعم يا سيدي!»

ولكنهم في الحقيقة لم يستشعروا البشر والفرح.

كانت لهم زوجات، وأمهات، وأخوات، وأولاد، وكانوا يفكرون فيهم فينتابهم الحزن والقلق.

وتحدثت السلعة التي وُصفت بأنها «جون، 30 سنة» فقالت:

ـ «إن لي لزوجة، وهي لا تعرف شيئاً عما آل إليه أمري!»

فسأله توم:

ـ «وأين تعيش؟»

فقال جون:

ـ «في فندق غير بعيد من هنا. كم أتمنى لو أستطيع أن أراها مرة أخرى في الحياة!»

مسكين جون! كانت زفرته عميقة جداً. وكانت دموعه التي تحدرت على خديه وهو يتكلم، تتحدر على نحو طبيعي خالص وكأنما هو رجل أبيض! وتنهد توم من قلب جريح، وحاول أن يسري عن الرجل وأن يخفّف عنه بعض الشيء.

* * *

وبلغت السفينة ذات يوم، مدينة صغيرة في كانتاكي، فهبط هيلي إلى اليابسة لمسألة تجارية بسيطة.

وكان توم قد زحف إلى جانب السفينة، فلم تكن قيوده لتحول تماماً بينه وبين الحركة، وراح يسرّح طرفه في الشاطئ. وما هي إلاّ فترة حتى رأى النخاس عائداً وإلى جانبه زنجية تحمل بين ذراعيها طفلاً صغيراً. كانت حسنة اللباس، وكان وراءها زنجي يحمل حقيبة صغيرة. وكانت أمارات البشر تبدو على محياها، وهي تتحدث إلى الزنجي وتتخذ سبيلها إلى السفينة. وقرع الجرس وأنَّت الآلة البخارية وسعلت، وشقّت السفينة عباب الماء.

مشت المرأة عبر الصناديق والبالات المركومة في الطبقة الدنيا من المركب، حتى إذا جلست تشاغلت بمداعبة طفلها.

وجال هيلي جولة أو جولتين حول السفينة. ثم اقترب من المرأة وشرع يتحدث إليها هامساً.

ولاحظ توم أن سحابة ثقيلة ما لبثت أن خيّمت على وجه المرأة، وأنها كانت تردّ على كلام النخاس في حنق وعنف.

لقد سمعتها تقول:

- «أنا لا أصدق ذلك، أنا لا أصدق ذلك! إنك تريد أن تخدعني!»

فقال هيلي وهو يسحب ورقة ما من جيبه:

- «إذا كنتِ لا تصدقين فانظري إلى هذه الورقة. إنها وثيقة البيع، وها هو توقيع سيدكِ عليها، ولقد دفعت من أجلكِ مبلغاً محترماً!»

فقالت المرأة في هياج متزايد:

- «لا أصدق أن سيدي يخدعني على هذه الشاكلة. إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً!»

- «في استطاعتكِ أن تسألي أياً من هؤلاء الرجال الذين يحسنون القراءة.»

قال ذلك ونادى أحد المسافرين قائلاً:

- «أرجو أن تقرأ عليها هذه الورقة. إنها لا تصدقني!»

فقال الرجل:

- «ولكنها وثيقة بيع موقعة من جون فوسديك، وهي تنص على أن الأمَة، لوسي، وطفلها صارا ملك السيد هيلي. إنه كلام واضح لا لبس فيه.»

وتجمهر الناس حول المرأة فشرح لهم هيلي سبب الهياج. فقالت المرأة:

- «لقد قال لي إنني ذاهبة إلى لويزفيل لأعمل طاهية في الفندق نفسه الذي يعمل فيه زوجي. هكذا قال لي سيدي، هو بنفسه. ولست أستطيع أن أصدق أن سيدي قد كذب عليّ!»

فقال رجل تبدو على محياه أمارات الطيبة وكرم النفس، بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

ـ «ولكنه قد باعكِ، أيتها المرأة المسكينة، ما في ذلك ريب.»

ـ «إذن فلا فائدة من الكلام.»

قالت المرأة ذلك وهدّأت نفسها فجأة، وشدّت طفلها إلى صدرها وطفقت تحدق إلى النهر.

واصلت السفينة سيرها. وهبّت فوق رأسها نسمة من نسمات الصيف الناعمة التي لا تفرّق بين جبين أسود وآخر أبيض. ورأت أشعة الشمس تتلألأ على سطح الماء في تموجات ذهبية، وسمعت أصواتاً مستبشرة تتحدث حولها من كل جانب، ولكن قلبها كان ثقيلاً وكأن حجراً كبيراً قد سقط عليه. وتململ طفلها بين يديها، ولطم خديها براحتيه الصغيرتين، فشدّته إلى صدرها شداً محكماً، وسفحتْ على وجهه غير المدرك للحال، والذي ينظر إليها متسائلاً، عبرة إثر عبرة من عينيها الداكنتين...

ومرّ بها الرجل فرأى نشاط الغلام وصحته الموفورة، فوقف إلى جانبها فجأة، وقال:

ـ «إنه لغلام بديع. كم عمره؟»

فأجابت المرأة:

ـ «عشرة أشهر ونصف.»

وصفر الرجل إلى الغلام وقدّم إليه قطعة من حلوى، ثم واصل سيره. حتى إذا بلغ جانب السفينة الآخر وقف قرب «هيلي» الذي كان جالساً يدخن فوق بعض الصناديق، وسأله ما الذي سيفعله بتلك المرأة السوداء؟

فقال هيلي:

ـ «سوف أفيد منها في جني القطن. إن أناملها لتؤهلها لهذه المهمة!»

ـ «ولكنك لن تحتاج إلى الطفل في العمل الزراعي، طبعاً!»

فقال هيلي وهو يشعل سيجاراً جديداً:

ـ «سوف أبيعه حالما أجد له شارياً.»

ـ «أحسب أنك ستبيعه بثمن بخس.»

قال الرجل ذلك وتسلق الصناديق وجلس في دعة واطمئنان.

فقال هيلي:

ـ «لست أدري. إنه لطفل بارع. ألا ترى طوله وبدانته وقوّته ولحمه المرصوص رصاً!؟»

قال الرجل:

ـ «صحيح. ولكني لا أحسب أنك تطلب فيه أكثر من عشرة دولارات، وبخاصة إذا فكرت في أنه سيكون من العسير عليك أن تأخذ نفسك بتربيته ورعايته.»

فهزّ هيلي رأسه وقال:

ـ «هذا قليل جداً!»

ـ «ولكن، بكم تطمع أن تبيعه؟»

فقال هيلي:

ـ «في استطاعتي أن أربّي هذا الغلام بنفسي أو أعهد إلى أحد في تنشئته. إنه صحيح الجسم كما ترى، وفي ميسوري أن أبيعه بمئة دولار بعد ستة أشهر، وبمئتي دولار بعد سنة أو سنتين. من أجل ذلك لن أبيعه بأقل من خمسين دولاراً، اليوم.»

ـ «ولكن ذلك مضحك!»

فقال هيلي:

ـ «هذا هو قراري.»

وأتبعَ كلمته بحركة من رأسه حاسمة.

فقال الرجل:

- «أنا على استعداد لأن أدفع ثلاثين دولاراً ثمناً له، ولو سألتني سنتاً واحداً فوق ذلك لما فعلت.»

فتنحنح هيلي وبصق، ثم قال:

- «إسمع. سوف أقسم الفرق وأتقاضى منك أربعين دولاراً. هذا أقصى ما أستطيع أن أفعل.»

فقال الرجل بعد تفكير:

- «حسن. اتفقنا!»

فقال هيلي:

- «اتفقنا. في أي بلد ستهبط؟»

- «في لويزفيل.»

فقال هيلي:

- «لويزفيل. حسناً جداً. سوف نصل إلى هناك حوالى الغسق. وسوف يكون الطفل نائماً فنأخذه من أمه في هدوء ومن غير ما صياح. مصادفة جميلة. فأنا أحب أن أفعل كل شيء في هدوء. أنا أكره ضروب الهياج جميعاً.»

* * *

كانت أمسية رائعة مشرقة حين وقفت السفينة بمحاذاة رصيف الميناء في لويزفيل. كانت المسكينة جالسة، وطفلها بين يديها، وقد لفهُ سباتٌ عميق. فلم تكد تسمع المنادي يعلن أن السفينة قد بلغت لويزفيل حتى أسرعت إلى وضع الغلام في سرير صغير هو عبارة عن ثغرة قائمة بين الصناديق، وقفزت إلى الجانب الآخر من السفينة،

يحدوها أملٌ في أن ترى زوجها بين العشرات من نُدُل الفنادق المتزاحمين على الرصيف.

وفيما الأم مستغرقة في البحث عن رفيق حياتها حمل هيلي الطفلَ النائم وقدّمه إلى مشتريه وهو يقول:

ـ «حذارِ أن توقظه خشية أن يملأ الدنيا صياحاً فتهرع أمه لانتزاعه من بين يديك.»

فتناول الرجل الرضيعَ وولى عائداً به إلى رصيف الميناء.

حتى إذا تحركت السفينة مغادرةً المرفأ رجعت المرأة إلى مجلسها الأول. فوجدت النخاس جالساً هناك، ولكنها لم تجد الطفل...

وصرخت:

ـ «ولدي! ولدي! أين هو؟ أين هو؟»

فقال النخاس:

ـ «إن ولدك قد ذهب... اعلمي ذلك منذ البدء إذ لا مفر من أن تعرفي آخر الأمر. الواقع أني كنت واثقاً من أنك لن تستطيعي أن تصحبيه إلى الجنوب. وقد سنحت لي فرصة بيعه لأسرة من الطراز الأول ستأخذ على نفسها أمر تنشئته أحسن ما تكون التنشئة.»

وعصف بالمرأة عاصف من ثورة، وحدجت النخاس بنظرات تتميز غيظاً وحقداً. ولكن هذا كله لم يقلق هيلي، فقد شهد هذه المشاهد مئات المرات، قبل اليوم. ومن هنا لم يجد في الكرب القاتل الذي يعتلج تلك الأسارير الداكنة، واليدين المقيدتين، والأنفاس المحتنقة غير ظاهرة طبيعية من ظواهر التجارة السوداء. كل ما يخشاه هيلي هو أن تنفجر المرأة في العويل والانتحاب، فتحدث ضجة هو في غنى عنها، على متن السفينة.

ولكن المرأة لم تعول ولم تنتحب. لقد أصابت الرصاصة شغاف قلبها فلم يبق محل لصرخة أو دمعة.

جلست مكانها شاردة اللب... وتطلعت عيناها إلى أمام دون أن تريا شيئاً. واختلط ضجيج السفينة وهدير آلاتها في أذنيها المشوّشتين، وأصابها البكم فهي ساكنة سكوت الموت...

وأحب النخاس أن يحاكي بعض ساستنا من أصحاب الشعور الإنساني الرقيق فراح يقدّم إليها أفانين العزاء..

ـ «أنا أعلم أن المصيبة تكون شديدة الوطأة، بادئ الأمر، ولكن امرأة ذكية، حساسة، مثلكِ لا تدع للغمّ سلطاناً على نفسها. لقد كان ذلك كما ترين ضرورياً، ليس إلى اجتنابه من سبيل.»

فقالت المرأة في صوت مختنق:

ـ «لا تقل ذلك، لا تقل ذلك!»

ولكن النخاس أصر على الكلام:

ـ «إنكِ امرأة لبيبة يا لوسي. وإني لأزمع أن أعامِلكِ أحسن معاملة، ولسوف تجدين في وقت قريب زوجاً جديداً، زوجاً قريباً إلى القلب مثلك...»

ـ «أوه، أيها السيد، دعني وشأني الآن.»

وأشاحت بوجهها عن النخاس، فلم يجد بداً من إرجاء الكلام إلى فرصة أخرى.

وكان توم يتتبع المشهد من أوله إلى آخره. وتفطر قلبه أسى على هذه المرأة المنكوبة، فاقترب منها وحاول أن يقول شيئاً. ولكنها كانت مستغرقة في الأنين ترسله فتنقطع له نياط القلوب. بصدق عميق، ودموع تنحدر على الوجنتين، حدثها عن قلب ينبض بالمحبة، في أجواز السماء، عن يسوع شفيق رحيم، وعن منزل أبديّ في العالم

الآخر. ولكن الغم كان قد أصاب الأذن بالصمم، وكان القلب الأشلّ غير قادر على أن يشعر أو يحس.

هبط الليل، هبط رائقاً رائعاً مشرقاً بعيونه الملائكية التي لا تُعد، والتي تومض بالجمال ولكنها صامتة لا تنبس. ولم تنبعث من تلك السماء النائية كلمة عطف، أو تمتد منها يد مسعفة. واختنقت صيحات التجارة واللهو واحدة إثر أخرى، ونامت السفينة كلها نوماً هادئاً عميقاً. وتمدد توم على أحد الصناديق. وهناك، حيث كان مستلقياً، سمع أنات مخلوق بشري مضنيّ الفؤاد تردد:

ـ «آه! ماذا أصنع؟ يا إلهي! ساعدني يا إلهي!»

وظلت هذه الأنات ترن في أذنه فترة خالها دهراً طويلاً. وأخيراً غرقت الهمهمة في بحر الصمت الكبير.

وعند منتصف الليل أفاق توم من نومه كالمذعور. إن شيئاً أسود قد مرّ به منطلقاً إلى جانب السفينة، ثم ألقى بنفسه في الماء.

ورفع توم رأسه، فإذا بمكان المرأة خالٍ. حاول العجوز أن يفعل شيئاً، ولكن القلب المسكين كان قد سكن إلى الأبد، آخر الأمر، وكانت أمواج النهر لا تزال تتغامز وتتعانق مرحة مستبشرة وكأنها لم تغيّب في أحشائها جثة إنسان!

- 7 -

إيفانجيلين

وكان بين ركاب السفينة القاصدين إلى نيو أورليانز ثلاثة ما لبثت مصائر توم أن ارتبطت بهم أوثق ما يكون الارتباط. فأما الأول، واسمه سانت كلار، فكان مزارعاً كريم النفس ولكنه ساخر لاذع العبارة، تزوج من امرأة غنية حرجة الصدر غيور تدعى ماري، فلم ينعم في ظلها بالسعادة التي ينشد، فهو يكثر من الأسفار فراراً بنفسه من الكمد والعيش المنكد.

أما الثانية فكانت ابنة عمه أوفيليا، وهي عانس في الخامسة والأربعين من عمرها متزمتة طُهرية المنازع تعلو وجهها أبداً أمارات الصرامة والتجهم. وقد جاء بها السيد كلار من موطنها بنيو إنجلاند ليعهد إليها إدارة قصره والإشراف على تربية ابنته.

وأما الثالثة فكانت إيفانجيلين، ابنة السيد كلار، التي يتراوح عمرها ما بين الخامسة والسادسة. كانت آية في الجمال. رشيقة خفيفة لا تستقر في مكان إلاّ بمقدار ما تستقر أشعة الشمس أو نسمات الربيع. وكانت تعلو وجهها سيماء من البراءة الحالمة أشبه ما تكون بتلك التي يخلعها خيال المرء على الكائنات الأسطورية. وكان شعرها الذهبي المسمر الطويل الطافي كسحابة حول وجهها، والجاذبية الروحية العميقة المنبعثة من عينيها البنفسجيتين المظللتين

بأهداب ذهبية مسمرّة، يميزانها عن جميع الأطفال، ويجعلان العيون تلاحقها وهي تثب ههنا وههناك على متن السفينة.

وكان توم يراقب هذه المخلوقة الصغيرة، المؤتزرة أبداً بالبياض، في شوق متعاظم يوماً بعد يوم. لقد بدت في عينيه كأنها شيء إلهي أو يكاد. فهو لا يكاد يلمح رأسها الذهبي وعينيها الزرقاوين تطل عليه من وراء إحدى بالات القطن الداكنة حتى يداخله إحساس أنه يرى أحد الملائكة الأطهار منبثقاً من بين دفتي كتابه المقدس...

وكثيراً ما كانت إيفانجيلين تمشي ثقيلة الفؤاد قريباً من المكان الذي تنتحيه ممتلكات هيلي البشرية المصفدة بالأغلال. كانت تنساب فيما بينهم، وتتطلع إليهم في لوعة وذهول. وأحياناً كانت ترفع بيديها الرقيقتين سلاسلهم الغليظة ثم تتنهد طويلاً وتنسلّ من بينهم خفيفة رشيقة. وكم من مرة أهلّت عليهم فجاءة ويداها مليئتان بالحلوى والجوز والبرتقال فوزعتها عليهم ثم انطلقت تعدو من مكان إلى مكان.

وذات يوم سألها توم:

ـ «ما اسم مولاتي الصغيرة؟»

فأجابت:

ـ «إيفانجيلين سانت كلار، وإن يكن أبي والناس كلهم يدعونني إيفا. ولكن ما اسمك أنت؟»

ـ «اسمي توم. ولقد كان الصغار يدعونني العم توم، بعيداً هناك في كانتاكي.»

ـ «إذن فسأدعوك العم توم، لأنني أحبك، كما ترى. والآن، أيها العم توم، إلى أين أنت ذاهب؟»

فقال توم:

ـ «لستُ أدري!»

فاستغربت إيفا:

ـ «لستَ تدري؟»

ـ «لا. كل ما أعرفه أنني سأباع لواحد من الناس. أما من يكون هذا الرجل فذلك ما أجهله.»

فسارعت إيفا إلى القول:

ـ «بابا يستطيع أن يشتريك. وإذا اشتراك فعندئذ تستطيع أن تستمتع بالحياة. سوف أسأله أن يفعل ذلك، هذا اليوم بالذات.»

ـ «شكراً، يا سيدتي الصغيرة!»

* * *

كان اليوم التالي قائظاً ينقبض منه الصدر، وكانت السفينة تقترب من ثغر نيو أورليانز، وقد سادها جو من الاستعداد والتوقع، فكثيرٌ من المسافرين يجمعون أمتعتهم ويرتبونها في انتظار النزول إلى اليابسة، والمسؤول عن نظافة الغرف منهمك هو ومساعدوه في تنظيف السفينة الفخمة وصقلها استعداداً لدخولها الثغر دخول الفاتحين.

وفي الطبقة الدنيا من السفينة جلس صاحبنا توم، متكتّفاً، مديراً بصره بين الفينة والفينة، في شوق بالغ، نحو الجانب الآخر من السفينة.

هنا كانت تقف إيفانجيلين الجميلة، شاحبة الوجه بعض الشيء، وإلى جانبها شاب أنيق يدرك الناظر، لأول وهلة، أنه والدها سانت كلار. كان مسنداً مرفقيه إلى بالة من القطن، يستمع في لامبالاة واضحة إلى حديث هيلي الذي كان يتدفّق في إطراء السلعة المساوَم عليها.

حتى إذا أتم هيلي كلامه قال سانت كلار، في لهجة ساخرة:

ـ «تعني أن الفضائل الأخلاقية والمسيحية قد اجتمعت كلها ههنا ضمن دفتين من الجلد الأسود الفاخر! حسناً، أيها الأخ الطيّب، كم تطلب في صاحبك هذا؟»

فقال هيلي:

ـ «أحسب أن ألفاً وثلاثمئة دولار تكون كافية...»

فقال سانت كلار:

ـ «ولا شك أنك لم تطلب هذا الثمن إلاّ إكراماً لخاطري...!»

ـ «قد تظن أني غاليت في الطلب. ولكن انظر إلى يديه ورجليه وإلى اتساع صدره. إنه قوي كالحصان. ومثل هذا الزنجي جدير بثمن عالٍ حتى ولو كان غبياً. فكيف إذا كان ذا مواهب عقلية حسنة؟ إن هذا العبد كان يشرف على مزرعة سيده القديم كلها، وكان في ذلك ناجحاً إلى حد بعيد.»

فقال الشاب ساخراً على عادته:

ـ «شيء لا يسرّ كثيراً. إنه يعرف كل شيء تقريباً. ومثل هؤلاء الأذكياء هم الذين يطلقون سيقانهم للريح ويسرقون الخيل ويتحالفون مع الشيطان. من أجل ذلك أرى أن تخفّض السعر بضع مئات من الدولارات بسبب هذا الذكاء الفائق!...»

ـ «حسناً، قد تكون على حق في هذا لولا خُلقه الرفيع. وفي استطاعتي أن أقدم إليك شهادات من سيده القديم ومن غيره تثبت لك أن هذا العبد هو من أكثر الناس ورعاً وتقىً. ولا عجب في ذلك فقد أطلقوا عليه، في موطنه السابق، لقب المبشر...»

ـ «وعلى هذا فسوف أجعل منه قسيس الأسرة... تلك فكرة رائعة! فالدين بضاعة نادرة في منزلنا!»

فقال هيلي:

ـ «أنت تمزح، من غير شك!»

ـ «ومن أين عرفت ذلك؟ ألم تقل أنه كان يُعرَف بالمبشر...»

وهنا همست إيفا في أذن والدها، بعد أن ارتقت متن إحدى الرزم وطوَّقت عنقه بذراعيها:

ـ «بابا اشتره بأي ثمن. إن معك مالاً كثيراً، وإني أريده على كل حال...»

ـ «ولكن ما حاجتكِ إليه يا إيفا؟ أتريدين أن تتخذي منه حصاناً خشبياً هزازاً أم ماذا؟»

فقالت إيفا:

ـ «أريد أن أجعله سعيداً.»

ـ «هذا سبب وجيه، طبعاً.»

وهنا قدَّم النخاس شهادة موقعة من السيد شيلبي تؤذن بروح التقوى التي يتحلى بها توم. فتناولها سانت كلار بأطراف أصابعه، وألقى عليها نظرة باردة وقال:

ـ «حسناً، ولكني لست واثقاً، على أية حال، من مسألة الدين هذه. إن البلاد لتغصّ بالأتقياء البيض، من مثل أولئك السياسيين الورعين الذين نراهم قبيل الانتخابات، حتى صار الواحد منها لا يدري من الذي سوف يخدعه في المرة القادمة. ثم إنني لم أكن أعلم أن الدين قد ارتفع ثمنه في السوق في هذه الآونة، فأنا لم أراجع الصحف في الفترة الأخيرة لأرى ما انتهت إليه أسعاره. كم مئة من الدولارات ستتقاضى مقابل هذا الدين؟...»

فقال النخاس:

ـ «إنك تحب أن تمزح. ولكن ثق أن ما أقوله لك عن ورع هذا العبد صحيح مئة بالمئة.»

وأخيراً قال الشاب، وهو يسحب من جيبه مجموعة من الأوراق المالية، ويقدمها إلى النخاس:

ـ «على أية حال، دونك المال فعُدّه!»

وتهللت أسارير هيلي، وعدَّ المال ثم غيَّبه في جيوبه، وراح يملأ وثيقة البيع ليقدمها، بعد لحظات، إلى سانت كلار.

ونظر الشاب إلى الوثيقة ثم تساءل:

ـ «ليت شعري ما المبلغ الذي أستحق أن أُشترَى به لو جُزئت هذه التجزئة وقُوِّمت هذا التقويم؟ كذا من الدولارات لشكل رأسي، وكذا لارتفاع جبيني، ثم كذا لثقافتي وذكائي وأمانتي وديني! أسأل الله العافية، فليس من شك في أنني لن أعطى لقاء هذه المادة الأخيرة غير مبلغ هزيل...»

قال ذلك، وأمسك بيد ابنته ومضيا إلى حيث كان يجلس توم مطرق الرأس كليم الفؤاد. حتى إذا انتهيا إلى مكانه وضع سانت كلار إصبعه تحت ذقن العبد، وقال له مداعباً:

ـ «ارفع رأسك يا توم، وقل لي هل يعجبك مولاك الجديد؟»

ورفع توم رأسه، وألقى نظرة وادعة على الشاب الأنيق. وأحس بالدمع يترقرق في عينيه فقال:

ـ «ليباركك الله أيها السيد!»

ـ «حسناً، إني لأرجو أن يفعل. ما اسمك؟ توم؟ قل لي، هل تستطيع أن تسوق الخيل يا توم؟»

فأجاب العبد:

ـ «لقد تعودت ذلك منذ زمن بعيد. وكان السيد شيلبي يملك عشرات الخيول.»

ـ «حسناً، سوف أعهد إليك في قيادة العربة، ولكن شرط أن لا تعاقر الخمرة غير مرة واحدة في الأسبوع، إلاّ في حالة الضرورة القاهرة!...»

وتطلّع توم إلى سيده مستغرباً، وكأنما أحس أنه قد أُهين فقال:

ـ «أنا لا أشرب الخمر أبداً أيها السيد.»

فقال سانت كلار:

ـ «لقد سمعتُ هذه القصة من قبل يا توم. ولكن الأيام سوف تجلو لنا هذا الأمر!»

وعندما رأى سحابة الكدر طافية ما تزال على وجه توم، أردف قائلاً في تلطف:

ـ «لا تبتئس يا بني. لست أشك في أنك سوف تسلك النهج القويم.»

ـ «من غير ريب يا سيدي!»

فقالت إيفا:

ـ «ولسوف تستمتع بالحياة، يا توم! إن أبي يحب جميع الناس ولكنه متعود أن يضحك منهم دائماً.»

ـ «بابا يشكركِ أجزل الشكر على هذا المديح!»

قال سانت كلار ذلك ثم استدار على عقبيه ومضى لسبيله...

ـ 8 ـ

في الموطن الجديد

لم تكد العربة التي أقلّت سانت كلار وصحبه تبلغ حديقة القصر حتى بدت إيفا وكأنها طائر يوشك أن ينطلق من قفصه إلى الفضاء الأرحب، وقالت للآنسة أوفيليا في ابتهاج متوثب:

ـ «أوه، أليس بيتنا جميلاً؟ أليس بيتنا رائعاً؟»

فأجابت الآنسة أوفيليا وهي تترجل من العربة:

ـ «إنه جميل حقاً، وإن يكن يبدو قديماً ووثنيّ الطابع في نظري.»

ترجّل توم وأجال نظره في المكان، وقد طفت على وجهه سيماء ابتهاج هادئ ساكن.

وتبسّم سانت كلار لدى سماعه ما قالت أوفيليا. والتفت إلى توم وكان واقفاً يقلب الطرف في موطنه الجديد وقد أخذ وجهه الأسود يشع ببريق الإعجاب وقال:

ـ «توم، يبدو أن هذا المكان يناسبك.»

فأجاب توم:

ـ «نعم يا سيدي، يبدو لي أنه المكان الصحيح.»

جرى ذلك كله في لحظة، بينما كانت الحقائب تُنزل من العربة إلى الأرض، ويُدفع أجر السائق، وبينما تقاطر حشد كبير من مختلف

الأعمار والأحجام ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ ليشهدوا دخول السيد قصره المنيف. وكان أبرز هؤلاء شاب خلاسي حسن البزة، بالغ الأناقة يبدو أن له في القصر مركزاً ممتازاً. فلم يكد يرى احتشادهم على هذا النحو حتى راح يردهم بيديه إلى الجانب الآخر من الشرفة صائحاً:

ـ «إلى الوراء جميعاً! أتريدون أن تتدخلوا في شؤون السيد البيتية منذ الساعة الأولى لعودته؟»

وصدع الخدم بأمر السيد أدولف، فقد كان هذا اسم الشاب الخلاسي المتأنق. وتقدم سانت كلار فلم يجد في استقباله غير أدولف نفسه فقال:

ـ «آه، أدولف، أهذا أنت؟ كيف حالك يا بني؟»

وهنا انبرى أدولف لإلقاء خطبة ترحيب قضى في إعدادها أسبوعين كاملين، فشكره سانت كلار بلهجته الساخرة، وقاد الآنسة أوفيليا إلى غرفة واسعة منفتحة على الشرفة.

وكانت إيفا قد طارت، خلال ذلك كله، إلى غرفة أخرى منفتحة على الشرفة نفسها، فنهضت لاستقبالها، نصف نهضة، سيدةٌ فارعة الطول، سوداء العينين، شاحبة الوجه، كانت مسترخية في فراش وثير.

وهجمت إيفا على أمها وطوقتها بذراعيها مرة ومرة صائحة صيحة الغبطة والسرور:

ـ «ماما، ماما!»

فقبّلتها الأم في وهن وقالت:

ـ «هذا يكفي. احذري يا ابنتي! لا، لا تفعلي هكذا. إنكِ تبعثين في رأسي الصداع!»

ودخل سانت كلار الغرفة، وعانق امرأته عناقاً زوجياً مترصناً، ثم قدّم إليها ابنة عمه أوفيليا. فرفعت ماري عينيها الواسعتين إلى ابنة عمها في شيء من الفضول، ورحبت بها في كياسة متحفّظة ولطفٍ. وكان حشدٌ من الرقيق قد تجمهرَ في تلك اللحظات عند باب الغرفة، وعلى رأسهم امرأة خلاسية في خريف العمر، حسنة الهيئة، متهللة الأسارير.

ولم تكد إيفا ترى هذه المرأة حتى خفّت إليها قائلة:

ـ «أوه، هذه مامي!»

وألقت نفسها بين ذراعيها وطفقت تطبع على وجهها قبلات تكاد لا تنتهي.

ولم تقل هذه المرأة إن قبلات إيفا تبعث في رأسها الصداع، ولكنها على العكس احتضنتها وضحكت وصاحت حتى بدا كأن سلامةَ عقلها موضع الشك والارتياب. وحين أفلتت إيفا من بين يديها دارت على الخدم واحداً إثر واحد تصافحهم وتقبّلهم بطريقة أعلنت الآنسة أوفيليا، في ما بعد، أنها أثارت تقزّز نفسها فكادت تقيء.

ـ «حسناً.» قالت الآنسة أوفيليا، «أنتم، يا أبناء الجنوب، تستطيعون أن تأتوا أعمالاً أعترف أني لا أقوى عليها...»

فسألها سانت كلار:

ـ «ماذا تعنين؟»

ـ «حسناً، إني أحبّ أن أكون لطيفة مع جميع الناس، وليس من طبعي أن أؤذي أحداً أو أسيء إليه. أما هذا التقبيل...»

ـ «تعنين أن الزنوج لا يرقون إلى هذه المرتبة، أليس كذلك؟»

ـ «أجل. ذلك ما أريد أن أقوله. كيف تستطيع هي أن تصبر على هذا؟»

وضحك سانت كلار فيما كان يغادر الغرفة. وإذ رأى الأرقاء المبتهجين بعودته صاح:

ـ «هالو! ماذا تفعلون هنا كلكم؟ ـ مامي، جيمي، بولي، ساكي ـ أسعيدون أنتم برؤية السيد؟»

وصافحهم واحداً واحداً ووزع عليهم بعض القطع النقدية الصغيرة.

وبينما كان سانت كلار يستدير عائداً إلى غرفة زوجته، وقعت عيناه على توم الذي كان واقفاً على غير ارتياح، في حين كان أدولف يفحصه من خلال نظارة من نظارات الأوبرا في كثير من الازدراء والاستخفاف.

وصاح سانت كلار:

ـ «أدولف! هل هذه هي الطريقة التي تعامل بها مرؤوسيك؟ ثم ما هذا الثوب الأنيق، يا أدولف؟ يبدو لي أنه ثوبي أنا...»

ـ «أوه، أيها السيد. هذه البذلة ملطخة بالخمر. وليس من شك في أن رجلاً في منزلة مولاي لا يلبس ثوباً كهذا. لقد فهمت أنه كان من حقي أن آخذه. إنه يصلح لزنجي مسكين مثلي...»

ـ «هكذا إذن! على أية حال، أنا ذاهب لأقدّم توم إلى سيدته، ومن ثم تأخذه إلى المطبخ. ولست في حاجة إلى أن أوصيك بمحاسنته. إنه يساوي رجلين مغرورين من مثلك!»

ودخل توم الغرفة مع سيده. وتطلّع إلى البُسُط المخملية والمرايا والصور والأنصاب والسُتر، فداخله الروع واصطكت رجلاه...

وقال سانت كلار لزوجته:

ـ «انظري يا ماري. لقد اشتريتُ لكِ آخر الأمر سائق عربة يعجبكِ. إنه مثال للرصانة والوقار، وفي ميسوره أن يقود عربتكِ وكأنه

في جنازة، إذا شئتِ. افتحي عينيكِ الآن وانظري إليه. لا تقولي بعد اليوم إني لا أفكّر فيكِ وأنا غائب!»

وفتحت ماري عينيها وركزتهما على توم، من غير أن تنهض من مضجعها، ثم قالت:

ـ «أكاد أكون متيقّنة من أنه سوف يعاقر الخمر.»

ـ «لا، إنه بضاعة مكفولة التقى والورع!»

فقالت السيدة:

ـ «أرجو أن يكون كذلك.»

وعندما غادر توم الغرفة، اقترب سانت كلار من امرأته وقال:

ـ «والآن يا ماري، كوني على شيء من الرفق وقولي كلمة كريمة لزوجك!»

فاكفهر وجه السيدة وقالت:

ـ «لقد تأخرت أسبوعين عن موعدك المقرر...»

ـ «صحيح، ولكنني كتبت إليكِ شارحاً السبب.»

ـ «تعني تلك الرسالة القصيرة، الباردة...!»

ـ «كنت أريد أن لا يفوتني البريد، وكان علي أن أختار إحدى طريقين: أن أكتب تلك الكلمات الموجزة أو أن لا أكتب شيئاً.»

فقالت السيدة:

ـ «هذه هي العادة، في كل مرة. هناك دائماً شيء يجعل رحلاتك طويلة ورسائلك قصيرة...»

وهنا سحب سانت كلار من جيبه علبة مخملية أنيقة وفتحها قائلاً:

ـ «دونكِ هذه الهدية التي حملتها إليكِ من نيويورك.»

كانتَ صورة مستخرجة على صفيحة مطلية بالفضة تمثل إيفا وأباها جالسين ويد كل منهما في يد الآخر.

وأمعنت ماري النظر في الصورة، ثم قالت في لهجة استنكار:

ـ «وما الذي حملكما على أن تجلسا هذه الجلسة الخرقاء؟»

ـ «حسناً، إن الجلسة قد تكون مسألة رأي شخصي. ولكن ما رأيك في إحكام الصنعة ومدى الشبه بين الصورة والأصل؟»

فأغلقت السيدة العلبة وقالت مغضبة:

ـ «إذا كنت لا تحترم رأيي في مسألة ما فالذي أحسبه أنك لن تفعل في المسائل الأخرى...»

فقال سانت كلار في نفسه: «مَحَقَ الله النساء!» أما جهاراً فقال في تلطف:

ـ «ولكني يا ماري أحب أن أعرف رأيكِ في مدى الشبه ودقة الإخراج..»

فقالت السيدة:

ـ «إنه لطيش منك يا سانت كلار أن تلحّ عليّ في أن أتحدث عن الأشياء وأمعن النظر فيها. أنت تعلم أنني قضيت النهار كله صريعة الصداع، ومع ذلك فإن جلبة لا تطاق عمّت أرجاء البيت منذ عودتك، حتى لصرت أحسّ أنني نصف ميتة...»

وهنا أفاقت الآنسة أوفيليا من غمرة ذهولها، فجأة، وكانت تفكر في الرياش الفخم الذي يزين القصر وتحسب نفقاته وقالت:

ـ «وهل تشكين الصداع دائماً يا سيدتي؟»

ـ «إني شهيدة حية من شهدائه!»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «إن مغليّ كباث السرو ناجع في علاج الصداع. هذا ما كانت تقوله أوغست، زوجة ديكون أبراهام بيري، وكانت ممرضة كبيرة.»

ـ «سأخصص الكباث الآخذة في النضج، في حديقتنا، لهذا الغرض.»

قال سانت كلار ذلك، ودق الجرس ووجّه الخطاب إلى أوفيليا:

ـ «وعلى أية حال، فينبغي لكِ أن تأوي إلى غرفتكِ لترتاحي من عناء السفر. أدولف! قل لمامي أن تأتي إلى هنا.»

وفي الحال دخلت المرأة الخلاسية التي غمرت إيفا بحنانها، الغرفة. كانت نظيفة الثياب تعتمر عمامة عالية حمراء وصفراء أهدتها إليها إيفا بُعيد وصولها، فقال سانت كلار:

ـ «مامي! أحيطي هذه السيدة بعنايتكِ. إنها متعبة ومن حقها أن تلتمس الراحة. خذيها إلى غرفتها واجهدي في أن تحظى بالهدوء والارتياح.»

وغادرت أوفيليا الغرفة في أثر مامي، لتأوي إلى الغرفة التي خُصّصت لها.

ـ 9 ـ

مولاة توم وآراؤها

ـ «والآن يا ماري، إن أيامكِ الذهبية آخذة في الأفول. ها هي ذي ابنة عمنا ذات العقلية العملية، التي ستحمل عنكِ عبء الإشراف على الإدارة كلها مفسحةً لكِ في مجال الاستجمام والسير قدماً في مضمار النضارة والشباب. أما حفلة التسلم والتسليم فمن الخير أن نقيمها على الفور...»

قال سانت كلار ذلك على مائدة الصباح بعد بضعة أيام انقضت على وصول أوفيليا.

فقالت ماري وهي تسند رأسها إلى يدها:

ـ «أنا واثقة من أنها ستكتشف شيئاً واحداً إذا فعلت، وهو أن السيدات في هذا البيت هن العبيد في واقع الأمر...»

فقال سانت كلار:

ـ «آه طبعاً. سوف تكتشف ذلك وعشرات من الحقائق الأخرى...»

ـ «وسترى أن طاعون هذا البيت هم أولئك العبيد الماكرون. فالحق أن صحتي لم تتدهور إلاّ بسبب منهم!»

فقال سانت كلار:

ـ «يبدو أن التشاؤم مستحوذ عليكِ هذا الصباح. ذلك بأنكِ تعرفين أن الأمر ليس كما تقولين. دونكِ مامي، هذه المخلوقة التي

ليس أحسن منها ولا أطيب، مثلاً. إني لأتساءل ما الذي كنتِ تستطيعين أن تفعليه لو حُرمتِ مساعدتها؟»

فقالت ماري:

ـ «إن مامي هي أحسن من عرفت. ومع ذلك فهي أنانية، أنانية على نحو مخيف. تلك هي خطيئة العِرق كله.»

فعلق سانت كلار، في جدّ ووقار:

ـ «حقاً أن الأنانية لخطيئة مميتة!»

وأردفت ماري:

ـ «والآن ها هي ذي مامي. أنا اعتقد أن من الأنانية بأن تنام ملء جفنيها. إنها تعلم أنني في حاجة إلى من يُعنى بي بين ساعة وأخرى، ومع ذلك فهي لا تفيق من سباتها إلا بصعوبة. الواقع أني أحس هذا الصباح بتقهقر في حالتي الصحية بسبب ما بذلت لإيقاظها في الليلة البارحة...»

وهنا تدخلت إيفا فسألت:

ـ «ألم تسهر معكِ لياليَ بطولها، في المدة الأخيرة، يا ماما؟»

فاحتدّت الأم وصاحت:

ـ «وكيف عرفتِ ذلك؟ يبدو لي أنها كانت تشكو وتتذمر...»

ـ «إنها لم تشكُ ولم تتذمر. كل ما هنالك أنها أخبرتني أنكِ قاسيت كثيراً من الأوجاع طوال ليال متعاقبة...»

فقال سانت كلار:

ـ «ولماذا لم تكلفي جين أو روزا القيام مقامها ليلة أو ليلتين تخلد فيهما إلى الراحة؟»

ـ «غريب أمرك يا سانت كلار. كيف تقترح مثل هذا الاقتراح وأنت تعلم أنني في عصبيتي البالغة أضعف من أن أحتمل رؤية يد

غريبة حولي؟ لو كان لمامي اهتمام صحيح بأمري لما كانت تستغرق في نومها هذا الاستغراق كله. لقد حُدثت عن أناس أنعم الله عليهم بخادمات متفانيات، ولكني لم أسعد يوماً بمثل هذا الحظ. . .»

وكانت الآنسة أوفيليا تصيخ إلى هذه المناقشة في كثير من الانتباه، ضاغطة على شفتيها وكأنها عازمة على أن ترسّخ مركزها قبل أن تدلي برأي ما.

واستطردت ماري:

ـ «والآن، إن مامي لتتمتع بنوع من الطيبة. إنها ناعمة دمثة الخلق، ولكنها أنانية في صميمها. إنها قلقة أبداً على زوجها الذي ابتعدت عنه منذ أن تزوجتُ ـ وكانا من عبيد والدي ـ واصطحبتها إلى هنا. ولقد نصحتها بأن تتزوج من رجل آخر، ولكنها أبت واستكبرت. إنها لعنيدة في بعض النواحي إلى حد لا يكاد يحتمل.»

وسألتها الآنسة أوفيليا:

ـ «وهل لها أولاد؟»

ـ «بلى، إن لها ولدين.»

ـ «أحسب أنها تحن إليهما.»

ـ «على كل حال، لم يكن في استطاعتي أن آتي بهما إلى هنا. كانا مخلوقين صغيرين قذرين، وفوق ذلك كانا يستهلكان كثيراً من وقتها. ولكني أعتقد أن مامي تبدي تشبثاً عجيباً بزواجها. إنها تأبى أن تتزوج من رجل آخر. ولست أشك في أنها ـ برغم علمها بشدّة حاجتي إليها وبتقهقر صحتي العامة ـ ترحب بالعودة إلى زوجها غداً، إذا ما قُدّر لها ذلك. . .»

كانت إيفا الجميلة تصغي إلى أمها وعلى وجهها انطباعة من الجد الصوفي العميق الذي يندر أن تقع على مثله عند الأطفال. فما

إن بلغت أمها، في حديثها ذاك، هذا المبلغ، حتى هُرعت إلى كرسيها وطوّقت عنقها بذراعيها.

وسألتها الأم:

ـ «حسناً يا إيفا. ماذا تبغين؟»

ـ «ماما، ألا أستطيع أن أعتني بكِ ليلة واحدة، واحدة ليس غير؟ أنا واثقة من أني لن أستثير عصبيتك ولن أسمح للنوم بأن يغلب أجفاني، فأنا أسهر الليل بطوله، أحياناً، أفكر...»

فقالت ماري:

ـ «ما هذا الهراء يا إيفا؟ إنكِ لطفلة عجيبة حقاً!»

ـ «أرجو أن تأذني لي يا ماما في ذلك. إن مامي مريضة. لقد أخبرتني أنها تعاني وجعاً في رأسها منذ بضعة أيام.»

ـ «أوه، تلك إحدى مزعجات مامي. إن مامي لا تختلف عنهم جميعاً. إنها تثير ضجة حول كل صداع يصيبها أو ألم في الإصبع تشعر به. من أجل ذلك لن أسمح بمثل هذا الصنيع حتى لا أشجعها. هذه مسألة لا ينبغي لي التساهل فيها.»

قالت ماري ذلك والتفتت إلى أوفيليا فوجّهت إليها الخطاب:

ـ «سوف تلمسين الحاجة إلى ذلك. إذا ما سمحتِ للخدم بالراحة كلما شكوا من ألم ما، فتحتِ على نفسكِ باباً لا يغلق. أنا لم أتشكّ الألم، عمري، وليس أحد يعرف بما أقاسي من أوجاع. إني لأشعر أن من واجبي احتمال الداء في هدوء، وإني لفاعلة بحمد الله.»

وعبّرت عينا الآنسة أوفيليا عن دهشة غير مقنعة لهذه الخاتمة التي تحدّت رصانة سانت كلار المصطنعة، تحدياً صارخاً، فانفجر يضحك ضحكاً عالياً مدوياً.

وفي لهجة الشهيد الرازح تحت ضغط الآلام قالت ماري:

ـ «إن سانت كلار ليضحك كلما أشرتُ إلى صحتي المعتلة ولو إشارة بعيدة. وكل ما أرجوه أن لا يأتي يوم يتذكر فيه ذلك.»

ورفعت منديلها إلى عينيها وراحت تكفكف دموعها.

وساد صمت مجنون. وأخيراً نهض سانت كلار، وألقى نظرة على ساعته، وقال إنه على موعد خارج المنزل، فانطلقت إيفا وراءه وبقيت ماري والآنسة أوفيليا مكانهما.

والتفتت ماري إلى أوفيليا وقالت، وهي دامعة العين:

ـ «ذلك هو سانت كلار. إنه لا يدرك، لا يقدر أن يدرك، بل لا يريد، ما الذي أقاسيه منذ سنين. ولو كنت من النوع الذي يجأر بالشكوى ويغالي إذن لكان له بعض العذر في ذلك. إن الرجال ليأخذهم الضيق، طبعاً، من الزوجة الكثيرة التشكي. ولكنني كتمت الآلام في قلبي واحتملت واحتملت حتى لوقع في روع سانت كلار أني قادرة على احتمال كل شيء.»

ولم تعرف الآنسة أوفيليا ماذا تقول تعليقاً على هذا الكلام.

وفيما كانت تفكر في الذي ينبغي لها أن تقوله كفكفت ماري عبراتها، وتلمست شعرها وملّسته.. مثل حمامة تتبرّج بعد المطر. وشرعت تتحدث إلى أوليفيا حديث الخزائن والعنابر وغيرها مما ستُعهد إدارته إلى هذه الأخيرة، محذرة إياها تحذيرات لو كان رأس الآنسة أوفيليا أقل نظامية وعملية بعض الشيء لفقدت صوابها.

ـ «والآن» قالت ماري، «أعتقد أني حدثتك عن كل شيء. حتى إذا جاءتني دورة المرض القادمة استطعت أن تنفردي في العمل من غير أن تستشيريني... إلاّ في ما يتصل بإيفا، فهي في حاجة إلى أفضل مراقبة.»

فقالت أوفيليا:

ـ «يبدو لي أنها فتاة ممتازة. أنا لم أرَ قط بنتاً أفضل أو أطيب.»

فقالت الأم:

ـ «إيفا غريبة الأطوار... إنها ليست مثلي، على الإطلاق.»

وتنهدت وكأنما كان هذا الاعتبار محزناً حقاً.

وحدثت أوفيليا نفسها قائلة: «أرجو أن لا تكون مثلكِ.» ووجدت أنه من الحكمة أن تصمت.

فأكملت ماري:

ـ «إن إيفا لتحب الامتزاج كثيراً بالخدم. وهي تنزع إلى أن تضع نفسها، دائماً، على قدم المساواة معهم. تلك خصلة غريبة عند هذه الطفلة. لقد جهدت لحملها على الإقلاع عنها، ولكن عبثاً، والذي أحسبه أن سانت كلار هو الذي يشجعها على ذلك. فالحق أن سانت كلار يلاطف كل مخلوق يُظله هذا السقف، خلا امرأته نفسها!»

ولم تحر أوفيليا جواباً، هذه المرة أيضاً.

واستطردت ماري:

ـ «وأياً ما كان، فليس من وسيلة تريح المرء من شرور الخدم غير كبتهم. لقد اعتدت ذلك منذ نعومة أظفاري، ولكن إيفا كافية وحدها لإفساد بيت برمّته. أنا أنادي بضرورة محاسنة الخدم، ولقد كانت تلك هي خطتي دائماً، ولكن عليك دائماً أن تجعليهم يعرفون مركزهم... أما إيفا فلا يخطر لها ذلك ببال. لقد رأيت بنفسك كيف سألتني أن أسمح لها بالسهر على راحتي ليلة واحدة لكي تدع لمامي مجالاً للنوم!»

فقالت أوفيليا، في غير مداراة:

ـ «ولكني أعتقد أنكِ تعتبرين خدمك مخلوقات بشرية، من حقها أن ترتاح بعد التعب؟!»

ـ «طبعاً. إني حريصة على أن ينعموا بكل ما أراه مناسباً، بكل ما لا يخرج الإنسان عن الطريقة... وفي استطاعة مامي أن تنام في

هذا الوقت أو ذاك، فليس ثمة صعوبة في ذلك. فهي أشد الناس رغبة في النوم. إنها تنام وهي تخيط، وتنام وهي واقفة، وتنام وهي قاعدة. تنام في كل آن وفي كل مكان. ولكن معاملة الخدم وكأنهم أزهار غريبة نادرة، أو صحاف من الخزف الصيني، هو الشيء الذي يثير انزعاجي.»

وأردفت ماري في صوت خافت محزون، أشبه بالأنفاس الأخيرة لنبتة ياسمين:

ـ «وهكذا ترين، يا عزيزتي أوفيليا، أنني لا أتحدث كثيراً عن نفسي. فليس ذلك من عادتي، والواقع أني لا أملك القوة على ذلك. ولكن هناك نقاطاً أختلف فيها مع سانت كلار. فسانت كلار لم يفهمني في يوم من الأيام، ولم يقدرني قط. وأحسب أن هذا هو السبب العميق لمرَضي. إن سانت كلار ذو نيات حسنة، ولكن الرجال في أعماقهم أنانيون، ولا يقيمون للنساء كبير وزن. ذلك على الأقل هو انطباعي.»

واعتصمت أوفيليا بالصمت، ذلك بأنها لم تكن راغبة في أن تُستدرج إلى شرَك المتاعب العائلية، ولكن ماري لم تأبه لصمتها. لقد وجدت أمامها من تتحدث إليه، وأنها لتستشعر أن من واجبها أن تتكلم. وبعد أن استنشقت رائحة العطر من قارورة أنيقة كانت إلى جانبها واصلت حديثها:

ـ «أما مشكلة الخدم فحدثي عنها ولا حرج. والبلية أنكِ لا تستطيعين أن تشكي أمر واحد من هؤلاء إلى سانت كلار. إذ سيُسمعكِ أغرب الكلام وأعجبه. فهو يزعم أننا نحن الذين جعلناهم على ما هم عليه، وأننا مسؤولون عن جميع أخطائهم فليس من الإنصاف أن نقترف نحن الخطأ ثم نعاقبهم عليه!»

وقد بدا للآنسة أوفيليا أن تسأل:

ـ «ألا تعتقدين أن الله خلقهم من الطينة التي خلقنا منها؟»

ـ «لا، لا. لست أنا التي تعتقد ذلك. إنهم عِرق سافل منحط.»

فسألتها أوفيليا في استنكار متزايد:

ـ «ألا تعتقدين أن لهم أرواحاً خالدة؟»

فأجابت ماري وهي تتثاءب:

ـ «أوه، طبعاً هذا ما لا يشك أحدٌ فيه. ولكن ما لا أستطيع أن أتخيله هو معاملتهم على قدم المساواة بنا. لقد تحدث سانت كلار إليّ وكأن إبعاد مامي عن زوجها لا يختلف في شيء عن إبعادي عن زوجي. في حين أنه لا مجال للمقارنة بين الوضعين، فمامي لا يمكن أن ينطوي صدرها على الأحاسيس عينها التي ينطوي عليها صدري، ومع ذلك فسانت كلار يتظاهر وكأنه لا يرى هذا الفرق، أو كأنّ مامي تستطيع أن تحب أولادها الصغار القذرين كما أحب أنا إيفا! ومع ذلك فقد حاول سانت كلار يوماً أن يقنعني بأن من واجبي ـ وأنا المريضة طريحة الفراش ـ أن اسمح لمامي بالعودة، وأن أتّخذ خادمة أخرى مكانها. . .»

ولم تكد ماري تنتهي إلى هذا الموضع من كلامها حتى دخل سانت كلار الغرفة حانقاً غاضباً، وأعلن أنه لم يعد يطيق صبراً على أدولف، الذي بلغت به الجرأة إلى أن يمد اليد إلى زجاجات سيده العطرية ومناديله الكتانية الرقيقة.

فقالت ماري:

ـ «أحمد الله أنك لمست آثار اللين بنفسك!. .»

وفيما كان الحديث محتدماً بين سانت كلار وزوجته وابنة عمه حول الطريقة التي ينبغي اتباعها في معاملة العبيد انطلقت من فِناء الدار ضحكة مستبشرة ما كاد سانت كلار يسمعها حتى غادر الغرفة، وتبعته أوفيليا، إلى الفناء.

كان توم جالساً هناك على مقعد صغير، وقد غصت كل عروة من عرى سترته بعروق الياسمين ووقفت إيفا إلى جانبه، ضاحكة مبتهجة، تطوق عنقه بإكليل من الورود، لتجلس بعدُ على ركبته، وهي تضحك.

وضحك سانت كلار وقال:

ـ «أوه توم، يبدو أنك ظريف إلى حد بعيد!»

وكان توم يبتسم ابتسامته الطيبة الوقور مبتهجاً بالمشهد ابتهاج سيدته الصغيرة به. حتى إذا رأى سيده رفع عينيه وعلت وجهه انطباعة فيها شيء من توسل وشيء من اعتذار.

وقالت أوفيليا:

ـ «كيف تستطيع أن تسمح لها بذلك؟»

فقال سانت كلار:

ـ «ولمَ لا؟»

ـ «لست أدري. ولكني أراه أمراً منكراً.»

ـ «عجيب حقاً! إنكِ لا تجدين أيما بأس في أن يلاطف الطفل كلباً كبيراً حتى ولو كان أسود اللون حالكاً، ولكن أعصابكِ لا تتحمّل رؤية هذا الطفل عينه يلاطف مخلوقاً مثل هذا قادراً على أن يفكر ويعقل ويشعر! وكيف يستطيع البائس المسكين أن يحيا إذا ما حُرم عطف الأطفال؟ إن الأطفال الصغار هم الكائنات الديموقراطية الوحيدة في هذه البلاد. إنهم زهرات من جنة عدن أنزلها الله خصيصاً للفقراء والمساكين ليتعزوا بها عما يصيبهم من ظلم اجتماعي لا يُحتمل.»

قال سانت كلار ذلك في شيء من الانفعال، وأتبع نظرَه إيفا الجميلة وهي تثب بخفة ورشاقة، تجرّ توم معها، فانبسطت أساريره.

ـ 10 ـ

دفاع الرجل الحر

بعد أن أقام جورج هاريس وزوجته أليزا فترة في مستعمرة طائفة «الكويكرز» أو «الأصدقاء» رغبا في مواصلة رحلتهما الطويلة الجاهدة إلى كندا، فزودتهما ربة البيت التي أضافتهما بكل ما قد يحتاجان إليه بُعيد مغادرتهما ساحتها في تلك العشية.

كان قرص الشمس الأحمر على وشك أن يغيب وراء الأفق، وكانت أشعته تنفذ صفراء هادئة إلى غرفة النوم التي تجمع شمل جورج وامرأته وولده. كان الرجل جالساً، وقد أمسك بيده يد زوجته المخلصة وأجلس ابنه الصغير على ركبتيه. وكان كل من الزوجين مستغرقاً في تفكير ثقيل مهموم، وآثار الدمع بيّنة على خدودهما جميعاً.

وقال جورج:

ـ «أجل يا أليزا، أنا أعلم أن كل ما تقولينه صحيح. إنكِ لمخلوقة صالحة، ـ أحسن مني بكثير، وسأنفق غاية جهدي لكي أتصرّف كما تقولين. سوف أسلك في الحياة المسالك الجديرة برجل حرّ، وسأحاول أن أحس إحساس الرجل المسيحي. والله عز وجل يعلم أني حاولت دائماً أن أكون امرءاً صالحاً، عندما كان كل شيء ضدي. وها أنا ذا قد وطنت النفس على أن أنسى الماضي، وأن أقرأ الكتاب المقدس وأتعلم كيف أكون إنساناً خيّراً.»

فقالت أليزا:

ـ «وعندما نصل إلى كندا أستطيع أن أساعدك. إني أتقن الخياطة، وأحسن غسل الثياب وكيّها، وهكذا نتعاون على تأمين لقمة العيش.»

ـ «أجل يا أليزا، ما دمنا معاً وما دام معنا ابننا الحبيب. أوه يا أليزا! ليت هؤلاء الناس يدركون أية نعمة وبركة تصيبان الإنسان حين يحس أن زوجته وولده ملك له هو! الواقع أني الآن أستشعر الغنى والقوة على الرغم من أننا لا نملك شيئاً غير أيدينا الفارغة. إني لأحس وكأنني في غير ما حاجة إلى أن أسأل الله شيئاً إضافياً. أجل على الرغم من أني عملت وكدحت كل يوم، حتى بلغت الخامسة والعشرين من عمري، وليس في جيبي فلس واحد، وليس لي سقف يظلّني أو رقعة من الأرض أستطيع أن أقول إنها ملكي، برغم هذا كله فإني أكون سعيداً وشاكراً إذا ما تركوني وشأني. سوف أشتغل، وأبعث بالمال إليكِ وإلى ولدي. أما سيدي القديم فقد دُفع إليه فيَّ خمسة أضعاف ما أنفقه عليَّ. أنا لستُ مديناً له بشيء.»

ـ «ولكننا لم ننجُ من الخطر بعد. فما زلنا بعيدين جداً عن كندا.»

فقال جورج:

ـ «هذا صحيح. ولكن يبدو لي وكأنني شممت الهواء الطلق، وهذا وحده يفيض عليَّ العزم والقوة.»

وفي تلك اللحظة قُرع الباب الخارجي، فانطلقت أليزا وفتحته.

كان ذلك سايمون هاليداي، رب البيت الذي آواهما طوال هذه الفترة، ومعه أخ من «الأصدقاء» قدّمه إليهما باسم فينياس فلانشر:

وقال سايمون:

ـ «لقد اكتشف صديقنا فينياس شيئاً قد يكون خطراً بالنسبة إليكما، وقد رأيت أنه من الأفضل أن تسمعاه منه.»

وهنا انبرى فينياس للكلام:

ـ «لقد ثبت لديّ أن من المفيد أن ينام المرء وإحدى أذنيه مفتوحة، في بعض الأماكن، كما سبق لي القول غير مرة. ففي الليلة البارحة توقفت عند نُزُل منعزل، فتناولت طعام العشاء وتمددت على ركام من الأكياس في الزاوية ريثما يهيأ لي فراش، وسرعان ما غلبني النوم فنمت.»

فقال سايمون:

ـ «وإحدى أذنيك مفتوحة، أليس كذلك؟»

ـ «لا، لقد نمت، أنا وأذناي، طوال ساعة أو ساعتين، فقد كنت شديد الإعياء. ولكني لم أكد أنتبه من سباتي العميق حتى وجدت أن في الغرفة رجالاً جالسين حول مائدة يعاقرون الخمر ويتجاذبون أطراف الحديث. فتاقت نفسي إلى أن أعرف حقيقة أمرهم، خاصة وأني لاحظت أنهم يشيرون في حديثهم إلى جماعة الكويكرز. وهكذا سمعت أحدهم يقول: «إنهم في مستعمرة الكويكرز، من غير شك.» ثم إني فتحت أذنيّ جيداً فاكتشفت أنهم كانوا يتحدثون عنكم، فتعاظم فضولي وجهدت لأن أفهم كل ما يبيتونه من خطط. لقد قالوا إن هذا الشاب ينبغي أن يُعاد إلى سيده، في كانتاكي، ليجعل منه أمثولة لجميع الزنوج الهاربين. أما زوجته فقالوا إن اثنين منهما سوف يقودانها إلى نيو أورليانز ليبيعاها لحسابهما، وقد قدّرا أن يغنما بها مبلغاً يراوح ما بين ستمائة دولار وثمانمائة دولار. وأما الولد فقد سمعتهم يقولون إنهم سوف يعيدونه إلى النخاس الذي اشتراه. بقي أخيراً جيم وأمه، وهذان اعتزمت تلك العصابة الشريرة

أن تعيدهما إلى سيدهما في كانتاكي أيضاً. والمهم أكثر من هذا أنهم على علم بالخطة التي رسمناها للفرار، هذا المساء، وأن الذين سيتعقبوننا لا يقل عددهم عن ستة، فماذا أنتم فاعلون؟

كان جمهور المستمعين إلى هذا الحديث جديراً برسام بارع يسجل انطباعاته المتباينة على القماش. فأما سيدة البيت، راشل هاليداي، التي كانت قد أخرجت يديها من معجن صغير للبسكويت لتستمع بانتباه إلى النبأ، فوقفت مضطربة الأوصال تعلو وجهها ملامح الجزع البالغ. وأما سايمون فبدا مطرق الرأس مستغرقاً في التفكير. في حين ألقت أليزا ذراعيها حول زوجها ورفعت بصرها إليه. ووقف جورج متكتفاً وقد لمعت عيناه ببريق غريب، وبدا كما يبدو أيما رجل ستباع زوجته بالمزاد، وسيُسلم ابنه إلى النخاس في ظل القانون وحمايته...

وتساءلت أليزا في جزع:

ـ «ما الذي سوف نفعله يا جورج؟»

ـ «أنا أعرف ما الذي ينبغي أن تفعله!»

قال جورج ذلك، ووثب إلى الغرفة الصغيرة وشرع يفحص مسدسه.

وما هي إلاّ لحظة حتى عاد جورج وقال:

ـ «لست أريد أن أشرك أحداً في الدفاع عني وعن أهلي. كل ما أسألكم إياه أن تعيروني مركبتكم وتوجهوني، ولسوف أقودها بنفسي إلى الحدود. إن جيم لعملاق من حيث القوة وشجاع كالموت واليأس، وكذلك أنا.»

فقال فيناس:

ـ «آه، حسناً، يا صديقي. ولكنك في حاجة إلى سائق من أجل

ذلك كله. إني أرحب بنهوضك بعبء القتال وحدك، بيد أن هناك شيئاً أو شيئين في ما يتعلق بالطريق أنت تجهلهما من غير ريب.»

ـ «ولكني أريد أن أوفّر عليك مؤونة الدفاع عني...»

فقال فينياس:

ـ «حسناً. عندما تراني تورطت في الدفاع عنك فرجائي إليك أن تحيطني علماً بذلك!...»

فقال سايمون:

ـ «فينياس رجل حكيم وذو براعة. ومن الخير لك أن تأخذ بآرائه.»

ثم أضاف واضعاً يده في رفق على كاهل جورج ومشيراً إلى المسدس:

ـ «وحذارِ أن تتهور في استعمال هذا... إن دم الشباب حار!»

ـ «إني لن أهاجم أحداً. كل ما أطلبه من هذا البلد هو أن يتركني وشأني.. ولسوف أغادره في سلام. ولكن...»

وسكت لحظةً واكفهر جبينه، وعصفت بجسمه ثورة ثم أضاف:

ـ «لقد كانت لي أخت بيعت في سوق الرقيق ذاك، في نيو أورليانز، وإني لأعرف الغرض الذي من أجله تُباع المرأة هناك. فكيف تريدني أن أقف اليوم موقف المتفرج وأرى امرأتي تساق إلى تلك السوق لتباع فيها، على حين أعطاني الله ذراعين قويتين مفتولتين لحمايتها والدفاع عنها؟ لا، فليساعدني الله! إني سأقاتل حتى النفس الأخير قبل أن ينتزعوا مني زوجتي وولدي... فهل أنا في ذلك ملوم؟»

فقال سايمون:

ـ «إن المرء لا يستطيع أن يلومك يا جورج. فليس في ميسور اللحم والدم أن يفعلا شيئاً غير ذلك!»

ـ «ألست أنت نفسك جديراً بأن تقف الموقف ذاته لو كنت يا سيدي، في مكاني؟»

فقال سايمون:

ـ «أسأل الله أن لا يجربني. إن الجسد ضعيف يا بني.»

وهنا انبرى فينياس للكلام فقال:

ـ «أحسب أنني قويّ بما يكفي أيضاً.»

وكشف عن يدين أشبه ما تكونان بذراعي مطحنة هوائية، ثم أردف قائلاً:

ـ «أنا لست واثقاً، أيها الصديق، ما إذا كنت أستطيع الوقوف على الحياد إذا تعيّن عليك أن تصفي حسابك معهم!»

فابتسمت راشل هاليداي وقالت:

ـ «إن للصديق فينياس أساليبه الخاصة دائماً، ولكننا جميعاً نعتقد أن قلبه هو في مكانه الصحيح.»

فتساءل جورج:

ـ «حسناً. أليس من الخير لنا أن نعجل في الفرار؟»

ـ «ليس من المأمون الخروج قبل أن يبلغ الليل أشده. ذلك بأن في بعض القرى جماعة من الأشرار قد تحدثهم أنفسهم بالتعرض لنا، إذا ما رأوا عربتنا، وفي هذا ما يعوقنا عن بلوغ غايتنا أكثر من الانتظار ههنا. وأحسب أنه سيكون في ميسورنا الانطلاق بعد ساعتين. والآن أنا ذاهب للاجتماع بمايكال كروس والاتفاق معه على أن يراقب الطريق مراقبة دقيقة ويحذرنا إذا ما رأى أيما عصابة تتربص بنا الدوائر. إن لمايكال فرساً سريعاً جداً، وفي استطاعته أن

يطلق النار أمامنا فينبهنا للخطر الذي يتهددنا. وسأمرّ أيضاً بجيم والمرأة العجوز لأطلب إليهما أن يكونا على قدم الاستعداد.»

قال فينياس ذلك وأغلق الباب خلفه وانصرف.

وهنا قال سايمون:

- «إن فينياس لولد حاذق. ولست أشك في أنه سوف ينفق غاية جهده في خدمتك.»

فقال جورج:

- «إن الذي يحزّ في نفسي هو تعريضكم للخطر!»

فأجاب سايمون:

- «أرجوك، لا تذكر ذلك، أيها الصديق. إننا لا نفعل إلاّ ما يفرض علينا الضمير أن نفعله.»

ثم التفت إلى زوجته وقال:

- «والآن، أيتها الأم، سارعي إلى إنجاز الطعام لهؤلاء الأصدقاء، فلسنا نريد أن نبعث بهم إلى مطارحهم المجهولة صائمين.»

وفيما كانت راشل وأولادها منهمكين في إعداد الحلوى، وطبخ لحم الخنزير والدجاج، جلس جورج وزوجته في غرفتهما الصغيرة واستغرقا في حديث كالذي يصدر عن زوج وزوجته حين يعلمان أنهما قد يفترقان، بعد بضع ساعات، فراقاً أبدياً.

قال جورج:

- «أليزا! إن الناس الذين يملكون أصدقاء وبيوتاً وأراضي وأموالاً وكثيراً غير ذلك لا يستطيعون أن يحبوا كما نحب، نحن الذين لا نملك شيئاً غير أنفسنا. أنا لم أنعم، حتى اللحظة التي عرفتكِ فيها، بحب أحد من الناس غير أمي البائسة المنسحقة الفؤاد

وأختي. ولقد رأيت إميلي المسكينة غداة اشتراها النخاس. أقبلت إلى الزاوية حيث كنتُ نائماً وقالت: «انهض يا جورج، إن آخر صديق لك سوف يمضي لسبيله. ما الذي سيحل بك أيها الصبي الشقي؟!» ونهضتُ وطوقتها بذراعي وانتحبتُ وتنهدت، وانتحبتْ هي وتنهدت، وكانت هذه الكلمات آخر ما سمعته أذناي من كلام كريم طوال عشر سنين. ومنذ ذلك الحين ذوى قلبي وحالَ إلى رماد، ولم تعاوده نضرة الشباب إلاّ بعد أن أحببتني أنتِ. لقد انقلبتُ إنساناً آخر، منذ تلك اللحظة. والآن يا أليزا، إني موطّنٌ النفس على أن أسفح آخر نقطة من دمي للحفاظ عليك، ولكنهم لن ينتزعوك مني. وكل من ينتزعكِ مني يتعين عليه أن يمشي فوق جثتي الهامدة قبل أن يتم له ذلك.»

فقالت أليزا متنهدة:

ـ «ارحمنا يا إلهي! ارحمنا! كل ما نسألك إياه أن تخرجنا من هذا البلد إلى بلد غيره!»

ـ «وهل الله معهم؟ هل يرى ماذا يفعلون؟ لماذا يدع هذه الأشياء كلها تحدث؟ وهم يزعمون أن الكتاب المقدس معهم. طبعاً إن كل القوى معهم. إنهم أغنياء، وأصحاء، وسعداء. إنهم أعضاء في الكنائس ويتوقعون أن يدخلوا الجنة. إنهم يتقلبون في متارفهم ومناعمهم ـ ويوجهون العالم الوجهة التي يريدونها، والمسيحيون الصادقون البائسون ـ المسيحيون الذين يساوونهم صلاحاً أو يفوقونهم ـ يعفرون التراب تحت أقدامهم. إنهم يشترونهم ويبيعونهم، ويتاجرون بدماء قلوبهم وتأوهات صدورهم، ودموع أعينهم، وإن الله ليرى ذلك كله ثم يدعهم في طغيانهم يعربدون!!»

وسمع سايمون ما يتحدث به جورج فتلا عليه بعض المزامير وحثه على أن لا يقنط من رحمة الله، فاطمأنت نفس جورج وأسلم وجهه لرب العالمين.

وهنا أخذت راشل بيد أليزا، وشقتا الطريق إلى مائدة العشاء.

ولم يكد القوم يرفعون أيديهم إلى المائدة حتى انتهت إلى باب الدار عربة كبيرة مظللة.

كانت السماء صافية تتألق فيها النجوم وكان فينياس يثب من مقعده، في خفة وسرعة، ليعيّن لكل من الركاب مكانه في العربة. واجتاز جورج عتبة الباب، وقد أمسك بإحدى يديه ولده، وبالأخرى زوجته. كانت خطواته ثابتة، وكان وجهه رائقاً هادئاً. وخرجت راشل وسايمون يودّعان ضيوفهما المرتحلين.

وكان جيم ووالدته في جوف العربة. فلم يكد جورج يرى جيم حتى سأله بصوت خفيض حازم:

ـ «أحسب أن مسدسك على غاية ما يرام؟»

ـ «طبعاً! طبعاً!»

ـ «وليس عندك ريب في الذي ينبغي أن تعمله إذا ما فوجئنا؟»

ـ «أعتقد أنه لا ريب عندي على الإطلاق.»

قال جيم ذلك وكشف عن صدره العريض وأخذ نفساً عميقاً وتابع قائلاً:

ـ «هل تحسب أني سأدعهم يأخذون أمي مرة ثانية؟»

ومضت العربة في سبيلها، تطقطق وتهتز. ولم يكن ثمة مجال للحديث بسبب من وعورة الطريق وضجيج الدواليب. وهكذا واصلت العربة تقدمها عبر منبسطات طويلة من الأراضي المشجرة ـ جاريةً فوق السهول حيناً، ومصعّدة في التلال حيناً، وهابطة بطون الأودية حيناً ـ وهم يتمايلون في داخلها يمنة ويسرة، وعالياً وسافلاً، ساعةً إثر ساعة فنام الطفل في حضن أمه نوماً عميقاً، ونسيت المرأة العجوز المروعة آخر الأمر، مخاوفها، وحتى أليزا استسلمت لسلطان الرقاد

بعد أن عجزت همومها كلها عن إبقاء عينيها مفتوحتين. أما فينياس فكان أكثر الجماعة نشاطاً، وكان يستعين على النعاس وعلى الإعياء ببعض الأغنيات المرحة التي لا تتفق كثيراً وروح التزمّت التي اشتهر بها «الأصدقاء».

وفي نحو الساعة الثالثة، صباحاً، سمع جورج وقع حوافر فرس يعدو من ورائهم في سرعة بالغة، فنبّه فينياس إلى ذلك، فخفّف هذا الأخير من سرعة أفراسه وأصاخ السمع بملء أذنيه.

ـ «هذا مايكال من غير شك. أحسب أني أعرف فرسه من صوت جَرْيها وتقريبها.»

قال فينياس ذلك وأدار وجهه إلى الوراء في تطلّع وشوق.

وهنا بدت للجماعة صورة ضبابية لرجل يعدو بفرسه عدواً مجنوناً فوق أحد الكثبان البعيدة.

وقال فينياس:

ـ «ذلك هو، في ما أعتقد!»

ووثب جورج وجيم من العربة قبل أن يعرفا ماذا يريدان أن يفعلا. ووقف الركب كلهم وكأن على رؤوسهم الطير، وقد وجهوا وجوههم شطرَ الرسول المرتقب. وواصل الرجل جَرْيه غائصاً في أحد الأودية حيث غاب عن نواظرهم. ولكن وقع الحوافر ظلّ يرنّ حاداً في آذانهم، ليبرز بعدُ على إحدى القمم غير بعيد عنهم.

ـ «أجل، ذلك هو مايكال.»

ـ «هالو مايكال!»

ـ «فينياس، أهذا أنت؟»

ـ «نعم. ما وراءك؟ هل هم قادمون؟»

ـ «إنهم وراءكم. ثمانية أنفار. أو عشرة أنفار، وقد عصفت البراندي برؤوسهم فهم يُرغون ويزبدون كالذئاب.»

ولم يكد يتم كلامه حتى حمل إليهم النسيم صوتاً باهتاً يؤذن بأن جماعة من الفرسان تقترب نحوهم.

فصاح فينياس:

ـ «أسرعا إلى العربة، وإذا تحتّم عليكما أن تقاتلا، فانتظرا ريثما أتقدم بكما قليلاً إلى الأمام.»

ووثب جورج وجيم إلى داخل العربة، وألهب فينياس أفراسه بالسوط فانطلقت تعدو بهم في سرعة مجنونة. ومع ذلك فقد كان ركاب العربة يسمعون أوضحَ وأوضح، وقع حوافر الأفراس اللاحقة بهم. وصاح المتعقّبون، حالما وقعت أبصارهم على العربة الناجية بنفسها، صيحة انتصار وحشية حملتها الريح إلى آذان القوم المساكين. وأجفلت أليزا وأحكمت شد ابنها هاري إلى صدرها، وصلّت المرأة العجوز وانتحبت، وقبض جورج وجيم على مسدسيهما قبضة اليائس المستميت. وما هي إلاّ لحظة حتى أدركهم المتعقبون، وانفتلت العربة على نحو مفاجئ، بالقرب من جُرْف صخري شاهق تنتصب جلامدة الصُم قاتمةً ثقيلة في وجه السماء الصافية المستفيقة، مع الفجر، على النور، وتبدو كأنها تَعِد الهاربين من ظلم الإنسان للإنسان بالسلامة والأمن. لقد ألِفَ فينياس تلك البقعة في أيام القنص والصيد، وإنما كان يُلهب جلود أفراسه بالسياط لتبلغ به وبجماعته هذا الموضع بالذات.

ـ «والآن ها قد وصلنا!»

قال فينياس ذلك، وكبح جماح أفراسه فجاءةً ووثب من مقعده إلى الأرض:

ـ «اخرجوا جميعاً، بمثل لمح البصر، واصعدوا معي إلى حيث تقوم هذه الصخور. أما أنت يا مايكال فشُدّ فرسك إلى العربة وطِرْ إلى آماريا ثم عُد به وبرجاله...»

وفي مثل لمح البصر خرجوا جميعاً من العربة.

وصاح فينياس حاملاً هاري بيديه:

ـ «لينتبه كلٌّ منكم إلى إحدى الامرأتين. وأروني الآن إلى أي حد تستطيعون أن تركضوا!»

ولم يكن الجمع في حاجة إلى من يستحثهم. ففي أسرع من البرق تسلقوا السياج وانطلقوا كالسهام نحو الصخور، في حين قذف مايكال بنفسه عن الجواد، وشدّه إلى العربة، وانطلق للقيام بالمهمة التي عهدبها إليه فينياس.

وتقدم فينياس القوم، واثباً على الصخور كالمعزاة، والولد بين ذراعيه. ووراء فينياس كان جيم يسعى حاملاً أمه العجوز المرتعدة على كتفه. وأما جورج وامرأته أليزا فكانا في المؤخرة. واجتاز الفرسان السياج وترجلوا عن خيولهم استعداداً للّحاق بالهاربين.

وما هي إلاّ لحظة حتى بلغ فينياس وصحبه أعلى الجرف الصخري. وهناك كان عليهم أن يتقدموا عبر مضيق لم يكن في ميسورهم اجتيازه إلاّ فرداً فرداً، إلى أن بلغوا آخر الأمر هوّةً يزيد عرضها على ياردة، ويقوم وراءها ركام عال من الصخور، مستقل عن الجرف. وفي سهولة ويسر وثب فينياس فوق الهوة وتبعه الرفاق جميعاً...

وهنا قال فينياس:

ـ «وأخيراً، انتهينا إلى مكان آمن. فليتصيدونا الآن إذا استطاعوا. إن كل من يريد أن يأتي إلى هنا لا بدَّ له من أن يجتاز

منفرداً ما بين هاتين الصخرتين، على مسافة مناسبة جداً للقضاء عليه بنار المسدس. انظروا أيها الإخوان، ألا ترون؟»

كانت جماعة الفرسان، وقد بدت الآن أوضح من ذي قبل تحت أشعة الفجر، تتألف من توم لوكر ورفيق له يدعى ماركس وهما شريران كان هيلي النخاس قد أغراهما بتصيد «هاري» الهارب مع أمه، ومن دركيين اثنين، وعدد من المرتزقة.

وأراد توم أن يتقدم عبر الصخور، فزجره ماركس قائلاً:

ـ «ولكنهم قد يصوّبون إلينا النار من وراء الصخور.»

فقال توم في لهجة ساخرة:

ـ «أنت أحرص الناس على إنقاذ جلدك يا ماركس. ليس ثمة أيما خطر، فالزنوج أجبن الناس على الإطلاق...»

ولكن ماركس لم يغامر، وقال:

ـ «لست أدري ما الذي يحملني على أن لا أنقذ جلدي من الهلاك؟ إن جلدي هو خير ما أملك. والزنوج يحاربون مثل الشيطان في بعض الأحيان.»

وفي تلك اللحظة برز جورج للقوم من فوق صخرة تطل عليهم، وتحدّث في صوت هادئ صافٍ فقال:

ـ «أيها السادة الواقفون هناك! من أنتم؟ وماذا تريدون!»

فقال توم لوكر:

ـ «نحن نتعقب جماعة من العبيد الهاربين، هم جورج هاريس، وأليزا هاريس، وولدهما، وجيم سلدين، وامرأة عجوز. ولقد اصطحبنا اثنين من رجال الدرك للقبض عليهم، وإنا لفاعلون. هل سمعت؟ ألست أنت جورج هاريس الذي يملكه مستر هاريس، من أبناء كانتاكي؟»

ـ «أجل أنا جورج هاريس، لقد كان رجل يدعى السيد هاريس، من أهالي كانتاكي، يعتبرني ملكه. ولكني الآن رجل حرّ، وأقف على أرض الله الحرة، وأنا أعتبر أن زوجتي وولدي لي من دون الناس جميعاً. بقي جيم وأمه. إنهما ههنا معنا. وإن لدينا سلاحاً نستطيع أن ندافع به عن أنفسنا، وإنا لمصممون على ذلك. في استطاعتكم أن تتقدموا إذا شئتم، ولكن أول من يشاء له سوء طالعه أن يصبح على مرمى مسدساتنا سيلقى حتفه وسيتبعه الثاني، والثالث، حتى آخر رجل منكم.»

فقال أحد رجلي الأمن:

ـ «دع عنك هذا الكلام، واهبط إلينا. نحن نمثل العدالة. وإن القانون لفي جانبنا، وكذلك القوة، فمن الخير لك أن تلقي السلاح وتستسلم إلينا...»

فأجابه جورج في مرارة:

ـ «أنا أعرف جيداً أن القانون في جانبكم، والقوة كذلك. إنكم تريدون أن تأخذوا زوجتي لتبيعوها في سوق الرقيق في نيو أورليانز، وأن تسلموا ولدي إلى النخاس، وتبعثوا بأم جيم العجوز إلى ذلك الوحش الذي ضربها بالسياط وسامها سوء العذاب، من قبل، لأنه لا يستطيع أن يسوم ابنها سوء العذاب. إنكم تريدون أن تسوقوا جيم وتسوقوني إلى حيث نُجلَد ويمثَّل بنا ونُسحق تحت أقدام أولئك الذين تدعونهم أسياداً، تؤيدكم في ذلك كله قوانينكم وشرائعكم، وهو ما ينبغي أن يزيد في خجلكم وخجلها. ولكنكم لن توفقوا إلى تصيدنا. إننا لا نملك شرائعكم، ولا نملك بلادكم. إننا نقف ههنا بوصفنا أحراراً، تحت سماء الله، كما تقفون أنتم. وبعونٍ من الرب العظيم الذي خلقنا، سنقاتل من أجل حريتنا إلى أن ننتصر أو نموت.»

وجمد المهاجمون في أماكنهم. لقد كان في كلام جورج الذي أعلن فيه استقلاله، وفي جراءته وتصميمه ما أذهلهم. وكان ماركس هو وحده الذي لم يحركه خطاب جورج. وفي غمرة من الصمت الذي ران على رفاقه بُعيد إعلان الاستقلال هذا، استل مارس مسدسه وأطلق النار على جورج...

ارتد جورج إلى الوراء، وأطلقت أليزا صيحة مدوية. لقد كاد الرصاص يلامس شعره ويمسّ وجنة زوجته ليصطدم آخر الأمر بإحدى الأشجار.

وتقدّم المغيرون، واستعد جورج لإطلاق النار على أول من يحاول أن يجتاز المضيق. وحين تجرّأ توم لوكر على ذلك أطلق جورج ناره عليه، فأصابه في جنبه فخرّ مضرجاً بدمائه. فما كاد رفاقه يرونه على هذه الحال حتى ولّوا الأدبار.

وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى رجع مايكال بالعربة وفيها ستيفن وآماريا، فضمّد فينياس جراحات توم وحمله القوم إلى العربة، وانطلقوا به إلى إحدى المزارع حيث أحيط بعناية صابرة، فالتأمت جراحاته، وتماثل للشفاء.

وأخيراً استطاع الهاربون بلوغ الحدود الكندية حيث تنشقوا ملء رئاتهم، هواء الحرية!

ـ 11 ـ

تجارب الآنسة أوفيليا وآراؤها

كان البيت الذي عُهد إلى الآنسة أوفيليا بالاشراف على إدارته غارقاً في خضم الفوضى والتبذير وفقدان المسؤولية. وقد جهدت صاحبتنا ذات العقلية النظامية في إصلاح ما أفسده الدهر في ذلك البيت الكبير، فلم توفق إلاّ قليلاً. وكان إخفاقها هذا راجعاً، في المحل الأول، إلى إهمال كبيرة الطاهيات، العجوز دينا، وفوضويتها.

وإذ ضاقت أوفيليا ذرعاً بهذا الوضع الشاذ صارحت سانت كلار بقولها:

ـ «ليس ثمة أمل في أن ينعم هذا البيت، يوماً، بشيء اسمه النظام...»

فقال سانت كلار:

ـ «أنا واثق من أن هذا اليوم لن يأتي.»

ـ «هذه الفوضى! هذا التبذير! هذا الاختلاط، أنا لم أشهد في حياتي شيئاً مثل ذلك قط!»

ـ «أستطيع أن أقول إنكِ لم تشهدي مثل ذلك فعلاَ.»

ـ «ولكنك ما كنت لتواجه مثل هذه الحال بمثل هذه البرودة لو كنت أنت سيّد البيت المشرف على إدارته.»

- «اسمعي يا أوفيليا. إننا نحن الأسياد ننقسم إلى فريقين: فريق المضطهِدين وفريق المضطهَدين. وأمثالنا من أصحاب الطوية الحسنة والنفسية الكريمة الكارهين للقسوة والعنف يجب أن يروّضوا أنفسهم على احتمال كثير من الانحرافات والمنغصات. وتفسير ذلك واضح. فما دمنا نصرّ على أن نحتفظ في مزارعنا وبيوتنا بمثل هذه المجموعة البليدة الرخوة الجاهلة، ونسخّرها لخدمة أغراضنا ومصالحنا، فيتعين علينا أن نتحمّل النتائج. ولست أعرف غير قلة قليلة من الأسياد وفقت، في براعة خاصة، إلى أن تحقق لبيئاتها الضبط والنظام من غير لجوء إلى القسوة والعنف. وأنا لست واحداً من هؤلاء. ومن هنا عقدت النية، منذ عهد طويل، على أن أترك الأمور تجري على هواها.»

- «ولكن هذه الفوضى التي يضيع معها كل معنى للزمان والمكان... إنها شيء لا يمكنني احتماله.»

- «الحق أنكم، أنتم أبناء الشمال، تُعطون للوقت أهمية مغالى فيها. وما فائدة الوقت بالنسبة إلى إنسان يملك منه ضعفي ما يحتاج إليه فهو أبداً حائر ماذا يصنع به؟ وأظنك توافقين على أنه حيثما لا يكون عند المرء ما يعمله غير التمدد على الأريكة ومطالعة الصحف، فإن تقديم موعد الفطور أو العشاء ساعة أو تأخيره ساعة ليس أمراً مهماً. من أجل ذلك أسألكِ، يا ابنة العم العزيزة، أن تخففي من غلوائك وتتركي «دينا» على سجيتها...»

- «ولكنك لا تعرف كيف وجدت الأشياء في المطبخ؟»

- «لا أعرف؟ ألا أعرف أنها تضع المرقاق (الشوبك) تحت فراشها، ومبرشة جوز الطيب في جيبها مع التبغ الذي تدخنه؟ ألا أعرف أنها تستعمل خمسة وستين إناء مختلفاً للسكّر في كل ثقب من ثقوب البيت واحدٌ منها؟ وأنها تغسل الصحون بمنديل من مناديل

المائدة يوماً، وبقطعة من تنورة عتيقة يوماً؟ ولكنّ المهم أنها تعِدّ لك طعاماً فاخراً، وتصنع قهوة فخمة، وينبغي أن تحكمي عليها كما يحكم على القادة العسكريين ورجال الدولة، أعني من خلال النجاح الذي تحققه. . .»

ـ «ولكن التبذير، والإنفاق من غير حساب؟. .»

ـ «أوه، حسناً، أغلقي جميع الأدراج والخزائن واحتفظي بالمفتاح، ووزعي عليهم ما يحتاجون إليه بمقادير صغيرة حسب الحاجة.»

ـ «ذلك شيء يزعجني يا سانت كلار. فليس في استطاعتي أن أفكر أن هؤلاء الأرقاء ليسوا أمناء. هل أنت واثق من أننا لا نستطيع الاعتماد عليهم؟»

ضحك سانت كلار، وقال:

ـ «يعجبني كثيراً حديثكِ عن الامانة. وكأن ذلك شيء لا يمكن أن يُتوقع! أمناء! طبعاً انهم ليسوا أمناء. ولماذا ينبغي أن يكون هؤلاء الأرقاء أمناء؟ وأي شيء فوق هذه الأرض يساعدهم على أن يكونوا أمناء؟»

ـ «ولكن أليس بينهم نفر يتحلون بالأمانة؟»

ـ «طبعاً، إنك لتقعين فيهم، بين الفنية والفينة، على واحد تحبوه الطبيعة بقدر وافر من الصدق والإخلاص حتى لتعجز أسوأ المؤثرات عن إفساده. ولكن المشكلة أن الطفل الملوّن يحس ويرى، منذ عهد الرضاعة، أن الطريق السرية هي وحدها المفتوحة في وجهه. إنه لا يستطيع أن يسلك غير هذا المسلك مع أبويه، وسيدته، وسيده الصغير، ورفيقات سيدته الصغيرة. ومن هنا يصبح المكر والخداع شيئاً ضرورياً، وعادة لا سبيل إلى اجتنابهما. وليس من العدل أن

تنتظري منه شيئاً غير هذا، وعندي أنه لا يجوز إنزال العقاب به من أجل ذلك. فإذا جئنا إلى الأمانة وجدنا أن المجتمع يفرض على الرقيق أن يظل في تلك الحالة الاتكالية نصف الطفلية حتى ليتعذر إفهامه حقوق الملكية، أو إشعاره بأن أموال مولاه ليست ملكاً له هو. الواقع أني شخصياً لا أفهم كيف يستطيع الأرقاء أن يكونوا أمناء. أما صاحبنا توم فليس من ريب في أنه معجزة أخلاقية!»

* * *

كانت الآنسة أوفيليا في المطبخ، أصيل ذلك اليوم عندما صاح بعض الأطفال السود:

ـ «ها قد أتت «برو» تنخر كما هي عادتها دائماً.»

ولم يكد هؤلاء الأطفال يتمّون كلامهم حتى دخلت إلى المطبخ امرأة زنجية طويلة القامة، معروقة العظام تحمل على رأسها سلة فيها صنوف من الكعك.

وقالت دينا:

ـ «أوه. برو! لقد جئتِ!»

فأنزلت برو سلّتها، وجلست القرفصاء، وأسندت مرفقيها إلى ركبتيها:

ـ «يا ليتني مت!»

فسألتها الآنسة أوفيليا:

ـ «ولماذا تتمنين الموت؟»

فقالت المرأة، في صوت أجش، ومن غير أن ترفع عينيها عن الأرض:

ـ «لكي أتخلص من شقائي!»

ـ «أنتِ تعاقرين الخمر طول النهار ثم تطلقين لسانك بالشكوى!»

قالت ذلك وصيفة متأنقة نصف خلاسية وأخذت تعبث بقرطها المرجاني. .

فنظرت إليها المرأة نظرة مشاكسة فظة، وقالت:

ـ «قد تصبحين هكذا في يوم من الأيام. وسيسعدني أن أراكِ على تلك الحال. وعندئذ ستتعطش نفسك إلى قطرة، كما أتعطش أنا، تنسين بها همومكِ وأحزانكِ. . .»

فقالت دينا:

ـ «تعالي يا برو. دعينا نرى كعكاتكِ، وهذه السيدة تدفع إليك الثمن.»

وتناولت الآنسة أوفيليا بضع كعكات من السلة.

وصاحت دينا:

ـ «هناك في ذلك الإبريق المحطم العتيق، الموضوع على الرف الأعلى، بضع بطاقات. اذهبي يا «جين» وائتيني بها.»

فسألت الآنسة أوفيليا:

ـ «بطاقات؟ وما الغرض منها؟»

ـ «إننا نشتري البطاقات من سيدها، وهي تقدّم إلينا الخبز مقابلها. . .»

ـ «وهم يعدّون أموالي وبطاقاتي عندما أرجع إلى البيت، فإن لم يجدوا الحساب صحيحاً أماتوني نصف ميتة.»

فقالت جين، الوصيفة السليطة:

ـ «وما تنتظرين أن يفعلوا بكِ حين تأخذين أموالهم لتعاقري بها بنت الحان؟ سيدتي، ذلك ما تصنعه هذه المرأة بالضبط!»

ـ «وذلك ما أصرّ على فعله. إني لا أطيق الحياة على غير هذه الشاكلة. أريد أن أشرب لأنسى شقائي!»

فغضبت الآنسة أوفيليا وصاحت في وجهها:

ـ «تسرقين أموال سيدكِ لتجعلي من نفسك بهيمة من البهائم! إنكِ لخاطئة مجنونة!»

ـ «قد يكون ذلك يا سيدتي. ولكني سأواصل ارتكاب هذا الخطأ. أجل سأواصل. يا إلهي، لماذا لا تميتني وتريحني من شقائي؟»

وفي بطء وعسر نهضت المخلوقة العجوز ووضعت السلة على رأسها من جديد. وقبل أن تمضي لسبيلها تطلعت إلى الفتاة نصف الخلاسية التي كانت واقفة وما تزال تعبث بقرطها، وقالت:

ـ «أنت تحسبين أنك جميلة بهذا القرط المتدلي من أذنيك. حسناً، لا بأس، فقد تعيشين إلى يوم تصبحين فيه مخلوقة فقيرة عجوزاً كثيرة الشكوى مثلي. وسترين عندئذ أنكِ لا بدَّ أن تشربي وتشربي وتشربي، وستجدين أن الخمر هي التعزية الوحيدة للبائسين!»

ولحق توم، الذي كان في المطبخ أثناء هذا الحديث، بالزنجية العجوز إلى الشارع. لقد رآها ماضية في طريقها مطلقة بين الفينة والفينة أنةً مكبوتةً. وأخيراً توقفت قليلاً ووضعت سلّتها على عتبة أحد الأبواب وشرعت تصلح وضع الشال العتيق الباهت الذي كان يغطي كتفيها.

وقال توم بطريقة ملؤها الشفقة:

ـ «سوف أحمل سلّتك قليلاً...»

فقالت العجوز:

ـ «لا داعي لذلك. فأنا لا أحتاج إلى مساعدة.»

ـ «يبدو أنك مريضة، أو مهمومة، أو شيء مثل هذا!»

فأجابت المرأة في اقتضاب:

ـ «أنا لست مريضة.»

ونظر إليها توم نظرة تمور بالإخلاص وقال:

ـ «ليتني أستطيع إقناعكِ بضرورة الإقلاع عن شرب الخمر. ألا تعلمين أن الخمر جديرة بأن تهلككِ جسداً وروحاً؟»

فقالت المرأة:

ـ «أنا أعرف أني سائرة إلى الجحيم، فلا حاجة لإخباري بذلك. إنها لخصلة بشعة، آثمة، وإني لذاهبة تواً إلى نار العذاب. يا إلهي، ليتني كنت هناك!»

وارتعد توم لدى سماعه هذه الكلمات وتوسل إلى المرأة أن لا تستسلم لليأس:

ـ «ارحمي نفسكِ أيتها المخلوقة البائسة. ألم تسمعي قط بيسوع المسيح؟»

ـ «يسوع المسيح؟ من هو يسوع المسيح هذا؟»

فقال توم:

ـ «ولكنه السيد، يا امرأة!»

ـ «أحسب أني سمعتهم يتحدثون عن السيد، وعن يوم الحساب، وعذاب السعير. لقد سمعت شيئاً من ذلك.»

ـ «ولكن ألم يحدثك أحد قط عن يسوع المسيح الذي يحبنا نحن الخاطئين، والذي مات من أجلنا؟»

ـ «لست أعرف شيئاً عن ذلك. إن أحداً من الناس لم يحبني منذ أن مات بعلي العجوز.»

فسألها توم:

- «وأين كانت نشأتكِ؟»

- «هناك في كانتاكي. لقد استعملني أحد النخاسين مربيةً لصغار العبيد، حتى إذا كبروا قليلاً سارع إلى بيعهم في سوق الرقيق. وأخيراً باعني هذا النخاس لأحد المضاربين في البورصة، ومنه اشتراني سيدي الحاليّ.»

- «وما الذي أوقعكِ في عادة الشرب القبيحة هذه؟»

- «أوقعتني همومي. كان لي ولد صغير، وكان جميلاً وبديناً. ولكن سيدتي مرضت ذات يوم. فكان عليّ أن أعنى بتمريضها. فالتقطت الحمى وجفّ اللبن في صدري. وضمر الولد فإذا هو جلد وعظم. والتمست من سيدتي أن تشتري له قليلاً من الحليب، ولكنها لم تأبه لكلامي. قالت إن في استطاعتي أن أطعمه مما يأكله سائر الناس. والطفل يضمر ويهزل، ويصرخ ويصرخ، طوال الليل والنهار، حتى ضاق صدر سيدتي به وتمنت لو يموت. ولم تسمح لي سيدتي بأن أعنى به في ساعات الليل، لأنه في زعمها كان خليقاً بأن يمنعني عن النوم فلا أعود صالحة لشيء. وهكذا أكرهتني على أن أنام في غرفتها، فتعيّن عليّ أن أضعه في عليّة صغيرة، حيث غرق ذات ليلة في البكاء حتى مات. ومن ذلك الحين لجأت إلى الخمر لكي أُبعد صراخه عن أذني. أجل لجأت إلى الخمر وسأواصل شربها ما حييت. يقول سيدي إنني لا بدَّ ذاهبة إلى الجحيم، ولكني أقول وأين أنا الآن هذا هو الجحيم؟»

فقال:

- «أيتها النفس البائسة! ألم يخبركِ أحد قط كيف أحبك يسوع السيد ومات من أجلكِ؟ ألم يخبركِ أحد أنه سوف يمدّ إليك يد

العون، وبأنكِ سوف تذهبين إلى الجنة وتنعمين آخر الأمر بالراحة؟»

ـ «لست أريد الذهاب إلى الجنة. أليست الجنة هي المكان الذي سيذهب إليه أصحاب البشرة البيضاء؟ إنني لأفضل أن أذهب إلى الجحيم على أن أجتمع بسيدي وسيدتي في الجنة!»

قالت العجوز ذلك وأرسلت أنّتها المألوفة، ثم وضعت سلّتها على رأسها وراحت تمشي في بطء وتثاقل.

وهنا استدار توم وقفل راجعاً إلى البيت.

وفي الفِناء التقى توم بإيفا الصغيرة، وقد زينت رأسها بإكليل من الزنبق وشعت عيناها ببريق الجذل والابتهاج.

وصاحت إيفا وهي تمسك بيد توم المحزون:

ـ «أوه، توم. ها أنت هنا! إني سعيدة بأن أجدك. بابا يقول إن من الخير أن تُخرِج المهار الصغار وتنزّهني في عربتي الصغيرة الجديدة. ولكن ما بالك يا توم؟ إنك تبدو عابساً كئيباً؟»

فقال توم في نبرة دامعة:

ـ «لست أشعر بنشاط، يا آنسة. ولكني سأخرج المهار من أجلكِ.»

ـ «ولكن يجب أن تقول لي يا توم، ما الذي يوجعك؟ لقد رأيتك تتحدث إلى برو العجوز.»

وبكلمات بسيطة تفيض بالتأثر وصدق العاطفة قصّ توم على إيفا حكاية الزنجية الشقية. فلم تبكِ إيفا ولم تصح صيحة العجب والدهش، شأن غيرها من الأطفال. لقد شحبت وجنتاها، ورانت على عينيها سحابة ثقيلة كئيبة. ثم إنها وضعت كلتا يديها على صدرها وتنهدت في حرقة البائس المكروب.

ـ 12 ـ

تجارب الآنسة أوفيليا وآراؤها
(تابع)

وقالت إيفا:

ـ «توم. لا حاجة إلى إخراج الخيل. أنا لست راغبة في الذهاب.»

ـ ولِمَ لا يا آنسة إيفا؟»

فقالت إيفا:

ـ «هذه الأشياء تغور في قلبي، يا توم. أنا لا أريد أن أذهب!»

وانفتلت قاصدة إلى البيت.

وبعد بضعة أيام جاءت القصر امرأة أخرى، غير برو العجوز، حاملة سلة الكعك على رأسها. وكانت الآنسة أوفيليا في المطبخ.

ولم تكد دينا ترى هذه الزنجية حتى صاحت:

ـ «يا إلهي، ماذا دهى برو؟»

فقالت المرأة في صوت يوقع الرهبة في القلوب:

ـ «إن برو لن تأتي بعد اليوم أبداً.»

فصاحت دينا:

ـ «ولِمَ لا؟ إنها لم تمت؟ أليس كذلك؟»

فقالت المرأة وهي تنظر بطرف عينها إلى الآنسة أوفيليا:

ـ «لسنا نعرف شيئاً عنها على وجه الدقة. إنها محبوسة في السرداب.»

وبعد أن أخذت الآنسة أوفيليا حاجتها من الكعك تبعت دينا المرأة إلى الباب ثم سألتها:

ـ «ما الذي أصاب برو؟»

وبدت المرأة وكأنها راغبة في الكلام ولكنها تتردد في البوح. وأخيراً أجابت في صوت خفيض:

ـ «حسناً، يجب أن لا تخبري أحداً. لقد سكرت برو من جديد، فاقتادوها إلى السرداب، وهناك تركوها طوال النهار. ولقد سمعتهم يقولون إن الذباب قد غطى جسمها، وإنها ماتت!»

ورفعت دينا يديها، وفيما كانت تستدير رأت إلى جانبها إيفا الصغيرة، وقد اتسعت عيناها الكبيرتان الحالمتان من الذعر، وغاضت آخر قطرة من قطرات الدم من شفتيها ووجنتيها.

ـ «ليرحمنا الله! الآنسة إيفا تكاد تقع مغشياً عليها! ما الذي جاء بها إلى هنا لتسمع مثل هذا الحديث؟»

وقالت الطفلة في عزم:

ـ «لن أقع مغشياً عليّ يا دينا. وأيّ بأس في أن أسمع ذلك الحديث؟ إن سماعه لن يؤذيني بقدر ما أوذيت برو المسكينة عندما ذهبت ضحية الفظاعة...!»

فصاحت دينا:

ـ «ولكن هذه القصص لم تُجعل من أجل الفتيات الحلوات الناعمات مثلكِ. إنها كافية لأن تقتلهن!»

وتنهدت إيفا كرة ثانية، وارتقت السلم بخطوات بطيئة كئيبة.

وتساءلت الآنسة أوفيليا، في فضول بالغ، عن نبأ العجوز السوداء. فروَتْهُ دينا على مسمعها في إسهاب ثرثار، في حين أضاف توم بعض التفاصيل التي كان قد وُفق إلى الاطلاع عليها من فم العجوز، ذلك الصباح.

وصاحت أوفيليا:

ـ «إنها لمسألة كريهة، وفظيعة حقاً!»

ودخلت الغرفة حيث كان سانت كلار مسترخياً يُطالع صحيفته وقصّت عليه النبأ.

فقال سانت كلار متابعاً النظر في صحيفته:

ـ «لقد توقعت أن تنتهي برو هذه النهاية.»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «توقعتَ ذلك! ولكن ألا تعتزم أن تعمل شيئاً ما؟ أليس عندك من تبعثه للتدخل والحؤول دون حصول مثل هذه المآسي؟»

ـ «المفروض أن يكون عدم خسارة الملكية سبباً كافياً لعدم حصول مثل هذه الحالات. وإذا كان الناس يؤثرون إتلاف ممتلكاتهم الخاصة فلست أدري ماذا يمكن أن نفعل. يبدو أن تلك المخلوقة البائسة كانت طويلة اليد مدمنة للشراب، ومن هنا فليس ثمة كبير أمل في إثارة العطف عليها.»

ـ «ولكن هذا فظيع يا أوغسطين! وليس من شك في أنه سيعود عليك بالوبال، يوماً!»

ـ «أنتِ تنسين يا عزيزتي أن غيري هو الذي اقترف هذا الجرم، وأنه لم يكن بإمكاني دفعه، ولو تيسَّر لي ذلك لفعلت. إذا كان هؤلاء الناس المتوحشون يسلكون هذه المسالك البشعة فما الذي أستطيع أنا أن أفعله؟ إن لهم السلطة المطلقة على أرقائهم. إنهم طغاة غير

مسؤولين. وليس في التدخل أيما فائدة. من أجل ذلك كان أفضل ما يمكن الرجلَ الكريم أن يفعله هو أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه ويدع الأشياء تجري على هواها.»

ـ «ولكن كيف تستطيع أن تغمض عينيك وتوصد أذنيك؟ كيف تستطيع أن تدع هذه المظالم تجري تحت سمعك وبصرك؟»

ـ «ما الذي تتوقعين يا طفلتي العزيزة؟ ههنا طبقة من الناس برمّتها، طبقة مزدراة جاهلة متبلدة، قد أُلقيت أعنّتها من غير ما احتياط أو اشتراط في أيدي أمثال هؤلاء الناس الذين تتألف منهم الكثرة الكبيرة من شعبنا، والذين لا يتحلون بالحصافة وضبط النفس، ولا يدركون حقيقة مصالحهم إدراكاً صحيحاً. وفي مجتمع كهذا، هل يملك الرجل الشريف الذي يعمر قلبه الحس الإنساني غير أن يغمض عينيه إذا استطاع، وغير أن يقسّي قلبه، ما وجد إلى ذلك سبيلاً؟ إني لا أستطيع أن أشتري كل بائس مسكين تقع عيني عليه، ولست بقادر على أن أتخذ لنفسي صفة «الفارس التائه» فأجعل من همي إزالة كل ظلامة في مدينة مثل هذه. إن قصارى ما يُطلب مني هو أن أبتعد عن هذا السبيل الذي لا يليق بي.»

وكأنما لم تقتنع الآنسة أوفيليا بآراء سانت كلار فقالت:

ـ «الحق أقول لك يا أوغسطين، إني لأتعجّب من دفاعك عن مثل هذا النظام البشع!»

وتناولت صوفها وشرعت في الحبك.

ـ «وهل دافعت أنا عنه، أيتها النسيبة العزيزة؟»

فقالت أوفيليا في انفعال:

ـ «طبعاً، أنتِ تدافع عنه. إن أهل الجنوب جميعاً ليدافعون عنه. وإلا فمن أجل ماذا يقتنون العبيد ويسترقونهم؟»

ـ «أليس من الجائز أن يعمل الإنسان، في هذا العالم، أشياء لا يعتقد هو أنها حق؟ ألم تفعلي قط شيئاً تعلمين جيداً أنه خطأ؟»

فقالت أوفيليا:

ـ «إني حين أفعل ذلك أعتصم بحبل التوبة...»

ـ «وهذا عينُ ما أفعله أنا، إني لأتوب عن هذا الإثم كل يوم.»

ـ «ولكن لماذا تصرّ على التردّي في هذا الإثم أبدَ الدهر؟»

ـ «ألم يحصل أنكِ أقدمتِ يوماً على اقتراف إثم ما بعد أن تُبْتِ عنه، يا عزيزتي؟»

ـ «حسناً. ولكن ذلك لم يحصل إلا في حالات ضعفي القصوى.»

فقال سانت كلار:

ـ «حسناً، وإني لفي محلٍّ من الضعف بعيد. تلك هي علّتي.»

ـ «ولكني أحاول دائماً أن أتغلب على ضعفي، وأجتنب الاستمرار في الخطأ.»

ـ «وأنا أيضاً كنت أعزم على الإقلاع عن اقتراف هذا الإثم طوال هذه السنوات العشر. ولكني لسببٍ ما لم أوفّق إلى الخلاص منه حتى اليوم. أتريدين أن تعرفي حقيقة رأيي في مسألة الاسترقاق هذه؟ إني أذهب إلى القول بأن في استطاعة المزارعين القادرين على الإفادة من ذلك النظام، ورجال الدين الذين يسعون إلى استرضاء المزارعين، والسياسيين الذين يتخذون منه وسيلة إلى الحكم، في استطاعة هؤلاء جميعاً أن يلووا اللغة والأخلاق إلى درجة مدهشة. في استطاعتهم أن يسخّروا الطبيعة والكتاب المقدس لخدمة مصالحهم، ولكن لا هم ولا الناس يؤمنون، على أية حال، بصحة ما يذهبون إليه. إن نظام

الاسترقاق رجسٌ من عمل الشيطان، وإنه ليمثل نموذجاً بارعاً لِمَا يستطيع الشيطان أن يصنعه في حقل اختصاصه. . .»

وهنا بدت الدهشة على الآنسة أوفيليا. ووقفت يداها عن الحبك. وكأنما استأنس سانت كلار بدهشتها فاسترسل في الحديث:

ـ «والآن، ما هي مسألة الاسترقاق هذه التي يلعنها الله والناس؟ لنجرِّدها من حُلِيِّها جميعاً وننظر إلى نواتها وجذورها، فماذا نجد؟ نجد أنه بسبب من أن أخي الزنجي، «كواشي»، جاهل وضعيف، في حين أني ذكي وقوي، يجوز لي أن أسلبه كل ما عنده ثم لا أعطيه إلا بقدر ما يحلو لي، وأفرض عليه القيام بكل عمل أعتقد أنه مرهق وقذر. وبسببٍ من أني لا أحب العمل يتعيَّن على «كواشي» أن يعمل. وبسبب من أن الشمس تلفح وجهي بنارها يتحتم على «كواشي» أن يظلّ واقفاً تحت أشعة الشمس المحرقة. على «كواشي» أن يكسب المال، ولي أنا حق إنفاقه. عليه أن ينفذ إرادتي، لا إرادته، طوال أيام حياته الفانية، ولن يكون له نصيب في دخول الجنة آخر الأمر، إلا حين أجد ذلك مناسباً. هذا في ما أرى جوهر الاسترقاق. وإني لأتحدَّى أيّ إنسان على ظهر هذه الأرض أن يقرأ قوانيننا الاسترقاقية ويخرج منها بشيء غير الذي ذكرت.»

قال سانت كلار ذلك وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقد أوشك وجهه المليح أن يحترق بحرارة أحاسيسه المتقدة، وأومضت عيناه الزرقاوان الواسعتان ببريق عجيب. لأن الآنسة أوفيليا لم تشهده على مثل هذا الانفعال من قبل فقد اعتصمت بالصمت.

وفجأة اقترب سانت كلار من ابنة عمه وقال:

ـ «وأياً ما كان فأنا أصرح لكِ أني كلما فكَّرتُ في أن قوانيننا تُجيز لأيما إنسان وحشي وضيع أن يجعل من نفسه طاغية ذا سلطة

مطلقة على عدد من الرجال والنساء والأولاد يزيد أو ينقص بقدر ما تمكِّنه لصوصيته ويمكّنه خداعه ومقامرته من الشراء. . . أقول إني كلما فكّرتُ في هذا رأيتني ألعن بلادي، وألعن الجنس البشري برمّته!»

وصاحت أوفيليا:

ـ «أوغسطين! أوغسطين! أنا واثقة من أنك قلتَ كل ما يجب أن يُقال. وأشهد أني ما سمعت، عمري، مثل هذا الكلام، حتى في الشمال.»

فقال سانت كلار، وقد عاودته لامبالاته المألوفة:

ـ «في الشمال؟ هذا هراء! إن أصحابكِ الشماليين دمهم بارد، وهم لا يحسنون صبّ اللعنات كما نحسنه نحن حين نفقد الصبر!»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «ولكن السؤال هو. . .»

ـ «أوه نعم. السؤال هو: كيف تردّيتَ أنت في هذه الحالة من الإثم والشقاء؟ وجوابي هو أني انتهيت إلى تلك الحالة من طريق الإرث. فالعبيد الذين ترينهم في بيتي كان بعضهم عبيد أبي وبعضهم عبيد أمي، وها قد أمسوا اليوم، مع من أضيف إليهم من الأرقاء الذين اشتريتهم بمالي، عبيدي أنا. لقد كان أبي كما تعلمين رجلاً مستقيماً حديديّ الإرادة. وفي حين أقام أبوكِ في نيو انجلاند ليفرض سلطانه على الصخور والحجارة ولينتزع ثروته من الطبيعة، آثر أبي أن يرتحل من تلك الديار إلى لويزيانا ليفرض سلطانه على الرجال والنساء ولينشئ ثروته بواسطتهم. وكانت أمي امرأةً روحانية تتجسّد فيها تعاليم الكتاب المقدس تجسُّداً، وكنت أنا وأخي توأمين. وإذا كان التوائم يتشابهون فقد كنت أنا على نقيض أخي وكان أخي على

نقيضي. كان هو أسود العينين، فاحم الشعر، قوياً، ذا ملامح رومانية، وبشرة سمراء، وكنت أنا أزرق العينين، ذهبي الشعر، ذا ملامح إغريقية، وبشرة بيضاء. كان دمث الأخلاق مع أصدقائه وأنداده، ولكنه متكبر على من هم دونه، لا يعرف قلبه الشفقة على كل من يعترض سبيله...

«وكان أبي أرستقراطياً بالفطرة. وكان يعتبر الزنوج حلقة وسطاً بين الإنسان والحيوان... وكان يملك نحواً من خمسمائة زنجي يعملون في مزارعه.

«وكان أبي شديد القسوة على عبيده، وكان عنده ناظر فظ غليظ القلب يسوم الأرقاء سوء العذاب. وكنت أنا وأمي نكرهه كراهة التحريم، ولكنه عرف كيف يستحوذ على ثقة أبي، فإذا هو سيد الإقطاعة المطلق.

«كنتُ ما أزال حدثاً في ذلك العهد. ولكن كان يعمر قلبي، شأني اليوم، حب للبشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم. فكان العبيد المساكين يُسِرّون إليَّ شكاواهم فأنقلها إلى أمي ونتعاون معاً على التخفيف من المظالم النازلة بهم.

«وإذ يئست أمي من حمل زوجها على أن ينهج مسلكاً جديداً إنسانياً في معاملة رقيقه فقد أقلعتْ عن التدخل في شؤونه وانصرفت إلى تنشئة ولديها وفق آرائها وأحاسيسها. والحق أني سمعتكِ تتحدثين كثيراً عن أثر التنشئة السيّئة في نفس الولد ولكني أجيز لنفسي أن أزعم أن الأولاد إنما ينشأون على ما فطروا عليه، لا أكثر ولا أقل. فمن المهد كان أخي ألفرد أرستقراطياً، حتى إذا شبَّ عن الطوق اتجهت طباعه كلها، على نحو غريزي، في هذا الاتجاه، وذهبت مواعظ أمي كلها أدراج الرياح. أما أنا فقد رسخت هذه المواعظ في ذات نفسي فإذا بي أؤمن بكرامة أحقر النفوس البشرية وقيمتها. وأذكر أني كنت

أتطلع إلى وجهها في رهبةٍ وخشوع حين كانت تومئ إلى النجوم، في ساعات من الليل، وتقول لي: «انظر هناك يا أوغسطين، إن أفقر الناس وأوضعهم في أرضنا هذه سوف يكونون أحياء عندما تتناثر هذه الكواكب ويحلّ في ساحاتها الفناء. إنهم سيظلون أحياء ما بقي الله ذو الجلال والإكرام!» وأحسب أني لو عشت في كنفها سنوات صباي كلها إذن لغدوتُ قديساً، أو مصلحاً، أو شهيداً، ولكنها انتُزعت مني وأنا لا أزال في الثالثة عشرة، فما اكتحلت عيني برؤية وجهها بعد ذلك قط...

«وعندما توفي والدي ترك ثروته كلها لنا نحن التوأمين نقتسمها بالاتفاق. والواقع أن أخي ألفرد أظهر نبلاً وروحاً عالية عند الاقتسام، فرأيت من الخير أن نسير في استغلال مزارعنا متعاونين متضامنين.

«ولكن سنتين من التجربة كانتا كافيتين لحملي على التفكير في فسخ هذه الشراكة. لقد عزَّ عليَّ أن يكون في مزارعنا سبعمائة رقيق يُشترون كالسلع ويساقون إلى الإقطاعة ويطعمون ويشغّلون كالحيوانات، ثم يجلدون بالسياط بأيدي نظّارٍ شدادٍ غلاظ.

«إن من السخف الزعم بأن العبيد يجدون متعةً في هذا كله، فلست أعرف إنساناً على وجه البسيطة يختار، لو ترك الأمر إليه، أن يشتغل طوال عمره من مطلع الشمس حتى غروبها، تحت عين سيِّد قاس لا يرحم، من غير أن يكون له الحق في أن يتنفس الصعداء من عناء كدحه الرتيب الذي لا يتغيَّر، وكل ذلك من أجل بنطلون واحد وحذاء واحد في العام، ومن أجل مأوى حقير وقدر من الطعام كافٍ لإبقائه على قيد الحياة والاستمرار في الكدح الموصول ليس غير! وإذا كان في هذه البلاد من يزعم أن في إمكان الكائنات البشرية أن «تستمتع» بهذا الوضع كما يستمتع سائر الناس بأوضاع حياتهم فإني

على أتمّ الاستعداد لأن أشتري ذلك الكلب، وأشغّله، بقلب رضيّ، وضمير مرتاح...»

فقالت الآنسة أوفيليا:

- «كنت أحسب أنكم جميعاً تقرّون هذه الأشياء وترون أنها عدل وحق وفقاً للكتاب المقدس.»

- «هراء! إننا لم نبلغ هذه الغاية بعد... وحتى ألفرد، الذي يسري دم الطغيان في عروقه، لا يلجأ إلى هذا الضرب من الدفاع. لا. إنه يدافع على أساس أنه أعلى وأرفع، على أساس تلك القاعدة القديمة التي تقول بحق الأقوى، زاعماً - في كثير من المنطق كما يُخيَّل إليَّ - أن المزارع الأميركي في استرقاقه العبيد إنما يصنع ما تصنعه الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية والرأسماليون الإنكليز بالطبقات الدنيا، ولكن في شكل آخر، يعني تسخيرهم لحماً وعظماً، نفساً وروحاً، لمصالحهم الذاتية. إنه يدافع عن النظامين ويقول إنه ما من حضارة رفيعة يمكن أن تنهض من غير ما استعباد للجماهير، سواء عن طريق حاجتهم إلى العمل أو عن طريق اتخاذهم عبيداً...»

فصاحت الآنسة أوفيليا مندهشة:

- «كيف يجوز في العقل أن يُقابَل ما بين حال الأرقاء في أميركا وحال العمال في بريطانيا؟ إن العامل الإنكليزي لا يُباع في سوق الرقيق ولا يُفرَّق ما بينه وبين أسرته، ولا يُجلد بالسياط.»

- «إنه خاضعٌ لسلطان رب العمل خضوعاً يُنزله منه منزلة الرقيق الذي يشتريه الرجل من النخاس. وإذا كان مالك رقّ العبد يجلده بالسوط حتى الموت، فإن في ميسور الرأسمالي أن يجوّع العامل حتى الموت أيضاً. أما في ما يتصل بسلامة الأسرة وأمنها فمن العسير على المرء أن يقول: أيّهما أسوأ، أن يرى أولاده يُباعون، أو أن يراهم يموتون جوعاً تحت سقف البيت الذي يسكنه...

وأياً ما كان، فقد تحدثت آخر الأمر إلى ألفرد في ضرورة تصفية الشركة، فقال إني عاطفي كالنساء ولا أصلح لحياة العمل. ونصحني أن آخذ الأموال الموظفة في المصارف وبيت الأسرة في نيو أورليانز وأنصرف إلى نظم الشعر. . .»

ـ «ولِمَ لم تحرر عبيدك؟»

ـ «الواقع أني إذا كرهت استخدامهم كآلات لجمع الثروة فما كنت لأكره، بالنسبة نفسها إبقاءهم لاتخذ منهم وسيلة إلى إنفاق المال. لقد خدم بعضهم في بيتنا منذ صباي الأول، فأنا شديد التعلق بهم. وكان الصغار فيهم أولاداً للكبار. يُضاف إلى هذا أنهم كانوا جميعاً راضين بالبقاء حيث هم.»

وتوقف سانت كلار لحظة، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قال:

ـ «لقد فكّرت أكثر من مرة في خطة لعمل شيء عظيم في هذا العالم. كان يعتلج في نفسي توقٌ ضبابي غير واضح المعالم إلى أن أكون محرِّراً فأمحو عن وجه وطني لطخة العار هذه. وأحسب أن جميع الشبان تعصف بهم مثل هذه الحمى في وقت من الأوقات ثم. . .»

ـ «وما الذي حال بينك وبين تنفيذ ما عزمت عليه؟»

ـ «حسناً، إن الرياح لم تجرِ بما كنت أشتهي وأتوقع، فتداخلني اليأس. وبعد أن كنت أطمح إلى أن أكون مصلحاً ومجدداً لبيئتي، قنعت من الحياة بأن أكون قطعة من الخشب تطفو على سطح المياه وتتقاذفها التيارات، ليس غير.»

وهنا سألت الآنسة أوفيليا ابن عمها:

ـ «وما رأيك في قضية الاسترقاق عموماً؟ وما المصير الذي ستؤول إليه؟»

ـ «لست أدري. ولكن شيئاً واحداً لا ريب فيه وهو أن ثمة تكتلاً وتحفزاً بين الجماهير، في طول العالم وعرضه. ولا بدَّ أن يأتي يوم تغضب فيه هذه الجماهير غضبتها الكبرى، عاجلاً أو آجلاً. إن الشيء نفسه ليجري اليوم في أوروبا، وإنكلترا، وفي هذه البلاد. وأذكر أن والدتي كانت تحدثني عن زمن عدالة وإصلاح سوف يأتي، زمن يسود فيه المسيح ويتحرر فيه جميع الناس ويسعدون. ولقد علمتني وأنا غلام أن أصلّي قائلاً: «مملكتك آتية». ويخيّل إليَّ في بعض الأحيان أن هذه التنهدات كلها، وهذا الانتحاب كله، وهذا الهيجان الذي يعصف بنفوس المعذبين في الأرض ليست إلا إرهاصات تؤذن باقتراب تلك الساعة التي كانت تتحدث عنها. ولكن هل يمتد بنا الأجل حتى نشهد يوم ظهوره؟»

وألقت أوفيليا صوفها الذي كانت تحبِكه، جانباً، وتطلعت في شوق ولهفة إلى وجه ابن عمها وقالت:

ـ «أوغسطين! يتراءى لي في بعض الأحيان أنك لست بعيداً عن تلك المملكة...»

ـ «أشكر لكِ حسن ظنكِ. ولكن الأمر عندي يراوح ما بين الصعود والهبوط: الصعود إلى باب السماء نظرياً، والهبوط إلى غبار الأرض عملياً. وعلى أية حال فها هو ذا الجرس يدعونا إلى الشاي، فلنلبِّ دعوته، ولا تقولي بعد اليوم إنني لم أخض في حديث جدي رصين مرة واحدة في حياتي...»

وعلى المائدة ألمعت ماري إلى حديث برو العجوز. ووجهت الخطاب إلى ابنة عمها فقالت:

ـ «أحسب أنكِ تعتقدين أننا جميعاً برابرة...»

فأجابت الآنسة أوفيليا:

- «أعتقد أن ذلك الحادث شيء بربري، ولكني لا أعتقد أنكم جميعاً برابرة.»

فقالت ماري:

- «مهما يكن من أمر فأنا أعتقد أنه من المتعذر علينا العيش مع بعض هذه المخلوقات. إنهم من الرداءة والسوء بحيث لا ينبغي أن يعيشوا. أنا لا أحس بذرَّة من العطف في مثل هذه الحالات. ولو حسّن هؤلاء العبيد سلوكهم إذن لما وقع ذلك كله.»

فقالت إيفا:

- «ولكن المخلوقة المسكينة كانت غير سعيدة، يا ماما. وذلك ما جعلها تشرب الخمر.»

- «وهل يشكّل ذلك عذراً كافياً؟ إني كثيراً ما أكون غير سعيدة، في ما أحسب. ومع هذا فلم ألجأ إلى الشراب. لا، إنهم يفعلون ذلك لأنهم طالحون. وهناك نفر منهم يتعذر ترويضه مهما أنزلتَ به من ضروب القسوة. كان عند والدي في ما أذكر رجل ليس أكسل منه. كان دأبه أن يفرَّ من المزرعة لمجرد التخلص من العمل والذهاب إلى المستنقعات يسرق ما تقع عليه يداه، ويرتكب ألوان الآثام الفظيعة. وكان رجال والدي يقبضون عليه، مرةً بعد مرة، ويجلدونه بالسياط، ولكن على غير طائل. فقد تحامل على نفسه ذات يوم، برغم ضعفه البالغ، وولى الأدبار ليموت في المستنقع. والحق أنه لم يكن ثمة مبرِّر لهذا كله، فقد كان والدي يُعامل أرقاءه دائماً في كثير من الرفق.»

فقال سانت كلار.

- «لقد روَّضت أنا، ذات مرة، عبداً أعجزَ أقسى النظار والأسياد...»

فصاحت ماري:

ـ «أنت؟. إنه ليسرني أن أعرف متى قمت أنت نفسك بشي من هذا القبيل...»

ـ «حسناً. لقد كان ذلك العبد ضخم الجسم قوياً، وكانت غريزة الحرية الجامحة مستحوذة عليه استحواذاً. كان أسداً أفريقياً عادياً، وكان يُدعى شيبيو. لقد أعجزَ مالكيه حقاً، فتناقلته أيدي النخاسين حتى انتهى به المطاف آخر الأمر إلى يد أخي ألفرد الذي اشتراه لاعتقاده بأنه قادرٌ على ترويضه. وما هي إلا فترة حتى صرع شيبيو ناظر الإقطاعة وفرَّ إلى المستنقعات. فاتفق يوماً أن زرتُ ألفرد في مزارعه فألفيته في حال شديدة من الغيظ، ولكني قلت له إنها غلطته، وأبديت استعدادي لمراهنته على أن في ميسوري أن أروّض ذلك العبد الضاري. وأخيراً تمّ الاتفاق في ما بيننا على أن آخذ العبد، إذا ما تصيدته، لأجري تجاربي عليه، وهكذا حشدوا لي ستة رجال، أو سبعة رجال، ومعهم بنادقهم وكلابهم ابتغاء تصيّد الأفريقي الآبق...

«ونبحت الكلاب وهرّت وانطلقنا نبحث عنه حتى اهتدينا، آخر الأمر، إليه. وما إن رآنا حتى أطلق ساقيه للريح، وراح يثب كالوعل تاركاً إيانا وراءه فترة من الزمان. غير أن أجمة من قصب السكر اعترضت سبيله فانقلب على عقبيه وصارع الكلاب في بسالة مذهلة. لقد انقضَّ عليها ذات اليمين وذات الشمال وقتل ثلاثة منها بيديه، ولكن إحدى رصاصاتنا أصابته، فخرّ على الأرض، والدم يتدفّق من جراحه، عند قدميّ تقريباً. وتطلّع المسكين إليّ وفي عينيه الرجولة واليأس معاً. فانتهرتُ الكلاب وسائر الرفاق الذين تهافتُوا عليه وأعلنتُ أنه غدا أسيري منذ اليوم. لقد كان ذلك كل ما أستطيع أن أفعله للحؤول بينهم وبين إطلاق الرصاص عليه، ثم إنني طلبت إلى

ألفرد أن يبيعني إياه ففعل. وما هي إلا فترة أسبوعين اثنين حتى صار الرجل طوع أمري...»

فقالت ماري:

ـ «ولكن ما الذي عملته حتى وفقت إلى ذلك؟»

ـ «حسناً، كانت العملية بسيطة جداً. لقد حملته إلى غرفتي الخاصة، وأعددت له فراشاً نظيفاً، وضمدت جراحه، وسهرت على راحته بنفسي حتى بَرَأ. ثم إنني أعتقته وقلت له إن في استطاعته أن يذهب حيث يشاء.»

فسألت الآنسة أوفيليا:

ـ «وهل ذهب؟»

ـ «لا، لقد مزق الأبله صكّ الإعتاق وأبى أن يفارقني. وأشهد أني لم أعرف عمري كله رجلاً أشجع قلباً وأنقى سريرة وأخلص وداً منه. وقد اعتنق النصرانية من بعد، وغدا رقيق الحاشية كالأطفال، بيد أني فقدته في موسم الكوليرا الأول. والواقع أنه قدَّم حياته فداءً لحياتي. ذلك بأني كنت مريضاً مشرفاً على الهلاك، وفي حين ابتعد عنّي الناس جميعاً بسبب من الوباء لزمني شيبيو وخدمني أصدق خدمة معيداً الحياة إلى جسدي الذاوي. ولكن المسكين ما لبث أن وقع هو صريع الداء. وقد بذلت غاية جهدي لإنقاذه، ولكن سهم القضاء كان قد نفذ...»

وفيما كان سانت كلار يروي تلك القصة اقتربت إيفا منه شيئاً بعد شيء، وقد انفرجت شفتاها واتسعت عيناها بشوقٍ عارم واستغراق ذاهل. حتى إذا انتهى من روايته طوّقت عنقه فجاءةً بذراعيها، وأغرقت في البكاء والنحيب.

وصرخ سانت كلار وقد رأى هيكل الفتاة النحيل يرتجف ويتمايل تحت وطأة مشاعرها:

ـ «إيفا، عزيزتي الصغيرة! ماذا دهاكِ؟»

ثم أضاف:

ـ «هذه الفتاة ينبغي أن لا تسمع مثل هذا الكلام. إنها عصبية المزاج.»

فقالت إيفا وهي تضبط نفسها فجأة:

ـ «لا يا بابا، أنا لست عصبية. ولكن أفكاراً كثيرة تخطر ببالي. ولعلي أحدثك عن ذلك في يوم من الأيام.»

فقال سانت كلار:

ـ «حسناً، فكري يا عزيزتي ما شئت، ولكن لا تصرخي وتزعجي والدكِ. الآن انظري أية خوخة جميلة جئتك بها!»

وأخذت إيفا الخوخة، وابتسمت، ولكن آثار التشنج العصبي كانت ما تزال بادية حول زوايا فمها...

* * *

أخشى أن يكون صاحبنا توم قد أُهمِل بعض الشيء في هذه الغمرة من أخبار الطبقة الأرستقراطية. ولكن إذا رافقنَا القُراء إلى غرفة صغيرة قائمة فوق الاسطبل استطاعوا أن يعرفوا شيئاً قليلاً عنه. كانت غرفة حسنة في الجملة فيها فراش وكرسي ومنضدة خشنة صغيرة وضع عليها كتابه المقدس ومجموعة تراتيله.

وكان الحنين إلى الأهل والولد قد استبدّ بتوم وملك عليه مشاعره كلها، ذلك اليوم، فالتمس من إيفا أن تعطيه قطعة من ورق ليكتب رسالة إلى زوجته. والتبس الأمر على توم فلم يعرف كيف يستهل رسالته. لقد مُسحت من ذاكرته أشكال الرسائل التي علّمه إياها جورج ابن مولاه السابق، في حين لم يعرف على وجه التأكيد أي الأشكال التي ظلت عالقة في ذاكرته ينبغي أن يستخدم الآن. وفيما

كان منكبّاً على العمل، لاهثاً من الجهد الذي ينفق، هبطت عليه إيفا هبوط الندى، وما إن رأت ما خطه على الورق حتى صاحت:

ـ «أوه، أيها العم توم، إنك لتصور أشياء مضحكة حقاً!»

ـ «إني أحاول أن أكتب رسالة إلى امرأتي المسكينة وإلى أولادي الصغار. ولكني أخشى أن لا أنجح في ذلك.»

ـ «ليتني أستطيع أن أساعدك، يا توم. لقد تعلمت الكتابة بعض الشيء، وفي العام الماضي كان في استطاعتي أن أكتب جميع الحروف، ولكني أخشى أن أكون قد نسيتها الآن.»

وهكذا وضعت إيفا رأسها الذهبي الجميل إلى جانب رأسه وتعاون الاثنان، في اندفاع متكافئ وفي جهالة شبه متكافئة، على صوغ الرسالة. وبعد كثير من المشاورة والمذاكرة حول كل كلمة أخذ الإنشاء يبدو أشبه ما يكون بالكتابة الحقيقية.

وأمعنت إيفا النظر فيما كتبا ثم صاحت:

ـ «أجل، أجل أيها العم توم، لقد أخذت السطور تبدو جميلة حقاً. لشد ما ستكون زوجتك وأطفالك المساكين الصغار سعداء بتلاوتها! أوه، إنه لمن العار أن تضطر إلى الارتحال عنهم! أنا أعتزم أن أطلب إلى بابا إعادتك إلى موطنك الأول، في وقت قريب.»

ـ «لقد قالت سيدتي إنها سوف ترسل إليَّ شيئاً من المال حالما يتيسّر لها ذلك. وإني لأتوقع أن تفعل. كذلك قال لي مولاي الصغير جورج إنه سيحضر لافتدائي، وقد قدَّم إليّ هذا الدولار عربوناً على ذلك.»

قال توم هذا وسحب الدولار الثمين من تحت ثيابه.

قالت إيفا:

ـ «أوه، لا شك في أنه سيأتي، إذن. إني سعيدة بذلك.»

ـ «وقد أردتُ أن أبعث إليهم برسالة لأعلمهم أين أنا، ولأخبر كلو المسكينة أنني في خير...»

وفجأة دخل عليهما سانت كلار. وإذ رأى الورقة تساءل عن حقيقة أمرها، فقالت إيفا:

ـ «أوه، إنها رسالة توم. إني أساعده على كتابتها. أليست جميلة؟»

فقال سانت كلار:

ـ «أنا لا أريد أن أثبط همة أيّ منكما. ولكني أظن يا توم أن من الأفضل أن أكتب أنا الرسالة لك. ولسوف أفعل ذلك عندما أرجع من نزهتي على ظهر الجواد.»

فقالت إيفا:

ـ «من الضروري جداً أن تعجل في ذلك. لأن سيدته سوف تبعث بالمال لافتدائه. أسمعت يا بابا؟ لقد أخبرني أنهم قالوا له ذلك.»

ولم يعلق سانت كلار على هذا الكلام، واكتفى بأن أصدر أمره إلى توم بإعداد الخيل للنزهة.

وفي ذلك المساء كتب سانت كلار الرسالة باسم توم، وأودعها صندوق البريد.

ـ 13 ـ

توبسي

ذات يوم، قال سانت كلار للأنسة أوفيليا إنه اشترى لها هدية. وقدَّم إليها فتاة زنجية يراوح عمرها ما بين الثامنة والتاسعة. كانت من أشد أبناء جلدتها سواداً، ذات عينين مستديرتين براقتين، وكان شعرها الصوفي مضفوراً غدائرَ متناثرة في كل جهة. أما وجهها فكان مزيجاً غريباً من الذكاء والمكر.

وصاحت أوفيليا:

ـ «يا أوغسطين، ما الذي حملك على أن تأتي بهذه الفتاة الوثنية الملامح إلى هنا؟»

ـ «لقد جئت بها إليكِ لتثقّفيها وتنشئيها على الطريقة التي ينبغي لها سلوكها.»

ثم التفت إلى الفتاة وقال:

ـ «والآن توبسي، أسمعينا أغنية من أغنياتكِ، وأرينا شيئاً من رقصكِ.»

وبرقت عينا الفتاة السوداوان الشبيهتان بالزجاج، واندفعت تغني أغنية زنجية غريبة اشتركت في أدائها رجلاها ويداها جميعاً.

حتى إذا انتهت، وجَّه سانت كلار إليها الخطاب قائلاً:

ـ «توبسي، هذه سيدتكِ الجديدة. سأتركِكِ الآن بين يديها. ولا تنسي أن تسلكي دائماً مسلكاً حسناً.»

ـ «نعم يا سيدي!»

وهنا قالت أوفيليا لابن عمها:

ـ «أخبرني، بربك، ما الفائدة من مثل هذه الفتاة؟ إن بيتك ليغص بأمثال هذه الصغيرة حتى صار المرء لا يستطيع أن ينقل رجله من غير أن يدوس على أجسادهم...»

ـ «أتيت بها لكي تثقفيها، ألم أقل لك ذلك؟ إنك تتحدثين دائماً عن أثر التربية والتثقيف، وقد رأيت أن أقدّم لك نموذجاً ما يزال على الفطرة عساكِ توفَّقين إلى جعله يتطابق مع قالب «نيو إنجلاند» المسيحي القويم...»

ـ «لست أريدها. إن عندي من هذه البضاعة أكثر مما يكفيني...»

ـ «ذلك شأنكم أنتم المسيحيين، في بقاع العالم كله! إنكم تنشئون الجمعيات وتوجهون بعض المبشرين التعسين إلى أمثال هذه الفتاة من الوثنيين حيث يسلخون العمر كله في محاولة هدايتهم. ولكن دليني على واحد منكم مستعد أن يدخل وثنياً إلى بيته ويتولى بنفسه أمر هدايته! لا، فعندما تصل المسألة إلى هذا الحد يصبح البائس قذراً وغير مرغوب فيه، وتستكثرون عليه أقل قدر ممكن من العناية والرعاية!»

وخففت أوفيليا من غلوائها وقالت:

ـ «أوغسطين، أنت تعلم أني لم أنظر إلى المسألة على هذا النحو. حسناً، قد يكون في العناية بهذه الطفلة عمل تبشيري حقيقي.»

وتطلعت إلى وجه توبسي في شيء من العطف ثم حملتها إلى المطبخ لتكلف إحدى الخادمات بتنظيفها وإلباسها.

وإذ رفضن جميعاً القيام بهذه المهمة اضطرت أوفيليا إلى أن

تنهض بهذا العبء بنفسها. والواقع أنها لم تكن شديدة الارتياح لذلك، ولكنها صبرت، فقد كان الصبر أقصى ما تستطيع مبادئها أن تدفعها إليه. حتى إذا رأت آثار السياط على ظهر الفتاة وكتفها، وهي علامات لا تمحى، تؤذن بفظاعة النظام الذي عاشت المسكينة في ظله حتى الساعة، رق قلبها لها وأخذتها موجة من الإشفاق عليها.

وسألتها الآنسة أوفيليا:

ـ «ما عمركِ؟»

فقالت توبسي:

ـ «لست أدري يا سيدتي.»

وكشرت حتى بدت نواجذها.

ـ «ألا تعرفين ما عمركِ» ألم ينبئك أحد بذلك يوماً؟ من هي أمكِ؟»

ـ «لم يكن لي أم في يوم من الأيام.»

وكشرت عن أسنانها من جديد...

ـ «لم يكن لك أيّ أمّ؟ ماذا تعنين؟ وأين ولدتِ؟»

ـ «أنا لم أُولد في يومٍ من الأيام!»

فقالت الآنسة أوفيليا وهي تتكلف الأناة:

ـ «يجب أن لا تجيبيني بهذه الطريقة، أيتها الطفلة. أنا لا ألاعبكِ! أخبريني أين ولدتِ ومَنْ أبوكِ وأمكِ.»

فأجابت المخلوقة السوداء في نبرة أكثر توكيداً:

ـ «أنا لم أُولد قط، ولم يكن لي أب أو أم أو أي شيء في يوم من الأيام. لقد رباني أحد المضاربين في البورصة مع كثير غيري من العبيد. وكانت العمة «سو» العجوز تُعنى بنا جميعاً.»

ـ «كم سنة عشتِ عند سيدكِ وسيدتك؟»

ـ «لستُ أدري، يا سيدتي.»

ـ «هل عشتِ عندهم سنة أم أكثر أم أقل؟»

ـ «لست أدري، يا سيدتي.»

ـ «ألا تعرفين من الذي خلقكِ؟»

وضحكت الطفلة ضحكة قصيرة وقالت:

ـ «لستُ أعرف أن أحداً قد خلقني.»

وهنا بدا للآنسة أوفيليا أن تسألها عن أشياء أقرب إلى فهمها فقالت:

ـ «هل تعرفين كيف تخيطين؟»

ـ «لا يا سيدتي.»

ـ «ولكن ما الذي تعرفينه؟ ماذا كنتِ تعملين عند سيدك وسيدتكِ؟»

ـ «كنت أحمل الماء، وأغسل الصحون، وأمسح السكاكين...»

ـ «هل كانا يعاملانكِ معاملة حسنة؟»

ـ «أحسب أنهما كانا يحسنان معاملتي!»

وتفرست في الآنسة أوفيليا بشيء من المكر.

* * *

عُنيت الآنسة أوفيليا بتعليم توبسي، بادئ الأمر، فنّ ترتيب الغرف. وفيما كانت تشرح لها في اليوم الأول كيف تنشر الأغطية على الفراش في ذوق وإحكام غافلتها التلميذة الصغيرة فاختطفت قفازين وشريطة حريرية ودسّتها في كمّيها.

ـ «والآن يا توبسي، حاولي أن تعيدي عمل ذلك بنفسكِ.»

قالت الآنسة أوفيليا ذلك، وسحبت الأغطية، ثم جلست لترى إلى أيّ حدّ ستوفق التلميذة الصغيرة في محاولتها.

وتقدّمت توبسي للقيام بالتجربة فإذا هي تنال رضا الآنسة أوفيليا على وجه العموم. ولكنها لم تكد تفرغ من عملها حتى تدلى جانب من الشريطة من أحد كمّيها، فما كان من الآنسة أوفيليا إلا أن صاحت في وجهها:

ـ «ما هذا؟ لقد سرقتِ الشريطة أيتها الطفلة الفاسدة الشريرة!!»

وسحبت الآنسة أوفيليا الشريطة من كمّ توبسي، من غير أن يعتري الجارية الصغيرة أيما قلق أو اضطراب. لقد اكتفت بأن ألقت إليها نظرة تمور بالدهش والبراءة.

وقالت توبسي:

ـ «ولكن هذه شريطة الآنسة فيلي، أليس كذلك؟ ما الذي أتى بها إلى ردني؟»

فصاحت أوفيليا:

ـ «توبسي، لا تكذبي، لقد سرقتِ الشريطة؟»

ـ «سيدتي، أنا لم أسرقها! أنا لم أرَها إلاّ الآن!»

وبسبب إصرار الطفلة على الإنكار أمسكت الآنسة أوفيليا بها وهزتها هزاً عنيفاً. وأخرجت الهزة القفازين من الكمّ الآخر. فصاحت أوفيليا:

ـ «انظري! ألا تزالين تصرين على أنكِ لم تسرقي الشريطة؟»

واعترفت توبسي بسرقة القفازين ولكنها أنكرت أن تكون قد سرقت الشريطة. فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «والآن يا توبسي، إذا اعترفت بكل شيء فلن أجلدك هذه المرة!»

فما كان من توبسي إلا أن اعترفت بكل شيء.

وهنا قالت أوفيليا:

ـ «حسناً. أخبريني الآن هل سرقتِ شيئاً آخر، ومن قبل! أنا لن أجلدكِ إذا اعترفتِ..»

ـ «نعم يا سيدتي. لقد أخذت ذلك الشيء الأحمر الذي تلبسه سيدتي إيفا في جيدها.»

ـ «أيتها الطفلة الشريرة! اذهبي واتتيني به في الحال!»

ـ «لا أستطيع يا سيدتي. لقد احترق!»

ـ «احترق! قصة عجيبة حقاً؟ اذهبي واتتيني به وإلا جلدتكِ بالسوط؟»

وانتحبت توبسي وأعلنت أنها لا تستطيع.

ـ «لقد احترق. لقد احترق.»

ـ «ولكن لماذا حرقتهِ؟»

ـ «لأنني شريرة. أنا لا أستطيع أن أقاوم الشر!»

وفي تلك اللحظة دخلت إيفا إلى الغرفة يزين جيدها عقد مرجاني فريد.

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «ولكن أين عثرتِ على عقدك يا إيفا!»

ـ «أين عثرت عليه؟ لقد كان في عنقي طوال النهار...»

فسألت الآنسة أوفيليا:

ـ «وهل كان يطوق جيدكِ البارحة أيضاً؟»

ـ «نعم يا عمتي. والمضحك أنه ظل في عنقي طوال الليل. فقد نسيتُ أن أخلعه عندما أويت إلى فراشي!»

وأصاب الآنسة أوفيليا ذهول صارخ، ثم قالت في يأس:

ـ «أنا أعترف بعجزي عن فهم هذه الطفلة. لماذا زعمت يا توبسي أنكِ أخذت العقد؟»

فقالت توبسي وهي تفرك عينيها:

ـ «لقد قالت سيدتي إن عليّ أن أعترف. فلم أجد ما أعترف به. فقلت إني سرقت العقد...»

فقالت أوفيليا:

ـ «ولكني لم أطلب منك أن تعترفي بأشياء لم تعمليها طبعاً. ذلك كذبٌ أيضاً فلا تعودي إليه.»

عندئذ التفتت إيفا إلى الطفلة السوداء وقالت:

ـ «توبسي، ما الذي يحملكِ على السرقة؟ إنكِ ستلقين عندنا عناية حسنة. وأنا على استعداد لأن أقدم إليكِ ما تطلبينه شرط أن تقلعي عن هذه العادة القبيحة.»

وكانت تلك أول كلمة عطف سمعتها المسكينة طوال حياتها.

* * *

خصصت الآنسة أوفيليا ساعات معيَّنة لتعليم توبسي القراءة والخياطة. فأما في الفن الأول فقد تكشفت عن ذكاء ساعدها على أن تتعلم الحروف بمثل السحر، فما انقضت فترة وجيزة حتى صار في ميسورها أن تقرأ. وأما في الفن الثاني فلم توفق توبسي إلى مثل هذا النجاح. كانت خفيفة الحركة كالقطة، نشيطة كالقرد، فكانت تمقت الخياطة لأنها تجمّد حيويتها وتكبت من نشاطها الحركي.

وفي أيام الآحاد كانت الآنسة أوفيليا تُعنى بتعليم توبسي تعاليم الدين المسيحي. وكانت للفتاة ذاكرة عجيبة، فهي تحفظ ما تلقنها إياه

سيدتها في سرعة بالغة وكانت تزيد المعلمة حرصاً على أداء هذا الواجب.

وسألها سانت كلار ذات يوم:

ـ «أي فائدة تتوقعين أن تجنيها هذه الطفلة من ذلك كله؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «لقد كانت التعاليم المسيحية تفيد الصغار وما تزال. إنها الشيء الذي ينبغي أن يُنشّأ عليه الأطفال، ما في ذلك ريب.»

فقال سانت كلار:

ـ «سواء أفهموها أم لم يفهموها...»

ـ «أوه، إن الأطفال لا يفهمونها ساعة تلقينهم إياها. ولكن لا بدَّ أن تنكشف لهم حقيقتها بعد أن يشبّوا عن الطوق.»

ومضت الآنسة أوفيليا في تثقيف تلميذتها تثقيفاً دينياً، فاستطردت قائلة:

ـ «وعندما تُرك أبوانا الأولان لحرية إرادتهما الخاصة أفسدا الولاية(*) التي رسمها الله لحياتهما وأُخرجا من الجنة.»

فبرقت عينا توبسي وارتسمت علامة استفهام كبيرة على محياها. فسألتها الآنسة أوفيليا:

ـ «أتريدين أن تقولي شيئاً يا توبسي؟»

ـ «من فضلكِ يا سيدتي. هل كانت تلك الولاية ولاية كانتاكي؟»

ـ «أي ولاية يا توبسي؟»

(*) الولاية هنا الخطة. والفكرة دائرة كلها في هذا المقطع على الجناس بين كلمة State بمعنى حالة ووضع (وقد اصطنعنا لها كلمة الولاية بمعنى الخطة مجاراة للأصل الإنكليزي) وكلمة State بمعنى ولاية أو مقاطعة.

ـ «تلك الولاية التي خسرها أبوانا الأولان. إني كثيراً ما سمعت سيدي يروي كيف جئنا نحن من ولاية كانتاكي. . .»

فضحك سانت كلار حتى استلقى ثم قال:

ـ «ينبغي أن تعطيها معنى من المعاني، وإلا تخيلت هي ذلك المعنى. ألا ترين إلى نظرية الهجرة التي أوحت بها؟»

فزجرت الآنسة أوفيليا ابن عمها وقالت:

ـ «كيف أستطيع أن أوفق إلى تعليمها أصول الدين ما دمت تسخر وتضحك على هذه الشاكلة؟»

فوعدها سانت كلار بالتزام الصمت، وانصرف إلى جريدته يتصفحها. . .

ـ 14 ـ

كانتاكي

لست أشك في أن قُرائي قد أصبحوا في شوق إلى أن يعرفوا شيئاً عما كان يجري في كوخ العم توم، بولاية كانتاكي. فلأنتقل بهم لحظة إلى هناك.

نحن في ظهيرة يوم من أيام الصيف الحارة، وقد فُتحت الأبواب والنوافذ في قصر آل شيلبي داعية النسمات الفرحة المبتهجة إلى الدخول.

وقالت السيدة شيلبي لزوجها:

ـ «هل تعلم أن كلو قد تلقّت رسالة من توم؟»

ـ «صحيح؟ يبدو أن توم قد وجد صديقاً هناك. كيف حاله؟»

فأجابت السيدة شيلبي:

ـ «لقد بيع لأسرة طيبة جداً في ما أعتقد. وهم يعاملونه معاملة حسنة.»

فقال السيد شيلبي في صدق:

ـ «آه، حسناً. إني سعيد بذلك. سعيد جداً. وأحسب أن توم سوف يألف الحياة في ذلك البيت الجنوبي فيزهد بعدُ في العودة إلى هنا.»

ـ «على العكس. إنه يتساءل في لهفة شديدة متى نبعث إليه بالمال الضروري لافتدائه.»

فقال السيد شيلبي:

ـ «لست أدري. إن أحوالي لفي تدهور مستمر...»

ـ «يبدو لي يا عزيزي أن شيئاً يجب أن يُعمل لإصلاح الحال. ما قولك في أن نبيع جميع الخيول وإحدى المزارع وفاء لديوننا؟»

ـ «أوه، هذا شيء مضحك يا إميلي. أنتِ لا ريب أجمل امرأة في كانتاكي، ولكنكِ مع ذلك لا تفهمين في الشؤون المالية. لا، إن النساء لا يمكن أن يفهمن شيئاً من ذلك.»

وسكتت السيدة شيلبي على مضض. لقد كان يحز في قلبها أن لا تستطيع الوفاء لتوم وكلو بما عاهدتهما عليه. وما هي إلا لحظة حتى استطردت:

ـ «ألا ترى أن في ميسورنا أن نستنبط وسيلة ما لجمع تلك الفدية؟ مسكينة العمة كلو. إنها لا تطمع في دنياها بأكثر من هذا.»

ـ «آسف أن يكون الأمر كذلك. أحسب أني تسرعت في إعطائها ذلك الوعد، والذي أراه أن من الخير لنا أن نخبر كلو بهذا الواقع الأليم لتروض نفسها عليه. إن توم لا بدَّ أن يتزوج من امرأة أخرى بعد سنة أو سنتين. ومن الخير لها هي أن تبحث عن رجل آخر.»

ـ «قلت لك يا عزيزي إني عاجزة عن أن أتحلل من عهدي لهذين البائسين. وإذا لم أوفق إلى جمع الفدية بطريقة من الطرق فسأضطر إلى أن أعطي دروساً في الموسيقى تمكنني آخر الأمر من إنقاذ هاتين الروحين المعذبتين.»

ـ «أتذلّين نفسك على هذا النحو يا إميلي؟ أنا لن أوافق على شيء مثل هذا ما حييت؟»

ـ «أذل نفسي؟ أليس في إخلافي بكلمة الشرف التي أعطيتها إذلالٌ لنفسي وروحي؟»

وهنا قُطع الحديث بسبب ظهور العمة كلو في أقصى الشرفة.

ـ «حسناً يا كلو، ماذا تريدين؟»

قالت السيدة ذلك ونهضت من مكانها قاصدة إلى أقصى الشرفة.

ـ «أريد أن أسرّ إليك حديثاً صغيراً يا سيدتي!»

ـ «قولي ما عندكِ أيتها العمة كلو!»

ـ «سيدتي، لماذا يُتعب سيدي وسيدتي نفسيهما من أجل الفدية ولا يلجآن إلى ما هو رهن أيديهما هنا؟»

وتبسّمت كلو بسمة من يشكّ في تأثير فكرته في نفس المخاطَب.

فقالت السيدة شيلبي بعد أن تبين لها مما تعرفه من عادة كلو، أن العجوز قد سمعت كل كلمة من كلمات الحديث الذي دار بينها وبين زوجها:

ـ «أنا لا أفهم ما تقولين يا كلو!»

وتبسّمت كلو مرةً ثانية ثم قالت:

ـ «ولماذا؟ هناك من يؤجرون عبيدهم ويجمعون لهم المال الذي يكسبون.»

ـ «حسناً يا كلو. أتقترحين أن نؤجركِ لأحد من الناس؟»

ـ «لست أقترح شيئاً. كل ما في الأمر أن سام قال لي إن في لويزفيل حلوانياً محتاجاً إلى امرأة تحسن صنع الكعك والفطائر، وقال إنه مستعد لأن يدفع لهذه المرأة أربعة دولارات في الأسبوع.»

ـ «حسناً يا كلو، وماذا بعد؟»

ـ «الذي أعتقده يا سيدتي أن الأوان قد آن لتكليف «سالي» القيام

ببعض الأعمال، وأحسب أنها تستطيع أن تنهض بالمسؤولية مثلي تماماً. فإذا سمحت لي سيدتي في الذهاب ساعدتها على جمع الفدية المطلوبة...»

ـ «ولكن... هل تريدين أن تفارقي أولادك يا كلو؟»

ـ «سيدتي، لقد أصبح أولادي كباراً الآن وفي استطاعتهم أن ينهضوا بأعباء العمل. ولسوف تُعنى سالي بأمر الطفلة الصغيرة. إنها بنت طيبة.»

ـ «ولكن لويزفيل بعيدة جداً من هنا...»

فقالت كلو:

ـ «وأي بأسٍ في ذلك؟ لعلّي أقترب هناك من زوجي العجوز...»

ـ «لا يا كلو، ستكونين بعيدة عنه أكثر من مئة ميل...»

أُسقِطَ في يد كلو. فقالت مولاتها:

ـ «لا بأس. إن ذهابكِ إلى هناك سوف يجعلكِ أقرب على كل حال. في استطاعتكِ أن تذهبي يا كلو، ولسوف أدخر لك كل فلسٍ من أجورك لتفتدي بعلكِ بها.»

وكما تُحيل أشعة الشمس الساطعة سحابة دكناء إلى لون الفضة، كذلك أشرق وجه كلو الداكن وأضاء.

ـ «الحق أن سيدتي بالغة الكرم. لقد كنت أفكر في هذا الشيء نفسه. أنا لن أحتاج إلى ثياب وأحذية أو أي شيء آخر، ولذلك أستطيع أن أوفر كل فلسٍ من هذه الدولارات الأربعة. كم أسبوعاً في السنة يا مولاتي؟»

فأجابتها السيدة شيلبي:

ـ «اثنان وخمسون.»

- «وإذا تقاضيت أربعة دولارات كل أسبوع فكم أجمع في السنة؟»

فقالت السيدة شيلبي:

- «تجمعين مئتين وثمانية دولارات.»

وبدت على محيّا كلو أمارات الدهشة والفرح:

- «وفي كم سنة أستطيع أن أجمع قيمة الفدية يا سيدتي؟»

- «في أربع سنوات أو خمس سنوات. ولكنكِ لن تضطري إلى العمل طوال هذه المدة، فسوف أقدّم أنا جزءاً من المال.»

فقالت كلو:

- «أنا لا أرضى لسيدتي أن تعطي دروساً في الموسيقى أو غير ذلك. إن مولاي لمحقّ في هذا من غير شك.»

- «لا بأس عليّ يا كلو. ولكن قولي متى تتوقعين أن تذهبي؟»

- «حسناً، أنا لا أتوقع شيئاً. ولكن سام قال إنه قاصد إلى النهر مع بعض الفتيان، وقال إن في استطاعتي أن أذهب معه. وإذا وافقت سيدتي فإني جديرة بأن أصحب سام في صباح الغد.»

وفيما كانت كلو في كوخها منهمكة في ترتيب ثياب طفلها دخل عليها جورج ابن سيدها، فبادرته بقولها:

- «أنت لا تعرف أني ذاهبة إلى لويزفيل غداً... ذاهبة يا سيدي الصغير. ذاهبة لأكسب أربعة دولارات في الأسبوع، وستجمع لي مولاتي هذه الدولارات لنشتري بها زوجي العجوز من جديد.»

- «ولكن مع من أنت ذاهبة؟»

- «مع سام. والآن، أيها السيد، أرجو أن لا أزعجك إذا ما طلبت منك أن تكتب رسالة إلى توم تخبره فيها بكل شيء.»

فقال جورج:

ـ «من غير شك. إن العم توم سيكون سعيداً جداً بأن يتلقى رسالة منكِ. سأذهب الآن تواً إلى المنزل لأحضر الورق والحبر، وبعد ذلك أفرغ لكتابة الرسالة.»

ـ «طبعاً، طبعاً، أيها السيد الصغير. اذهب أنت إلى المنزل وسآتيك بقليلٍ من لحم الدجاج أو ما أشبه. إنك لن تتناول أيما عشاء، مع عمتك المسكينة، بعد اليوم!»

ـ 15 ـ

«العشب يذبل والأزهار تذوي»

تمرّ الحياة بنا يوماً فيوماً. كذلك مرّت بصديقنا توم حتى تصرَّمت سنتان كاملتان. ومع أن الدهر فرَّق ما بينه وبين جميع ما يعتبره عزيزاً غالياً، ومع أنه كان كثيراً ما يتوق إلى استطلاع ما ستتكشف عنه الأيام فقد ظلّ محافظاً على معنوياته العالية طوال تلك المدة.

وكان مما عزز معنوياته العالية الرسالة التي وجّهها إليه جورج ابن مولاه، بالنيابة عن العمة كلو، وقد جاء فيها أن زوجته اعتزمت العمل عند أحد الحلوانيين في لويزفيل، وأن ولديه «موز» و«بيت» ناجحان في أعمالهما، وأن الطفلة تحظى بعناية سالي وأفراد الأسرة جميعاً.

وفهِمَ توم من الرسالة أن كوخه الحبيب قد أوصد مؤقتاً، وأن جورج يعتزم أن يجدّد أثاثه عندما يرجع توم في وقت قريب...

والواقع أن أسلوب الرسالة كان موجزاً خالياً من الحشو والتعقيد. وقد أُعجب بها إعجاباً بالغاً واعتبرها أروع نموذج إنشائي ظهر في العصر الحديث، فكان لا يمل تقليب النظر فيها، بل لقد أبدى لإيفا رغبته في أن يحيطها بإطار ويعلقها في غرفته. ولم يَحُلْ دون تحقيق تلك الرغبة غير تعذر وضع الرسالة على نحو يُبرز وجهي الورق في وقت معاً.

وكان سانت كلار قد انتقل، في هذه المرحلة من قصتنا، إلى دارته القائمة على بحيرة بونتشارترين يصحبه سائر أعضاء الأسرة والخدم. فقيظ الصيف أكره جميع من يستطيعون مغادرة المدينة المحتبسة الهواء، غير الصحية، على التماس الراحة والنشاط عند شواطئ البحيرة وأنسامها البليلة.

وكانت دارة سانت كلار كناية عن نُزل صغير على الطراز المألوف في جزائر الهند الشرقية، تحيط به شرفات من خيزران ويُطل من جهاته جميعاً على حدائق وملاعب واسعة. وكانت حجرة القعود العامة تنفتح على حديقة عريضة تتضوع أزهارها ونباتاتها بألطف العبير، وتلتف ممراتها في انخفاض متدرج حتى لتبلغ شواطئ البحيرة نفسها التي ترتفع صفحة مياهها الفضية وتنخفض تحت أشعة الشمس الوهّاجة: صورةٌ تتبدّل كل ساعةٍ من ساعات النهار، وفي كل ساعة لها جمال خاص يميزها عن الساعة الأخرى.

هي ذي الشمس تشرف على الغروب فتضرم في الأفق كله شعلة ذهبية لا نهاية لها، وتحيل الماء إلى سماء جديدة. وها هي ذي البحيرة مخططة الحواشي، بأقلام وردية حيناً، ذهبية حيناً، إلا حيثما كانت المواكب ذات الأجنحة البيض تخطر ههنا وههناك، شأن كثير من الأرواح، والنجوم الذهبية الصغيرة تتألق عبر الوهج وتراقب نفسها وهي ترتجف في الماء.

وكان توم وإيفا جالسين في ظل إحدى العرائش أسفل الحديقة، في تلك الأمسية من أمسيات الأحد، وقد أسندت كتابها المقدس إلى ركبتيها وراحت تقرأ: «ورأيتُ بحراً من زجاج يمتزج بالنار.»

وفجأة كفّت إيفا عن التلاوة وأومأت بإصبعها إلى البحيرة قائلة:

ـ «توم. إنه هناك!»

ـ «وما ذاك، يا آنسة إيفا؟»

فقالت الطفلة مشيرة إلى المياه شبه الزجاجية التي كانت تعكس في ارتفاعها وانخفاضها وهج السماء الذهبي:

ـ «ألا ترى؟ هناك؟ إن ثمة بحراً من زجاج يمتزج بالنار.»

فقال توم:

ـ «صدقتِ يا آنسة إيفا.»

وأنشد:

«لو كانت لي أجنحة الصباح

إذن لطرت إلى ساحل كنعان.

إن الملائكة الأطهار لخليقة بأن تحملني

إلى بيت المقدس الجديد.»

وتساءلت إيفا:

ـ «أين تقوم بيت المقدس الجديدة يا توم؟»

ـ «أوه، هناك وسط السحب.»

فقالت إيفا:

ـ «إذن فأحسب أني أراها. انظر إلى هذه السحب. إنها تبدو أشبه بأبواب ضخمة من اللؤلؤ. ثم انظر إلى ما وراءها، بعيداً بعيداً، إنه ذهبٌ كله. توم، رتِّل ترنمية الأرواح المشرقة.»

وأنشد توم الترنيمة الشهيرة التي مطلعها:

«إني أرى عصبة من الأرواح المشرقة

تنعم بالمجد هناك!»

فقالت إيفا:

ـ «أيها العم توم، لقد رأيتُها!»

ولم يخامر توم أيما شك في ذلك. ولم يدهشه كلامها ذاك البتة. ولو قد أخبرته إيفا أنها كانت في الجنة إذن لاعتقد أن كلامها هو الصدق المحض.

- «إنها تأتيني أحياناً وأنا نائمة، هذه الأرواح!»

قالت إيفا ذلك وهمهمت بصوت خفيض:

- «إني أرى عصبة من الأرواح المشرقة. . .»

ثم استطردت:

- «عمّ توم، إني ذاهبة إلى هناك.»

- «إلى أين يا آنسة إيفا؟»

ونهضت الفتاة وأومأت بيدها الصغيرة إلى السماء. كان وهج السماء يخلع على شعرها الذهبي وخدها المتورد ضرباً من الإشعاع غير الأرضي، وكانت عيناها عالقتين بالأعالي.

وقالت:

- «إني ذاهبة هناك. . . إلى الأرواح المشرقة، يا توم. إني ذاهبة بعد فترة غير طويلة من الزمان. . .»

وأحس الرجل العجوز أن طعنة حادة أصابت قلبه. وشرد ذهن توم فذكر كيف لاحظ مراراً، خلال الستة الأشهر الأخيرة، أن يدي إيفا الصغيرة تأخذان في الضمور والهزال، وأن أنفاسها تتقاصر فهي لا تكاد تعدو في الحديقة مسافة يسيرة حتى يقعدها الجهد، وهي التي كانت من قبل تقفز وتثب ساعات طوالاً من غير أن تستشعر تعباً ما. لقد سمع الآنسة أوفيليا تتحدث غير مرة عن سعال عجزت جميع أدويتها عن شفائه. وحتى في تلك اللحظة كان ذلك الخد الملتهب وتلك اليد الصغيرة يشتعلان بحمى الدقّ التي تورّد خدود المصدورين. ومع ذلك فلم يدرك توم مغزى كلام إيفا حتى الآن.

وقطع مجرى الحديث بين توم وإيفا نداء متسارع من الآنسة أوفيليا:

ـ «إيفا! إيفا! إن الندى يتساقط. يجب أن لا تبقي هناك، في الخارج.»

وأسرعت إيفا ومعها توم إلى الدار.

* * *

كانت الآنسة أوفيليا متمرسة بفن التمريض. وكانت تعرف جيداً أولى الأمارات التي تنذر بوجود ذلك الداء الناعم المخادع الذي يستل الحياة رويداً رويداً من صدور كثير من أجمل الناس وأرقّهم. لقد لاحظت ذلك السعال الجاف وذلك الإشراق غير الطبيعي في الخدين. فكانت تحدث سانت كلار حديث إيفا وتبثّه قلقها على صحتها وخوفها من أن تكون بها علّة صدرية، فينتهرها بقوله:

ـ «لا تكثري من النعيب. إني أكرهه. ألا ترين أن إيفا آخذة في النمو السريع؟ إن الأطفال يَفقدون عافيتهم حين ينمون نمواً سريعاً.»

ـ «ولكنها تُعاني من ذلك السعال؟»

ـ «أوه، هذا هراء. إن ذلك السعال ليس بشيء. لعلها مصابة بزكام بسيط...»

هكذا كان سانت كلار يتكلم، ولكن القلق لم يعفه لحظة واحدة، منذ اليوم. صار يراقب إيفا مراقبة محمومة ويرصد صحتها لحظةً لحظةً، وصار يلازمها أكثر مما كان يفعل من قبل، ويصحبها معه في النزهات، ويحمل إليها بين الفينة والفينة بعض الوصفات الطبية أو المخاليط المقوية لا بسبب من أن الطفلة تحتاج إليها، كما كان يقول، بل لأنها إذا لم تنفع فلن تضر ابنته شيئاً.

وكان الشيء الذي كان يوقع في قلبه غصة أعمق هو ذلك النضج

المطرد، يوماً بعد يوم، في عقل الفتاة وأحاسيسها. كانت كثيراً ما تندّ منها، على غير وعي كلمات بعيدة المغزى، وحكمة علوية غريبة أشبه ما تكون بالوحي. وكان سانت كلار يستشعر في تلك اللحظات رعشة مفاجئة فيشدها إلى صدره، وكأن في استطاعة هذه الشدة العطوف أن تنقذها، ويخفق قلبه في عزم وطيد على الاحتفاظ بها والحيلولة بينها وبين الإفلات من بين يديه.

ومنذ ذلك الحين وقلبُ الطفلة الحلوة ونفسها مستغرقان في السعي إلى الخير وفعله. كانت عمرَها كله كريمة كبيرة الفؤاد، ولكن مسحة مؤثرة من الأنوثة الواعية غدت تميّز موقفها الآن. إنها لا تزال تحب اللعب مع توبسي وسائر الأطفال الملوّني البشرة، ولكنها انتهت إلى أن تؤثر في الفترة الأخيرة أن تنظر إليهم يلعبون من غير أن تشركهم في لعبهم ذاك. كانت تؤثر أن تجلس نصف ساعة بطولها تضحك لحيل توبسي العجيبة، ليمر بوجهها بعد ـ فيما يبدو ـ طيف غريب، فتدمع عيناها، وتذهب أفكارها بعيداً بعيداً...

وذات يوم قالت لأمها، فجأةً:

ـ «ماما، لماذا لا نعلِّم خدمنا القراءة؟»

ـ «سؤال غريب حقاً. إن الناس لم يتعودوا ذلك.»

فقالت إيفا:

ـ «ولكنهم يجب أن يقرأوا الكتاب المقدس ليفهموا إرادة اللَّه!»

فأجابتها أمها في شيء من الضيق:

ـ «أوه، في استطاعتهم أن يسمعوا إلى آيات الكتاب تتلى عليهم عند الحاجة.»

ـ «ولكن يبدو لي، يا ماما، أن الكتاب المقدس ينبغي أن يقرأه كل امرئ لنفسه.»

فقالت أمها:

ـ «إيفا! أنتِ طفلة غريبة حقاً!»

وأردفت إيفا:

ـ «لقد علّمت الآنسة أوفيليا، توبسي القراءة...»

ـ «نعم، وأنتِ ترين إلى أي حد نفعها هذا التعليم! إن توبسي هي أسوأ مخلوق عرفته في حياتي!»

واستمرت إيفا:

ـ «خذي مامي المسكينة مثلاً. إنها تحب الكتاب المقدس كثيراً، وتتمنى لو تستطيع أن تقرأ فيه! ماذا تفعل مامي عندما لا أستطيع أن أقرأ لها؟»

ـ «حسناً يا إيفا. إنكِ لا بدَّ أن تقلعي عن هذه الأفكار يوماً. غداً تشغلكِ الحياة بما فيها من حفلات زاهية وملابس أنيقة عن كل هذا. والآن انظري إلى هذه الجواهر. إني سأعطيك إياها لتلبسيها في الحفلات العامة. لقد لبستها في أول حفلة راقصة شهدتها، وأستطيع أن أقول لكِ، يا إيفا، إنها جعلتني قبلة الأنظار طوال الحفلة!»

وتناولت إيفا علبة الجواهر وأخرجت منها عقداً ماسياً. لقد علقت عيناها الواسعتان الذكيتان بالعقد، ولكن كان واضحاً أن أفكارها كانت مستغرقة في موضوع آخر.

وقالت ماري:

ـ «كم تبدين رزينة يا إيفا!»

وتساءلت إيفا:

ـ «هل يساوي هذا العقد مالاً كثيراً؟»

ـ «من غير شك. لقد طلبه والدكِ لي من فرنسا. وإنه ليساوي ثروة صغيرة.»

ـ «ليتني أملك هذا العقد!»

ـ «ماذا كنتِ تعملين به؟»

ـ «كنتُ أبيعه، وأشتري بثمنه بيتاً في إحدى الولايات الحرة وأنقل جميع خدمنا إلى هناك، وأستأجر لهم معلمين ليعلموهم كيف يقرأون ويكتبون.»

وضحكت الأم حتى استلقت...

ـ 16 ـ

هانريك

في هذه الأثناء قدم ألفرد، أخو سانت كلار، يصحبه نجله الأكبر، هانريك، ليقضيا يوماً أو يومين مع الأسرة، على ضفاف البحيرة.

كان هانريك في الثانية عشرة من عمره. أسود العينين تبدو على وجهه سيماء النبالة والترف، ويفيض حيوية ونشاطاً، فلم يكد يرى ابنة عمه إيفا حتى فتنته رقتها المتناهية.

وكان لإيفا مهر صغير أبيض اللون كالثلج، رقيق كسيّدته. وإذ اعتزم هانريك وإيفا أن يقوما بنزهة قصيرة فقد اقتاد توم مهر إيفا إلى الشرفة الخلفية، بينما اقتاد فتى خلاسي في نحو الثالثة عشرة من سنيّه مهراً عربياً أسود اللون اشتراه ألفرد مؤخراً، وبثمن باهظ، لابنه هانريك.

وحين تقدم هانريك إلى مهره الصغير ليمسك بزمامه، ألقى نظرة فاحصة عليه واكفهر وجهه:

ـ «ما هذا أيها الكلب الصغير الكسول؟ أنت لم تنظف مهري صباح اليوم!»

فقال دودو:

ـ «بلى يا مولاي. ولكنه غبّر نفسه بنفسه.»

فصاح هانريك رافعاً سوطه:

ـ «اخرس! كيف تجرؤ على الكلام؟»

ـ «سيدي هانريك. . .»

وجلده هانريك على وجهه بالسوط، ثم أمسك بإحدى ذراعيه وأكرهه على الركوع على ركبتيه وشرع يضربه حتى تقطعت أنفاسه.

ـ «الآن تتعلم أن لا تجيب عندما أكلمك، أيها الكلب الوقح! أرجع المُهر إلى الاسطبل ونظفه جيداً. سوف أريك مكانتك!»

وحاول توم أن يبرر مسلك الغلام فصرخ هانريك في وجهه:

ـ «وأنت أمسِكْ لسانك حتى تدعى إلى الكلام.»

ثم تقدم إلى إيفا، وكانت تقف غير بعيدة، وقال:

ـ «آسف يا ابنة عمي العزيزة أن يكون هذا الفتى الأبله قد أخَّركِ هذا التأخير كله. فلنجلس ههنا، على هذا المقعد، حتى يعود. . . ولكن، ما بالكِ يا إيفا؟ إنك كئيبة في ما يبدو!»

ـ «كيف تستطيع أن تقسو على دودو هذه القسوة الوحشية؟»

ـ «قسوة وحشية؟ ماذا تعنين، يا إيفا العزيزة؟»

ـ «لست أرضى أن تدعوني إيفا العزيزة، حين تفعل مثل هذه الأعمال المنكرة.»

فقال هانريك:

ـ «يبدو لي أنكِ معنية جداً بدودو هذا. إني أكاد أحسده على هذا الاهتمام. . .»

ـ «ولكنك ضربته، ولم يكن ليستحق الضرب. . .»

ـ «حسناً، أعدكِ بأن لا أضربه أمامكِ بعد اليوم، إذا كان في ضربه إزعاج لكِ.»

ولم تقتنع إيفا بهذا الكلام، ولكنها رأت من العبث الذي لا

طائل تحته أن تحمل ابن عمها الجميل على فهم مشاعرها وأحاسيسها.

وما هي إلاّ فترة حتى أقبل دودو ومعه المُهر.

فقال هانريك في لهجة أكثر رفقاً:

ـ «حسناً، دودو، لقد أحسنتَ صُنعاً هذه المرة. تعال الآن، وامسك حصان الآنسة إيفا ريثما أرفعها إلى متنه...»

* * *

وكان سانت كلار وأخوه ألفرد قد شهدا حادث جلد «دودو» بالسوط من ناحية أخرى من الحديقة.

قال سانت كلار:

ـ «أحسب أن هذا هو ما ندعوه بالتربية الجمهورية، يا ألفرد، التي تنادي بأن جميع الناس وُلدوا أحراراً ومتساوين...»

ـ «تلك إحدى أفكار توم جيفرسون المضحكة. ومن عجبٍ أنها لا تزال تلقى رواجاً بيننا حتى اليوم...»

فقال سانت كلار في شيء من السخرية:

ـ «أعتقد ذلك...»

ـ «لأنك ترى يا أوغسطين في كثير من الوضوح أن جميع الناس لم يُولدوا أحراراً، ولم يُولدوا متساوين. وعندي أن نصف هذا الكلام الجمهوري هراء محض، وأن المثقفين، والأذكياء، والأغنياء والذين صقلتهم يد الحضارة هم الذين ينبغي أن يتمتعوا بحقوق متكافئة، لا السوقة والرعاع...»

ـ «ولكن السوقة والرعاع كان لهم يومهم المشهود في فرنسا...»

ـ «أنا لست أخشى ثورة السوقة والرعاع عندنا... إن يدهم ستظل هي السفلى.»

فقال سانت كلار:

ـ «هذا صحيح، ولكن البخار سينفجر إذا ما أحكمتَ سدّ كل منفذ له، وتركته في حال من الغليان.»

ـ «هذه إحدى سخافاتك الجمهورية الحمراء، يا أوغسطين. والذي يبدو لي أنك خطيب جماهيري ممتاز فلماذا لا تجرب نفسك في هذا الميدان؟.. أما أنا فأوثر أن أموت قبل أن يأتي ذلك العهد السعيد الذي تنتهي فيه مقاليد السلطة إلى جماهيرك القذرة...»

ـ «قذرة أو غير قذرة. إنها سوف تحكمكم عندما يأتي زمانها. ولسوف تكون في حكمها لكم على الصورة التي تريدونها لها. إن النبلاء الفرنسيين اختاروا أن يجعلوا من شعبهم أناساً «بلا سراويل» «Sans culottes» فكان أن حكمهم حكام من أبناء هذه الطبقة بالذات...»

وهنا بدت إيفا وهانريك على فرسيهما من بعيد، فقطع سانت كلار حديثه ونهض قائلاً:

ـ «انظر يا ألفرد! هل رأيت قط مشهداً أجمل من هذا؟...»

كان مشهداً جميلاً حقاً. كان هانريك بجبينه الجسور وشعره الفاحم الناعم، ووجنتيه المتقدتين، يضحك في جذل وبهجة منعطفاً نحو ابنة عمه الجميلة، وهما يتقدمان إلى الحديقة. وكانت إيفا تلبس ثوباً فروسياً أزرق وتعتمر قبعة من اللون نفسه. وكان النشاط الخارجي قد صبغ خديها بصبغة وهاجة وزاد في سمو الأثر الذي تتركه بشرتها الشفافة الفريدة وشعرها الذهبي في نفس الناظر المتوسّم.

فصاح ألفرد:

ـ «يا للسماء! ما هذا الجمال الذي يخلب ويُذهل! ناشدتك اللّه يا أوغست، ألا ترى معي أنها سوف ترمي بعض القلوب في يوم من الأيام!؟...»

ـ «أخشى أن يكون هذا صحيحاً...»

قال سانت كلار ذلك في نبرة تشوبها مرارة مفاجئة، ثم أسرع ليساعد ابنته على الترجل.

وقال وهو يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره:

ـ «إيفا، عزيزتي، أنتِ لستِ تعبة جداً؟...»

فأجابت الفتاة:

ـ «لا يا بابا.»

ولكن لهاثها الموصول أقلق بال والدها.

ـ «ولكن لماذا تركتِ المهر يعدو بكِ في هذه السرعة كلها يا عزيزتي؟ أنتِ تعلمين أن ذلك ضارّ بصحتكِ.»

ـ «لقد شعرت بنشاط يا بابا، وكنت سعيدة جداً. لقد نسيت.»

وحمل سانت كلار ابنته إلى المنزل ومددها على إحدى الأرائك. ثم إنه التفت إلى هانريك وقال:

ـ «هانريك! ينبغي أن تنتبه لإيفا جيداً، وأن لا تحمل فرسك على السرعة حين تكون في رفقتك.»

فقال هانريك:

ـ «سوف أتعهدها بعنايتي.»

وجلس على الأريكة وأمسك بيده يد إيفا.

وما هي إلا فترة حتى عاود إيفا النشاط، فاستأنف أبوها وعمها نزهتهما، وتُرك الولدان الجميلان جنباً إلى جنب...

ـ 17 ـ

الأيام الأخيرة

بعد يومين اثنين ودَّع ألفرد أخاه أوغسطين، وتقهقرت صحة إيفا، التي أغرتها رفقة ابن عمها الفتى بأن تبذل نشاطاً لا قِبَل لها به، تقهقراً سريعاً. فعزم سانت كلار أخيراً على استشارة الطبيب، وهو شيء كان يؤثر اجتنابه دائماً لما ينطوي عليه من اعتراف بحقيقة غير سارة.

ولم تلحظ ماري هذا التقهقر الذي أصاب صحة ابنتها لانشغالها أبداً بصحتها هي. وقد حاولت الآنسة أوفيليا أن توقظ مخاوفها الأمومية، ولكن عبثاً.

كانت تقول دائماً:

ـ «أنا لا أرى أن الفتاة تشكو ألماً ما. إنها تعدو وتلعب.»

فتجيبها الآنسة أوفيليا:

ـ «ولكنها تسعل!»

ـ «تسعل! لقد كنت أنا مصابةً بالسعال طوال أيام حياتي. وعندما كنتُ في سن إيفا خافوا عليّ الهلاك. فكانت مامي تسهر إلى جانبي الليل بطوله. أوه، إن سعال إيفا ليس بشيء.

ـ «ولكنها آخذة في الهزال، وأنفاسها تتقاصر...»

ـ «لا خوفَ عليها. فقد عرفتُ ذلك سنوات وسنوات.»

- «ولكنها تنضح عرقاً، أثناء الليل.»
- «حسناً، لقد تنضح جسمي عرقاً طوال هذه السنوات العشر. وكثيراً ما كنت أنهض من فراشي، وثيابي تقطر عرقاً... لا، ليس العرق الذي يخرج من جسم إيفا شيئاً بالقياس إلى ذاك الذي كان يخرج من جسمي...»

وكانت الآنسة أوفيليا تضطر في كل مرة إلى الاعتصام بالصمت. أما الآن وقد بدا واضحاً أن صحة إيفا في تدهور مستمر، واستدعي الطبيب لفحصها، فقد اتخذت ماري، فجأةً، موقفاً آخر مختلفاً بالكلية.

قالت ذات يوم:

- «لقد كنت أعرف ذلك. كنت دائماً أشعر أن الأيام قدّرت عليّ أن أكون أتعس الأمهات. وها أنا ذا، بصحتي الخربة، أتطلع فأرى طفلتي الحبيبة الوحيدة تسير بخطى واسعة إلى القبر، أمام عينيَّ الاثنتين!»

فقال سانت كلار:

- «عزيزتي ماري، لا تتكلمي هكذا! يجب أن لا تقطعي الرجاء على هذا النحو.»
- «أنت لا تحس إحساس الأم يا سانت كلار! أنت لن تفهمني في يوم من الأيام...»
- «ولكن لا تتكلمي هكذا وكأننا أمام حالة يائسة!»
- «أنا لا أستطيع أن أنظر إلى الأمر نظرة لامبالاة كما تستطيع أنت، يا سانت كلار! وإذا كنت لا تحسّ بشيء حين تكون طفلتك الوحيدة في هذه الحال الفاجعة فأني أحس بأشياء. إنها ضربة لا يمكنني احتمالها تُضاف إلى جميع ما احتملت حتى اليوم من ضربات.»

وبعد أسبوع أو أسبوعين تحسنت صحة إيفا تحسناً كبيراً: سكونٌ خادع أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، ومظهر كاذب كثيراً ما يصطنعه ذلك الداء العنيد وسيلةً إلى إلهاء القلوب الجازعة، حتى في الساعات الأخيرة قبيل قرع المريض باب القبر. وهكذا رجع طيف إيفا الرقيق يرف في الحديقة وعلى الشرفات، وعادت إلى لعبها وضحكها، فاستبشر والدها بذلك وقرّت عينه، واستبشر به جميع من كان يظلهم سقف الدارة الجميلة. ولكن الآنسة أوفيليا والطبيب كانا وحدهما اللذين لم ينخدعا بهذه الهدنة الوهمية. بل كان ثمة قلبٌ آخر لم يكن إلى خداعه من سبيلٍ، هو قلب إيفا الصغير. فقد استقر في هذا القلب إيمانٌ نبوئي بأن الجنة أمست قريبة. فإذا هو هادئ كأشعة المغيب، لطيف كسكون الخريف، لا يعكر صفوه إلا التفكير في أولئك الذين يحبونه حباً جماً.

أجل لقد كانت إيفا حزينة لفراق أبيها وأمها وخدمها الأوفياء. قالت مرة لتوم، وهي تتلو عليه بعض آيات الكتاب المقدس:

ـ «الآن فهمت لماذا أراد يسوع أن يموت من أجلنا.»

ـ «كيف يا آنسة إيفا؟»

ـ «لأنني شعرت بالشعور نفسه أيضاً.»

فتساءل العجوز:

ـ «ماذا تقولين، يا آنسة إيفا؟ لست أفهم.»

ـ «لا أستطيع أن أخبرك. ولكن عندما رأيت تلك المخلوقات البائسة على ظهر السفينة، كما تذكر، وقد فُصل بعضهم عن أمهاتهم، وفصل بعضهم عن أزواجهم، وبكت بعض الأمهات على أطفالهن الصغار ـ وعندما سمعت خبر المسكينة برو ومآسي كثيرة مشابهة، شعرت بأني خليقة بأن أكون سعيدة بأن أموت إذا كان في موتي ما

يساعد على وقف هذا الشقاء كله...»

وتطلع توم إلى وجه الطفلة في ذعر. حتى إذا انطلقت تلبيةً لنداء أبيها، مسحَ عينيه غير مرة، فيما كان يُتبعها نظراته الشاردة.

ارتقت إيفا درجات الشرفة لتمثل بين يدي والدها. كان ذلك في ساعة من ساعات الأصيل المتأخرة، وكانت أشعة الشمس تضفر إكليلاً من المجد خلفها، فيما كانت ترتقي الدرج بردائها الأبيض وشعرها الذهبي، وخديها المتوهجين، وقد برقت عيناها بريقاً غير عادي بسبب من الحمى البطيئة المشتعلة في عروقها.

لقد استدعى سانت كلار ابنته ليريها تمثالاً صغيراً كان قد اشتراه لها، ولكن مشهدها وهي تتقدم نحوه أثار في نفسه، فجاءة، ألماً دفيناً. إن هناك ضرباً من الجمال، هو من القوة ـ وإن يكن هشّاً يُخشى عليه التقصّف ـ بحيث لا تقوى على النظر إليه، فطوقها أبوها، فجأة، بذراعيه، وكاد ينسى الغرض الذي استدعاه من أجله.

ـ «إيفا عزيزتي، أنتِ أحسن حالاً، اليوم، ألستِ كذلك؟»

فقالت إيفا، في عزم طارئ:

ـ «بابا، إن لدي أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك قبل أن يزداد ضعفي.»

وارتعد سانت كلار عندما رأى ابنته تجلس في حضنه. ثم إنها أسندت رأسها إلى صدره وقالت:

ـ «لا فائدة، بعد اليوم، يا بابا، من كتمان الحقيقة. لقد اقترب الموعد الذي سأودعكم فيه. إني ذاهبة ولن أعود من جديد!»

وأجهشت للبكاء.

فقال سانت كلار وهو يرتجف ولكنه يصطنع البشر:

ـ «لا، لا، يا عزيزتي إيفا. هدئي أعصابكِ، ولا تسمحي لمثل

هذه الأفكار السوداء أن تستحوذ عليك. انظري! لقد اشتريت لكِ تمثالاً صغيراً.»

ـ «لا يا بابا»، وتناولت التمثال ووضعته جانباً، «لا تخدع نفسك! ـ لا تخدع نفسك! ـ إن حالي ليست خيراً مما كانت. أنا أعرف ذلك جيداً، ـ ولسوف أذهب في وقت قريب، ـ إني لست عصبية ولست جزعة من شيء. ولولاك يا بابا، ولولا أصدقائي جميعاً، لكنت في غاية السعادة. أريد أن أذهب، ـ أنا مشتاقة إلى أن أذهب!»

ـ «أنت حزينة الفؤاد يا إيفا. وإن مشهدكِ على هذا الوضع ليوقع في قلبي الرعب. هل يحزنكِ شيء مخصوص يا إيفا؟»

ـ «أوه، هذه الأشياء التي تُعمل كل يوم. إني أتألم لهؤلاء البائسين الذين يحبونني كل هذا الحب والذين يبالغون في الاحتفال بي والإحسان إليّ. كم أتمنى، يا بابا، لو أراهم كلهم أحراراً...

ـ «ولكن ألا تظنين يا إيفا أنهم يعاملون هنا أحسن معاملة؟»

ـ «صحيح يا بابا. ولكن إذا حدث لك شيء لا سمح اللّه، فما يكون مصيرهم؟ إن الرجال الطيبين مثلك قلة قليلة، يا بابا. عمي ألفرد ليس مثلك. وماما أيضاً ليست مثلك. ثم، فكِّر قليلاً في أولئك الذين كانوا يمتلكون برو المسكينة! ما أفظع الآثام التي يرتكبها الناس والتي يستطيعون ارتكابها!»

قالت إيفا ذلك، وارتعشت أوصالها.

ـ «أنتِ حساسة أكثر مما يجب يا طفلتي العزيزة. وأنا آسف لسماحي لكِ بالاستماع إلى هذه القصص المثيرة.»

ـ «أوه، هذا ما يزعجني حقاً، يا بابا. أنت تريدني أن أعيش سعيدة، وأن لا أحس بألم ما، بل لا أسمع قصة محزنة، في حين

ليس لدى الآخرين من البائسين غير الآلام والهموم يتجرعونها طوال حياتهم. تلك هي الأنانية عينها. يجب أن أعرف أمثال هذه الأشياء وأن أحسها. إن هذه المظالم لتمس حبة قلبي، وكثيراً ما فكَّرت فيها ملياً. بابا، أليس ثمة طريقة لتحرير هؤلاء العبيد كلهم؟»

ـ «هذه مسألة عسيرة يا حبيبتي. وليس من شك في أن هذه الطريقة هي طريقة سيئة جداً. إن كثيراً من الناس يؤمنون بهذا. وأنا من هؤلاء الناس. إنني أتمنى من صميم قلبي أن لا يكون على أرضنا عبد واحد. ولكنني لا أدري ما الذي ينبغي أن يُعمل في هذه المسألة!»

ـ «بابا، أنت رجل طيب، ونبيل، وكريم النفس، أفلا تستطيع أن تطوف بالبلاد وتحاول إقناع الناس برفع الظلم عن أولئك البائسين؟ عندما أموت أنا، يا بابا، فعندئذ لا بدَّ أن تفكِّر فيَّ، وأن تقوم بهذا العمل من أجلي. لقد كنت جديرةً بأن أقوم به بنفسي، لو أني أستطيع...»

فقال سانت كلار، في صوت متهدج باكٍ:

ـ «عندما تموتين يا إيفا! أوه، أيتها الطفلة، لا تتكلمي هكذا! أنت كل ما أملك في هذا الكون.»

ـ «لقد كان طفل برو المسكينة هو كل ما تملك أيضاً، ومع ذلك فقد تعيَّن عليها أن تسمعه يبكي وينتحب من غير أن تقدر على صنع شيء! بابا، إن هؤلاء البائسين يحبون أولادهم بقدر ما تحبني أنت. إصنع شيئاً من أجلهم! ومامي المسكينة تحب أولادها. لقد رأيتها تجهش للبكاء حين تتحدث عنهم. وكذلك يحب توم أولاده. ومن الفظيع، يا بابا، أن تقع هذه الأشياء تحت سمعنا وبصرنا ثم لا نحرك ساكناً.»

ـ «كفى، كفى، يا حبيبتي. عديني بأن لا تزعجي روحكِ ولا تتحدثي عن الموت وسأعمل من أجلكِ ما ترغبين فيه.»

ـ «عِدْني، يا بابا، بأن توم سوف يتمتع بحريته حالما...»

قالت ذلك ثم سكتت لحظة، لتردف بعدُ في نبرة مترددة:

ـ «... أكون أنا قد ذهبت!»

ـ «أجل، يا عزيزتي، سوف أعمل كل شيء، كل شيء تطلبين إليَّ أن أعمله!»

وهنا وضعت الطفلة خدها الملتهب على خده وقالت:

ـ «بابا، حبيبي، شدّ ما أتمنى لو نذهب كلانا معاً!»

فسألها سانت كلار:

ـ «إلى أين يا عزيزتي؟»

ـ «إلى حيث يقيم مخلّصنا. إنه لموطنٌ جميل آمن. ألا تريد أن تذهب إلى هناك يا بابا؟»

وشدها سانت كلار إلى صدره ولكنه ظل صامتاً.

فقالت الطفلة في لهجة من الثقة الهادئة التي كانت تصطنعها لاشعورياً في كثير من الأحيان:

ـ «سوف تأتي إليّ يا بابا...»

ـ «سوف ألحق بكِ يا بابا، ولن أنساكِ!»

ـ 18 ـ

الموت

كانت أمارات الصحة الخادعة التي بدت على وجه إيفا في الأيام الأخيرة قد آذنت بالمغيب. إن وقع قدميها اللطيف لم يعد يُسمع إلا نادراً على الشرفة، وإنها لتقضي وقتها مستلقية على أريكة صغيرة قرب النافذة المفتوحة، وقد سُمِّرت عيناها الواسعتان العميقتان على مياه البحيرة المائجة.

وفي ذات يوم قالت إيفا لأمها:

ـ «ماما، أريد أن أقص بعض الخصل من شعري!»

فسألتها ماري:

ـ «ولِمَ ذلك؟»

ـ «ماما، أريد أن أعطي أجزاء منه لأصدقائي ما دمت قادرة على أن أعطيهم إياها بنفسي. هل لكِ أن تنادي عمتي لتقصه لي؟»

ورفعت ماري صوتها ونادت الآنسة أوفيليا من الغرفة الأخرى. ولم تكد أوفيليا تدخل الغرفة حتى نهضت إيفا نصف نهضة، ونفضت عناقيد شعرها الذهبي الطويل وقالت في لهجة مازحة:

ـ «تعالي، يا عمتي، وجزّي صوف الكبش!»

فقال سانت كلار، وهو يدخل عليهن الغرفة حاملاً إلى إيفا بعض الفاكهة:

ـ «ما هذا؟»

فقالت إيفا:

ـ «بابا، لقد سألتُ عمتي أن تقص بعض شعري. إنه كثيف جداً وإنه لينفخ في رأسي حرارة شديدة. وفوق هذا فإني أريد أن أوزع أجزاء منه على أصدقائي.»

وتقدمت الآنسة أوفيليا وفي يدها المقص.

فقال الأب:

ـ «انتبهي! احذري أن تُفسدي جماله! قصي من داخل، لكي لا يظهر أثر القص. إن شعر إيفا هو موضع فخري واعتزازي.»

فقالت إيفا في صوت حزين:

ـ «أوه بابا!»

ـ «أجل، أريد أن يظل شعرك جميلاً لأني أعتزم أن أصحبك قريباً إلى مزارع عمكِ لكي تري ابن عمكِ هانريك...»

ـ «أنا لن أذهب إلى هناك يا بابا... إني ذاهبة إلى بلد أفضل. أوه، صدقني! ألا ترى يا بابا أني أزداد ضعفاً يوماً بعد يوم؟»

فقال الأب:

ـ «لماذا تصرين على ضرورة تصديقي مثل هذا الشيء الفظيع يا إيفا؟»

ـ «لأنه صحيح يا بابا. ولعلك إذا صدقته الآن تستطيع أن تنظر إليه بالعين التي أنظر بها أنا إليه.»

وأغلق سانت كلار شفتيه، ووقف جامداً كئيباً ينظر إلى العناقيد الطويلة الجميلة وهي تُفصل عن رأس الطفلة، وتوضع خصلةً بعد خصلة في حضنها. فكانت ترفع هذه الخصل وتتأملها ملياً ثم تلفها

حول أصابعها النحيلة، وتتطلع بين الفينة والفينة في لهفة بالغة إلى وجه أبيها.

وأخيراً أومأت إيفا بيدها إلى سانت كلار، فتقدم وجلس بجانبها.

- «بابا، إن قوتي تذوي يوماً بعد يوم. وأنا أعلم أني لا بدَّ ذاهبة. وهناك بضعة أشياء أريد أن أقولها وأعملها. إنك لا تريد أن أفوه بكلمة حول هذا الموضوع. ولكني مضطرة إلى ذلك الآن. إن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل. فرجائي إليك أن تسمح لي بالكلام الآن!»

- «أنا أسمح لكِ، يا ابنتي!»

قال سانت كلار ذلك وحجب عينيه بإحدى يديه، وتناول يد إيفا بالأخرى.

- «إذن أريد أن تدعو جميع من يظلهم سقف هذا البيت إلى هنا. عندي شيء يجب أن أقوله لهم.»

فقال سانت كلار في تجمل:

- «حسناً.»

ووجهت الآنسة أوفيليا رسولاً لإبلاغهم، وبعد لحظة كان الخدم جميعاً قد اجتمعوا في الغرفة.

واستلقت إيفا على وسائدها. كان شعرها يتدلى طليقاً حول وجهها، وكان خداها القرمزيان يتغايران تغايراً محزناً مع شدة بياض بشرتها، وهزال جسمها، وكانت عيناها الكبيرتان مسمّرتين في كل من في الغرفة.

واعترت الأرقاء هزةٌ مباغتةٌ. لقد حركَ وجه إيفا الملائكي، والخصل الطويلة المقصوصة إلى جانبها، ومشهد أبيها مشيحاً بوجهه،

وتنهدات أمها. . . لقد حرَّك ذلك كله مشاعر أولئك البائسين المتحدّرين من شعب شديد الحساسية، سريع الانفعال. فتطلع بعضهم في وجوه بعض وأطلقوا من صدورهم زفرات حرّى. وهزوا برؤوسهم السوداء. وساد الغرفة صوت عميق كصمت الجنازة.

وأخيراً قالت إيفا مخاطبة الجماعة، وقد حجب كثير من الإماء وجوههن بأكمامهنّ:

ـ «لقد بعثت في طلبكم جميعاً، يا أصدقائي الأعزاء، لأني أحبكم. إني أحبكم جميعاً، وعندي ما أريد أن أقوله لكم لكي تتذكروه دائماً. . . إني على وشك أن أفارقكم. ولن تنقضي بضعة أسابيع حتى تفتقدوني فلا تجدوني بينكم. . .»

وهنا قوطعت الطفلة بموجة من النحيب والتنهد والندب ضاع في عبابها صوتها الخافت الرقيق. فتمهلت لحظة ثم أردفت في لهجة وضعت حداً لنحيب الجميع قائلة:

ـ «إذا كنتم تحبونني حقاً فلا تقاطعوني. واسمعوا ما أقول. أريد أن أحدثكم عن نفوسكم. . . فأنا أخاف أن يكون كثير منكم مستهتراً لا يفكّر إلا في هذا العالم. من أجل ذلك أريد منكم أن تذكروا أن ثمة عالماً جميلاً، يقيم فيه يسوع. إني ذاهبة إلى هناك وفي استطاعتكم أنتم أن تذهبوا إليه أيضاً. إنه لكم بقدر ما هو لي. ولكن إذا أردتم أن تذهبوا إلى هناك فيجب أن لا تعيشوا حياة كسولاً مستهترة خلواً من التأمل والتفكير. يجب أن تذكروا أن في استطاعتكم جميعاً أن تصبحوا ملائكة، وأن تظلوا ملائكة إلى الأبد. . . وإذا أردتم أن تكونوا مسيحيين فإن يسوع يساعدكم. يجب أن تصلّوا له. يجب أن تقرأوا. . .»

وتمهلت الطفلة وتطلعت إليهم في إشفاق، ثم قالت:

ـ «آوه، يا أحبائي. ولكنكم لا تعرفون القراءة. مساكين أنتم!»

وخبأت وجهها في الوسادة وانتحبت، في حين أطلق أولئك الذين وجهت إليهم الخطاب، وكانوا راكعين على الأرض، زفرات مكبوتة كانت كافية لتنبيهها.

ـ «لا بأس!»

قالت ذلك ورفعت رأسها مرسلة ابتسامة مشرقة من خلال دموعها، ثم أضافت:

ـ «لقد صليت من أجلكم وأنا واثقة من أن يسوع يساعدكم، حتى ولو لم تستطيعوا القراءة. حاولوا جميعاً أن تعملوا أفضل ما تستطيعون عمله. صلّوا كل يوم. اسألوه أن يساعدكم. واستمعوا إلى التلاوة من الكتاب المقدس ما وجدتم سبيلاً إلى ذلك. وأعتقد أني سوف أراكم جميعاً في السماء.»

وقال توم ومامي وغيرهما من المتقدمين في السن: «آمين» في حين استرسل نفر من العبيد الصغار في الانتحاب وقد خفضوا رؤوسهم فوق ركبهم.

وقالت إيفا:

ـ «أنا أعرف أنكم جميعاً تحبونني.»

فأجاب الكل إجابة رجل واحد:

ـ «أجل، أجل. إننا نحبك!»

ـ «أنا أعرف ذلك جيداً. وإني أود أن أعطيكم شيئاً إذا نظرتم إليه تذكرتموني دائماً. سوف أعطي كلاً منكم خصلة من شعري، فإذا ما نظرتم إليها في المستقبل فاذكروا أني أحببتكم، وأني ذهبت إلى السماء، وأني أحب أن أراكم جميعاً هناك.»

وتجمعوا كلهم، والدموع تفيض من أعينهم والزفرات تنطلق من

صدورهم، حول الفتاة الصغيرة، وأخذوا يتناولون من يديها ما بدا لهم وكأنه آخر أثر من آثار حبها. لقد ركعوا على الأرض، وانتحبوا، وصلّوا، وقبّلوا ذيل ردائها. في حين أرسل الكبار منهم كلمات التفدية والولاء ممزوجة بالصلوات والأدعية، على طريقة أبناء جلدتهم العاطفية الفياضة الشعور.

وكانت الآنسة أوفيليا تشهد هذا كله غير جاهلة أثره السيئ في صحة الفتاة الذابلة. فكانت كلما تلقّى واحد من العبيد هديته من يد إيفا أوعزت إليه بمغادرة الغرفة في الحال.

وما هي إلا فترة حتى كان الأرقاء كلهم قد خرجوا ولم يبقَ منهم في الغرفة غير توم ومامي.

والتفتت إيفا إلى توم وقالت:

ـ «والآن، إليك أيها العم توم، هذه الخصلة الجميلة. آه، أنا سعيدة، أيها العم توم، بأن أفكر أني سوف أراك في السماء، وأن أرى مامي أيضاً ـ مامي العزيزة، الطيبة، الكريمة النفس.»

وألقت ذراعيها حول الأمة الوفية العجوز.

فقالت المرأة البائسة:

ـ «أوه، أيتها السيدة، لست أدري كيف أستطيع العيش من بعدك!»

وفي رفق دفعت الآنسة أوفيليا كلاً من مامي وتوم إلى خارج الغرفة، حاسبة أن المكان قد خلا من الخدم جميعاً. ولكنها لم تكد تنقلب على عقبيها حتى رأت توبسي واقفة هناك.

فصرخت في وجهها:

ـ «من أين نبعْتِ؟»»

فقالت توبسي:

ـ «كنت هنا. . .»

وكفكفت دموعها، ثم خاطبت إيفا قائلة:

ـ «أوه، آنسة إيفا، لقد كنت دائماً جارية شريرة، ولكن ألا تريدين أن تعطيني أنا واحدة أيضاً؟

ـ «طبعاً، يا توبسي، طبعاً! إني أحبكِ، أحبكِ لأنه لم يكن لكِ يوماً أيّ أب أو أم أو أصدقاء. أحبكِ لأنكِ فتاة فقيرة، مضطهدة. ولسوف أعطيكِ هذه الخصلة من شعري. وكلما نظرتِ إليها فكري أني أريد منكِ أن تكوني بنتاً طيبة!»

فقالت توبسي:

ـ «أوه، يا سيدتي، إني أحاول. ولكن من الصعب جداً أن يكون الإنسان طيباً. . .»

وخبأت توبسي عينيها بطرف ثوبها. وفيما كانت الآنسة أوفيليا تسوقها إلى خارج الغرفة أخفت الخصلة الثمينة في صدرها.

عندئذ أوصدت الآنسة أوفيليا باب الغرفة وهي تكفكف دموعاً غزيرة، وقد استبدّ بها الجزع على الطفلة بعد هذا الموقف المثير.

* * *

لم يبقَ من شك في أن النهاية أمست وشيكة، ولم يعد في وسع الأمل الأكثر ولوعاً وحدباً أن يتعامى عن رؤية الحقيقة الفاجعة.

وكان العم توم كثير التردد إلى غرفة إيفا. لقد كانت الطفلة تشكو قلقاً عصبياً، فهي تأنس إلى من يحملها بيديه وتجد عنده فرَجاً وارتياحاً. وكان توم يستشعر أعظم البهجة في أن يحمل هيكلها الصغير مستريحاً على وسادة، بين ذراعيه، ويذرع بها أرض الغرفة جيئة وذهاباً، حيناً، أو يخرج بها إلى الشرفة حيناً. حتى إذا ذهبت النسائم الندية من البحيرة مشى معها أحياناً تحت أشجار البرتقال في

الحديقة أو جلس إلى جانبها في بعض مجالسهما السابقة، وطفق ينشد لها تراتيلها المفضلة القديمة.

وكثيراً ما كان والدها يصنع الشيء نفسه أيضاً. ولكن بنيته كانت أكثر ضموراً، فكان إذا أخذ منه التعب مأخذه قالت له إيفا:

ـ «أوه، بابا، دع توم يحملني. مسكين توم. إن ذلك ليُدخل البهجة إلى قلبه. وأنت تعرف أن هذا كل ما يستطيع أن يفعله الآن. وهو يريد أن يفعل شيئاً من أجلي!»

فيجيبها أبوها قائلاً:

ـ «وكذلك أنا، يا إيفا!»

ـ «حسناً، يا بابا. إن في استطاعتك أن تصنع كل شيء من أجلي، وأنت كل شيء عندي. أنت تقرأ لي، ـ أنت تسهر معي في الليالي، ـ ولكن توم لا يقدر إلا على هذا الشيء الوحيد: على الإنشاد لي. ثم إني أعرف، أيضاً، أنه أقدر منك على حملي. إنه أكثر نشاطاً وقوة!»

وكانت إيفا تفضي إلى توم بما لا تريد أن تزعج أباها بالتحدث عنه، وتطلعه على تلك الإيحاءات والإشارات العجيبة التي تحس بها الروح، حين تأخذ خيوط الحياة في الانحلال، وقبل أن تفارق الطين إلى الأبد.

وكان توم قد تعوّد أن لا ينام، في الأيام الأخيرة، في غرفته، ليستلقي طوال الليل على الشرفة الخارجية وهو على أتم الاستعداد للنهوض عند أول دعوة تطرق أذنيه.

وفي ذات يوم قالت له الآنسة أوفيليا:

ـ «ما الذي يحملك، أيها العم توم، على أن تنام في أيما مكان، شأن الكلاب؟ لقد حسبتُ أنك إنسان نظامي، وأنك تحب النوم في الفراش على الطريقة المسيحية!»

فقال توم في صوت خفيض:

ـ «إني كذلك يا آنسة فيلي... إني كذلك. ولكن الآن...»

ـ «حسناً ماذا الآن؟»

ـ «يجب أن لا تتكلمي بصوت عال، لكي لا يسمع سيدي سانت كلار. ولكن، آنسة، فيلي أنتِ تعلمين أنه يجب أن يكون هناك من ينتظر العروس...»

ـ «ماذا تعني يا توم؟»

ـ «أنتِ تعرفين قول الكتاب المقدس: «وفي منتصف الليل أرسلت صيحة هوذا العروس مقبلٌ فاخرجن للقائه.» وهذا ما أتوقعه كل ليلة، يا آنسة فيلي. ويتعيَّن عليَّ أن أسمع النداء.»

ـ «ولكن ما الذي يجعلك تفكر هذا التفكير؟»

ـ «الآنسة إيفا. إنها تتحدث إليّ. إن اللّه يوجه رسوله بالروح. يجب أن أكون هناك، آنسة فيلي، حتى إذا ذهبت طفلتنا المباركة إلى ملكوت السماء وفتح لها الباب على مصراعيه كحلت عيني بذلك المشهد الجليل...»

فسألته الآنسة أوفيليا:

ـ «هل قالت لك الآنسة إيفا إنها شعرت بضعف غير عادي هذه الليلة؟»

ـ «لا، ولكنها قالت لي هذا الصباح أنها تقترب من الغابة أكثر فأكثر. إنهم هم الذين يخبرونها بذلك يا آنسة فيلي، إنهم الملائكة...»

والواقع أن هذا الحديث دار بين توم وأوفيليا في ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من مساء ذلك اليوم. وكانت إيفا مرحة على غير عادة، طوال الظهيرة، وكان صوتها طبيعياً جداً. وحين نظر إليها

أبوها، ذلك المساء، بدت في عينيه أحسن مما كانت في أي يوم مضى منذ أصيبت بالداء، فقبّلها وقال موجّهاً الخطاب إلى الآنسة أوفيليا:

ـ «نستطيع أن نبقيها معنا على كل حال. إن صحتها أحسن بكثير، من غير شك.»

ثم أوى إلى فراشه وبين جنبيه فؤادٌ لم ينطو صدره على أخف منه منذ أسابيع بكاملها.

ولكن ما إن انتصف الليل ـ في تلك الساعة الغريبة التي يرقّ فيها الحجاب ما بين الحاضر الهش والمستقبل الأبدي ـ حتى جاء الرسول.

وسُمع صوت في تلك الغرفة، صوت شخص يجري مسرعاً، بادئ الأمر. ولم يكن هذا الشخص غير الآنسة أوفيليا التي اعتزمت أن لا تغمض جفناً طوال الليل والتي كنت تتفقد المريضة في تلك الساعة المتأخرة. وفي مثل لمح البصر فتح الباب الخارجي واندفع توم إلى الغرفة.

ـ «اذهب إلى الطبيب يا توم. ولا تُضيع ثانية واحدة..»

قالت الآنسة أوفيليا ذلك ووثبت عبر الغرفة إلى حجرة سانت كلار.

وقالت:

ـ «سانت كلار، أرجو أن تحضر في الحال.»

ونهض سانت كلار لتوّه، وهرع إلى الغرفة، وانحنى فوق إيفا التي كانت نائمة ما تزال.

ما الذي رآه فجعل قلبه يقف ساكناً؟ لماذا لم تَدُرْ أيما كلمة بين الاثنين؟ إنك لن تعرف جواباً عن ذلك إذا لم يقدّر لك أن ترى تلك

الانطباعة عينها على وجه إنسان أثير لديك، تلك الانطباعة اليائسة، التي لا تُخْطَأ ولا توصف والتي تقول لك إن المخلوق الذي تحب لم يعد ملكك.

ووقفا إلى جانب الفتاة يحدقان النظر إليها، وكأن على رأسيهما الطير، حتى لقد بدت تكتكة الساعة في آذانهما صارخة جداً. وبعد لحظات معدودات رجع توم، يصحبه الطبيب. ولم يكد يدخل الغرفة، ويلقي نظرة واحدة على الطفلة، حتى وقف هو الآخر جامداً مطرق الرأس:

وفي صوت كالهمس قال للآنسة أوفيليا:

- «متى حدث هذا التغير؟»

- «حوالى منتصف الليل.»

وأيقظ مجيء الطبيب أمّ الطفلة، من نومها، فهرعت إلى ابنتها متسائلة:

- «أوغسطين! أوفيليا! ماذا حدث؟»

فقال سانت كلار في صوت مبحوح:

- «هس! إنها تُحتضر!»

وسمعت مامي هذه الكلمات، فسارعت إلى إيقاظ الخدم. وما هي إلا لحظة حتى أفاق أهل البيت كلهم، وأضيئت المصابيح واحتشدت الوجوه الجازعة في الشرفة، وتطلعت باكية من خلال الأبواب الزجاجية. ولكن سانت كلار لم يسمع شيئاً، ولم يرَ شيئاً. لقد رأى تلك الانطباعة على وجه النائمة الصغيرة ليس غير.

- «أوه، ليته كان في استطاعتها فقط أن تفيق وتتحدث مرة أخرى!»

قال ذلك وانحنى فوقها وهمس في أذنها:

- «إيفا، عزيزتي!»

وانفتحت عينا الطفلة الزرقاوان الواسعتان، وأشرقت على وجهها الذابل ابتسامة، وحاولت أن ترفع رأسها وتتكلم...

- «وهل تعرفينني يا إيفا؟

- «بابا، عزيزي!»

قالت الطفلة ذلك، وهي تبذل آخر ما تستطيعه من جهد، ومدت يديها تطوق بهما جيده. وفي لمح البصر ارتخت اليدان من جديد. فرفع سانت كلار رأسه، فإذا به يرى على وجهها آثار النزع الأخير...

وأشاح سانت كلار بوجهه في لوعة يائسة وقال متنهداً:

- «يا إلهي، إن هذا مريع!»

ثم ضغط بصورة لاشعورية على يد توم وقال:

- «أوه، توم، إن هذا المشهد ليقتلني!»

وأبقى توم يدي سيده بين يديه، وتطلّع والدمع يفيض على خديه الأسودين إلى حيث اعتاد أن يتطلع التماساً للعون والنجدة.

وقال سانت كلار:

- «ادعُ إلى ربك أن يعجل في إنها هذا البلاء. إنه يعصر قلبي عصراً!»

فصاح توم:

- «أوه! شكراً للّه لقد انتهى، لقد انتهى أيها السيد! انظر إليها.»

ألقت الطفلة رأسها على وسائدها، وراحت تلهث لهاث الخائر المكدود، وقد التفّت العينان الكبيرتان الصافيتان وجمدتا. آه، ماذا قالت تانك العينان اللتان تحدثتا كثيراً إلى السماء؟ قالتا لقد انقضت

الأرض وانقضى الألم الأرضي. ولكن إشراقة ذلك الوجه المنتصرة كانت من الروعة والجلال بحيث تكبت زفرات الأسى نفسها. فتحلقوا حولها في سكوت مبهور منقطع النفس.

وقال سانت كلار في تؤدة ورفق:

- «إيفا.»

ولكنها لم تسمع.

فقال والدها:

- «أوه، إيفا، أخبرينا ماذا ترين؟»

وطافت بوجهها ابتسامة مشرقة ماجدة وقالت في صوت واهن:

- «أوه. الحب، - البهجة، - السلام!»

ثم أرسلت زفرة، وانتقلت من الموت إلى الحياة!...

ـ 19 ـ

اللقاء القريب

غُيّب جدث الملاك الصغير في ثرى الحديقة وسط مناحة مزلزلة نضبت فيها الدموع وتقرحت العيون. وما هي إلا أيام حتى عادت أسرة سانت كلار أدراجها إلى المدينة. فقد كان سانت كلار الذي هدّه الغم تواقاً إلى مشهد جديد، راغباً في أن يغيّر مجرى أفكاره الكئيبة. وهكذا غادر القوم دارتهم الصيفية والحديقة، والضريح الصغير، ورجعوا إلى قصرهم الشتوي. وهناك في نيو أورليانز كان سانت كلار يذرع الشوارع في خفة، ويملأ تلك الهوة التي حفرت في قلبه بالحركة والنشاط والانتقال من مكان إلى مكان. وكان الناس الذين يرونه في الطريق أو يلقونه في المقهى لا يعرفون أنه فقد طفلته الوحيدة إلا من عصابة الحداد التي تطوق قبعته. فقد كان أبداً يبتسم، ويتحدث، ويقرأ الصحف ويستطلع وجوه السياسة، ويشارك في قضايا التجارة. ومن كان يظن أن هذا الابتسام الخارجي كله لم يكن غير قشرة جوفاء تخفي وراءها فؤاداً كليماً هو أشبه ما يكون بقبر مظلم موحش؟

قالت ماري ذات يوم للآنسة أوفيليا في لهجة شاكية:

ـ «السيد سانت كلار رجل غريب حقاً. كنت أظن أنه إذا ما كان يحب أحداً في الكون فذلك هو حبيبتنا الصغيرة إيفا. ولكن يبدو أنه

قد أخذ ينساها في سهولة ويسر. إني لا أستطيع أن أحمله على التحدث عنها مطلقاً. وأشهد أني كنت أعتقد أنه سيتكشف عن عاطفة أقوى وأصح!»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «المياه الساكنة تكون أعمق من غيرها، كما يقولون...»

ـ «أوه! أنا لا أؤمن بهذه السفاسف. إذا كان عند الناس عواطف فينبغي أن يظهروها. إنهم لا يستطيعون إخفاءها على كل حال.»

فقالت مامي:

ـ «ولكن، يا مولاتي، إن سيدي سانت كلار قد أمسى هزيلاً كالخيال. ويقولون إنه لا يأكل شيئاً. أنا أعرف أنه لم ينس سيدتي إيفا. لا، إن أحداً لا يستطيع أن ينساك أيتها المخلوقة الصغيرة المباركة!»

وجرت الدموع سخية على خديها.

ـ «حسناً. على كل حال إنه لم يُقم لي أي وزن. إنه لم يُسمعني كلمة تعزية واحدة، وكان عليه أن يدرك أن الأم تحسّ بلوعة الثكل أكثر مما يحس بها أيما رجل من الرجال.»

فقالت الآنسة أوفيليا في رصانة:

ـ «إن القلب يدرك ما يكابده من تباريح!»

ـ «ذلك ما أعتقده تماماً. أنا أعرف جيداً حقيقة ما أحس به. إن أحداً غيري لا يدرك ذلك. كانت إيفا عارفة بما يعتلج في فؤادي ولكنها قد ذهبت!»

قالت ماري ذلك وانطرحت على أريكتها وراحت تبكي وتنتحب.

* * *

كان أول ما عمله سانت كلار عقب عودته إلى نيو أورليانز شروعه في اتخاذ الخطوات القانونية اللازمة لتحرير توم. وفي الوقت نفسه أخذ الوالد الثاكل يلزم الرجل العجوز أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. فلم يكن ثمة في العالم الأوسع كله ما يذكّره بإيفا بقدر ما كان يذكره توم بها، فهو يصر على ضرورة بقائه إلى جانبه، وهو يشكي إليه بثّهُ وحزنه، ويجد متعة بالغة في أن يتلو عليه ما تيسر من الكتاب المقدس.

وقال سانت كلار لرفيقه بعد يوم من شروعه في اتخاذ الخطوات الشكلية لإعتاقه:

ـ «سوف أجعل منك رجلاً حراً، فرتّب حقيبتك واستعد للرحلة إلى كانتاكي.»

وأضاء وجه توم بنور الغبطة وهو يرفع يديه إلى السماء ويجأر بالحمد:

ـ «شكراً لك يا رب!»

نظر سانت كلار إلى البِشر يغمر وجهه فاكفهر جبينه بعض الشيء... لقد ساءه أن يكون توم راغباً هذه الرغبة كلها في فراقه...

وقال في لهجة جافة:

ـ «أنت لم تقض كثيراً من الأوقات التعسة هنا حتى تتعجل الذهاب على هذا النحو...»

ـ «لا، لا أيها السيد. ليس الذهاب هو الذي يفرح قلبي. إنما يفرح قلبي أنني سأصبح رجلاً حراً!»

ـ «ولكن ألا تظن يا توم أنك قد عشت عندنا حياة أفضل من حياة الحرية؟

فقال توم في عزم مكين:

ـ «لا، أيها السيد. لا!»

ـ «ألا تعتقد يا توم أنه ما كان يتسنى لك لو كنت حراً أن تجني من عملك ما يمكّنك من أن تشتري مثل هذه الملابس وتأكل مثل هذه المآكل التي نقدمها إليك هنا؟»

ـ «هذا صحيح يا مولاي. لقد كان مولاي كريماً جداً، وسخياً جداً. ولكن، يا سيدي، إني أفضل أن تكون ثيابي حقيرة، وبيتي حقيراً وكل ما عندي حقيراً، وأن تكون هذه الأشياء ملكي أنا على أن أتمتع بالأفضل من كل شيء إذا كان يملكه رجل غيري... أحسب أن هذا أمر طبيعي.. ومع ذلك فسأبقى إلى جانب مولاي ما دام يستشعر الهمّ والقلق، وما دام في حاجة إليّ.»

فقال سانت كلار، وهو يتطلع محزون الفؤاد إلى الحديقة:

ـ «ما دمت أستشعر الهمّ والقلق؟!... ولكن متى ينتهي همّي وقلقي؟»

فأجاب توم:

ـ «عندما يغدو سيدي سانت كلار مسيحياً!»

فابتسم سانت كلار نصف ابتسامة، وقال وهو يبتعد عن النافذة ويضع يده على كتف توم:

ـ «وهل تعتزم أن تبقى، فعلاً، حتى ينبلج فجر ذلك اليوم؟ آه يا توم، إني لأرأف بك من أن أبقيك حتى تلك الساعة. لا، يجب أن تذهب إلى زوجتك وأولادك وتحمل حبي إليهم جميعاً.»

* * *

منذ أن احتجب وجه إيفا عن مدارج الطفولة وملاعب الصبا والآنسة أوفيليا تحس في حياتها فراغاً لا سبيل إلى مثله. من أجل

ذلك انصرفت عنايتها انصرافاً شبه كلي إلى تعليم توبسي، تعليماً مبنياً على الكتاب المقدس في المحل الأول. والواقع أنها صارت تأنس إليها بعد جفوة، وتحدب عليها بعد جفاء، وترى فيها مخلوقة خالدة أرسلها الله إليها لتهديها صراط الخير والفضيلة. ولم تنقلب توبسي بين عشية وضحاها، إلى قديسة. ولكن حياة إيفا وموتها أحدثا تغيراً كبيراً في ذات نفسها. لقد زايلتها تلك اللامبالاة المتبلّدة التي عُرفت بها وحلّ محلها حساسية، وأمل، ورغبة، ونضال من أجل الخير ـ نضال متقطع غير موصول، ولكنه يتجدد دائماً في صدقٍ وإخلاص.

وقالت الآنسة أوفيليا، ذات يوم، لسانت كلار، وقد تجاذبا أطراف الحديث حول توبسي ومدى ما حققته من تقدم:

ـ «أحب أن أوجه إليك سؤالاً يا أوغسطين: لمن ستكون هذه الطفلة؟ لي أم لك؟

فأجاب سانت كلار مندهشاً:

ـ «وهل نسيتِ إني قدّمتها إليك؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «هذا صحيح. ولكنك لم تعطني إياها على نحو قانوني شرعي. أريد أن تكون هذه الطفلة لي من الوجهة القانونية.»

ـ «وما الذي يحدوكِ على هذا الطلب، يا أوفيليا؟»

ـ «أريد أن أصحبها في يوم ما إلى الولايات التي تحرّم الاسترقاق، وأن أمنحها حريتها، وأن أضمن ألا تذهب جهودي كلها في تثقيفها وتعليمها أدراج الرياح... ذلك أن محاولاتي لجعل توبسي طفلة مسيحية حقاً من غير جدوى إلا إذا أقصيت عنها شبح الاسترقاق الذي يتهدد في كل لحظة أولئك العبيد الذين شاء لهم حسن طالعهم أن يعيشوا مؤقتاً في كنف رجل كريم. من أجل ذلك

أراني مضطرة إلى أن أطلب إليك إعطائي صكاً شرعياً بتنازلك لي عن توبسي.»

ـ «حسناً، حسناً، سوف أفعل.»

قال سانت كلار ذلك وعاد يقرأ صحيفته.

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «أُريد أن أحصل على هذا الصك الآن!»

ـ «ولِمَ العجلة؟»

ـ «لأن الآن هو الوقت الوحيد الذي ينبغي أن نعمل فيه ما نرغب في عمله. والآن، دونك ورقة وريشة وحبراً، واكتب الصك.»

وطغت على وجه سانت كلار موجة من استياء. إنه شأن الكثرة الكاثرة من الرجال الذين يشبهونه في البنية العقلية، يكره العمل في الزمن الحاضر، ويؤثر الإرجاء والمماطلة.

وصمت لحظة ثم قال:

ـ «عجيب أمركِ! ألا تثقين بكلامي؟»

ـ «أُريد أن يطمئن قلبي. ومن يدري؟ فقد يخطفك الموت وقد تخلف الميعاد، وعندئذ تساق توبسي إلى سوق المزاد على مرأى مني ومسمع!»

وهنا تناول سانت كلار الريشة وكتب صيغة الهبة ووقّعها باسمه، ثم قال وهو يقدمها إلى ابنة عمه:

ـ «والآن، أليس هذا سواداً على بياض يا آنسة؟»

فابتسمت أوفيليا وقالت:

ـ «حقاً إنك لولدٌ طيب. ولكن ألا يحتاج هذا الصك إلى من يشهد على صحته؟»

ـ «أوه، طبعاً!»

وفتح الباب المؤدي إلى غرفة زوجته وقال:

ـ «ماري، إن ابنة عمي تطلب توقيعكِ. فاكتبي اسمكِ ههنا.»

وألقت مارى نظرة سريعة على الورقة وقالت:

ـ «ما هذا؟ شيء مضحك! لقد حسبت ابنة عمي أتقى من أن تقدم على هذه الأشياء المريعة.»

وأضافت وهي توقّع اسمها في أدنى الصك:

ـ «ولكن إذا كانت شديدة الرغبة في هذا الأمر فلن أتوانى عن التوقيع.»

وحين خرج سانت كلار إلى قاعة الاستقبال وفرغ لمطالعة صحيفته لحقت الآنسة أوفيليا به واتخذت مجلساً لها بجانبه ثم سألته، فجأةً، وهي تحرك أناملها بالحبك:

ـ «أوغسطين، هل فكرت في أن تضمن مستقبل أرقائك في حال وفاتك لا سمح الله؟»

فقال سانت كلار وهو يواصل قراءته:

ـ «لا.»

ـ «إذن فقد يؤدي إهمالك هذا إلى إنزال أفظع المظالم بهم.»

وكان سانت كلار كثيراً ما يفكر هو نفسه هذا التفكير، لكنه أجاب في لامبالاة:

ـ «حسناً، أعتزم أن أتخذ الإجراءات التي تقيهم شر هذا المصير.»

فتساءلت الآنسة أوفيليا:

ـ «متى؟»

ـ «أوه، في يوم من الأيام. . .»

ـ «وماذا إذا حضرك الموت قبل ذلك؟»

فطوى سانت كلار صحيفته وتطلع إلى ابنة عمه قائلاً:

ـ «ما بك اليوم يا أوفيليا؟ هل ترين على وجهي أعراض الحمى الصفراء أو الكوليرا حتى تتعجلي اتخاذ تلك الخطوات بمثل هذه الحماسة؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «إنما نخوض غمار الموت ونحن في غمرة الحياة. . .»

وهنا نهض سانت كلار وقصد الشرفة ليضع حداً لحديث لم يجده سائغاً. وفي صورة آلية ردد كلمة «الموت!»، وهو منحنٍ على الدرابزون يتأمل المياه المنبجسة وهي ترتفع وتسقط في البركة. . . وإذ رأى أزهار الفِناء وأشجاره وزهرياته، وكأنما غشيها ضباب رقيق، ردد من جديد تلك الكلمة المغلقة الشائعة على كل فم، والمخيفة برغم ذلك إلى أبعد الحدود: «الموت!» وقال في ذات نفسه: «عجيب أن يكون ثمة مثل هذه الكلمة ومثل هذا الشيء ثم ننساهما بالكلية. وأن يكون المرء حياً، دافئاً، وجميلاً، تعمر قلبه الآمال والرغبات والحاجات يوماً، ثم لا تشرق عليه شمس اليوم التالي حتى يكون قد فارق هذه الأرض إلى الأبد.»

كانت الأمسية دافئة ذهبية. وفيما كان يمضي إلى الطرف الآخر من الشرفة أبصر توم منكباً على كتابه المقدس مشيراً بإصبعه إلى الكلمات التي يقرأها، هامساً بها لنفسه في استغراق وخشوع.

ـ «أتريدني أن أقرأ لك، يا توم؟»

قال سانت كلار ذلك وجلس إلى جانب العبد العجوز.

ـ «إذا شاء مولاي. إن قراءة مولاي لتجعل الكلام أوضح.»

وتناول سانت كلار الكتاب. وألقى نظرة على الصفحة المفتوحة، وراح يتلو أحد المقاطع التي أحاطها توم بعلامات بارزة:

ـ «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده. وتجتمع أمامه الشعوب كافة، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء.»

وتابع سانت كلار التلاوة في صوت يفيض حياة، حتى وصل إلى آخر الآيات:

«ثم يقول للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية، لأني جُعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تؤووني، وعرياناً فلم تكسوني، ومريضاً وسجيناً فلم تعودوني ولم تزوروني. حينئذ يجيبونه قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشانَ أو غريباً أو عريانَ أو مريضاً أو سجيناً ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: لقد فعلتم ذلك بي لأنكم لم تفعلوه بأحد من إخوتي هؤلاء الأصاغر.»

وبدا سانت كلار مأخوذاً بهذا المقطع الأخير، فقد قرأه مرتين متواليتين، متمهلاً في القراءة الثانية وكأنما كان يردد الكلمات في ذهنه ثم قال:

ـ «توم، هؤلاء القوم الذين أنزل الله عليهم لعنته كانوا في ما يبدو يعملون ما أعمله أنا تماماً: كانوا يحيون حياة هينة مترفة ناعمة غير مكلّفين أنفسهم عناء السؤال عن إخوانهم الذين يقاسون مرارة الجوع أو الظمأ أو المرض أو السجن.»

ولم يحر توم جواباً. فنهض سانت كلار وراح يذرع الشرفة جيئة وذهاباً، غارقاً في خضم متلاطم من الأفكار، حتى لقد اضطر توم إلى تنبيهه مرتين إلى أن جرس الشاي قد قرع، قبل أن يثوب إلى وعيه.

كان سانت كلار موزع القلب شارد اللبّ ساعة الشاي بطولها.

وبعد الشاي قصد هو وماري والآنسة أوفيليا إلى حجرة الاستقبال حيث خيم عليهم صمت يكاد يكون كاملاً.

فأما ماري فقد استرخت على أريكة تظللها كلّة حريرية، واستسلمت للرقاد. وأما الآنسة أوفيليا فقد شغلت نفسها بالحبك، في حين جلس سانت كلار إلى البيانو وأخذ يداعبه بأصابعه في خفة ورشاقة، وفي تفكّر استغرق كيانه كله. وما هي إلا لحظة حتى فتح أحد الأدراج وتناول كتاباً موسيقياً عتيقاً صفّرت الأيام أوراقه وراح يقلب صفحاته، ثم قال للآنسة أوفيليا:

- «هو ذا واحد من كتب أُمي. وها هو خطها... تعالي وألقي نظرة عليه. لقد نسختْهُ ورتبتْهُ نقلاً عن قداس الموتى لموزارت.»

واقتربت أوفيليا وألقت نظرة على الكتاب...

وقال سانت كلار:

- «إنها قطعة تعوّدَت أن تغنيها كثيراً. وأحسب أن في ميسوري أن أسمعها الآن.»

وعزف لحناً فخماً وطفق ينشد تلك القطعة اللاتينية القديمة: «يوم القصاص».

وسأل سانت كلار الآنسة أوفيليا:

- «ما قولكِ في رجل دعاه قلبه، ودعته ثقافته، وحاجات مجتمعه إلى هدف نبيل ما، فأصمّ أذنيه دون النداء؟ رجل قضى دهره يشهد ضروب الآلام والمظالم المنزلة ببني الإنسان مشاهدة حيادية خالصة، في حين كان كل شيء يقتضيه عملاً إيجابياً فاعلاً؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

- «يخيل إليّ أن على هذا الرجل أن يتوب، وأن يفعل ذلك الآن.»

ـ «أنتِ دائماً مضبوطة وعملية! والذي يبدو لي أن عندكِ نوعاً من «الآن» التي لا تفنى والماثلة أبداً في ذهنك.»

ـ «ألا تعتقد معي أن خير البر عاجله؟»

فقال سانت كلار:

ـ «مسكينة إيفا الصغيرة! لقد أوصتني بأن أعمل من أجلها أشياء كثيرة!»

ـ «وما الذي تعتزم أن تصنعه؟»

ـ «سأعمل واجبي نحو الفقراء والمعذبين في الأرض حالما يتيسّر لي ذلك، مبتدئاً طبعاً بأرقائي الذين لم أعمل شيئاً من أجلهم حتى الآن. ولعلي أوفق في المستقبل إلى أن أعمل شيئاً لهذه الطبقة كلها، شيئاً يمحو هذا العار الذي يلطخ سمعة وطني في جميع البلدان المتمدنة.»

فتساءلت الآنسة أوفيليا:

ـ «هل تعتقد أن من الممكن أن تنهض الأمة، على نحو إرادي، بعبء تحرير الأرقاء؟»

فقال سانت كلار:

ـ «لست أدري. إن يومنا هذا يوم الأعمال المجيدة. وإن البطولة والتفاني في الخدمة العامة ليلهبان بشرارتهما المقدسة كل مكان على هذه الأرض. وأنت تذكرين أن النبلاء الهنغاريين حرروا ملايين الأقنان متحملين في ذلك خسارة ضخمة. ومن يدري، فقد يوجد بيننا بعض أصحاب النفوس الكريمة ممن لا يقيسون الشرف والعدل بالدولارات والسنتات.»

وصمت الاثنان لحظة. وعلت وجه سانت كلار انطباعة محزونة حالمة، وقال:

ـ «لست أدري ما الذي يجعلني أفكر في أمي تفكيراً كثيراً، هذا المساء. إني أحسّ إحساساً غريباً، وكأنما هي في قربي. إني لا أفتأ أفكر في أشياء كانت معتادة أن تقولها. غريب! ما الذي يعيد إلينا هذه الأشياء الماضية، حيةً قويةً، في بعض الأحيان؟»

وذرع سانت كلار الغرفة، بضع دقائق أخرى، ثم قال:

ـ «أرى من الخير أن أقصد إلى المدينة، هذا المساء، لأتسقط الأخبار ولن أغيب غير فترة قصيرة.»

وتناول قبعته، ومضى.

لحق به توم إلى خارج الفناء وسأله ما إذا كان يرغب في أن يصحبه، فقال سانت كلار:

ـ «لا يا بني، سوف أعود بعد ساعة.»

جلس توم على الشرفة. كانت أمسية قمراء جميلة، فراح يتأمل انبجاس المياه من وسط البركة ثم سقوطها في جوانبها، ويستمع إلى خريرها العذب. وفكّر توم في بيته القديم، وفي أنه سوف يغدو وشيكاً رجلاً حراً، فهو يستطيع أن يعود إلى أسرته ساعة يشاء. وفكر في العمل الجاهد الذي يتعيّن عليه الانصراف إليه ليجمع من المال ما يمكنه من شراء زوجته وأولاده. ولمس عضلات ذراعيه المفتولة في ضرب من الجذل فيما كان يفكر أن هذه العضلات سوف تصبح بعد قليل ملكه هو... وفكر في سيده النبيل، وفكر في إيفا الجميلة، وغلبه سلطان النوم، فنام لينهض على ضربات شديدة تقرع الباب، وعلى صيحات عالية تنطلق من ورائه.

وأسرع توم إلى الباب. وبأصوات مخنوقة وخطوات ثقيلة تقدم عدة رجال يحملون جسداً ملفوفاً بعباءة ومحمولاً على دفة نافذة. ووقع ضوء المصباح على الوجه فأرسل توم صيحة ذهول ويأس

ترددت أصداؤها في أرجاء المنزل كله، فيما كان الرجال يتقدمون بحملهم إلى حجرة الاستقبال حيث كانت الآنسة أوفيليا جالسة وما تزال تحبك.

كان سانت كلار قد قصد إلى أحد المقاهي يلتمس صحيفة مسائية. وفيما كان يتصفح الجريدة نشبت مشادة بين رجلين من رواد المقهى نصف مخمورين. فحاول سانت كلار واثنان آخران أن يفصلوا أحد المتخاصمين عن الآخر. فأصيب سانت كلار بطعنة خطيرة في جنبه بسكين كان يسعى إلى انتزاعها من أحدهما...

وضج المنزل بالصياح والعويل، والندب والنحيب. ومزق الأرقاء شعورهم، وألقوا بأنفسهم على الأرض أو ركضوا على غير هدى يعولون ويندبون. ولم يحتفظ بشيء من حضور الذهن غير توم والآنسة أوفيليا، ذلك بأن ماري أُصيبت باضطراب هستيري عنيف. وبناء على إشارة من الآنسة أوفيليا أعِدت إحدى الأرائك في حجرة الاستقبال إعداداً سريعاً ووضع الجسد الدامي عليها. كان سانت كلار قد أغمي عليه بسبب من الألم ونزف الدم. ولكن الآنسة أوفيليا اصطنعت طرائق الإسعاف الأوّلي، فثاب إلى رشده، وفتح عينيه، وتطلع إلى الجميع من حوله، وظلت عيناه تطوفان، في لهفة، بالأشياء كلها، حتى استقرتا آخر الأمر على صورة أمه.

ووصل الطبيب، وفحص سانت كلار. كان واضحاً من سيماء وجهه أن كل أمل في النجاة قد ضاع. ولكنه انصرف إلى تضميد الجرح، تساعده الآنسة أوفيليا وتوم وسط صيحات الخدم المروّعين وتنهداتهم، وكانوا قد تجمعوا حول أبواب الشرفة ونوافذها.

وقال الطبيب:

ـ «ينبغي أن نبعد جميع هؤلاء من هنا. كل شيء رهن براحة الجريح واحتفاظه بالسكينة والهدوء.»

وفتح سانت كلار عينيه وحدق إلى المخلوقات التعسة التي كانت الآنسة أوفيليا والطبيب يدفعانها إلى خارج الحجرة. وقال:

ـ «مساكين!»

وطفت على وجهه سيما تأنيب ذاتي مرير.

ولم يستطع سانت كلار أن ينطق إلا قليلاً. كان مستلقياً مغمض العينين. ولكن كان واضحاً أنه يصارع أفكاراً مريرة. وبعد برهة قصيرة وضع يده على كتف توم، الذي كان راكعاً إلى جانبه وقال:

ـ «توم! إني أموت! صلّ من أجلي!»

وصلى توم، بكل عقله وقوته، من أجل الروح الراحلة، الروح التي كانت تتطلع في سكينة وتفجع من خلال هاتين العينين الزرقاوين الكئيبين. كانت صلاة حقيقية تصحبها صيحات قوية، ودموع غزار.

وعندما سكت توم بسط سانت كلار ذراعيه نحوه وتناول يده، وتطلّع إليه ملياً، من غير أن ينطق بكلمة. ثم إنه أغمض عينيه، ولكنه ظل قابضاً على يد توم، وطفق يهمهم بأبيات من أنشودة «يوم القصاص»...

كان واضحاً أن الكلمات التي غناها ذلك المساء كانت تطوف بعقله، كلمات من التضرع والابتهال موجهة إلى الرحمة اللانهائية. وتحركت شفتاه لحظة بعد لحظة، فيما كانت أجزاء من الترنيمة تتساقط محطمة منهما...

وقال الطبيب:

ـ «إنه يهذي.»

فقال سانت كلار في عزم:

ـ «لا! لقد بلغ المحجة آخر الأمر! أجل آخر الأمر! آخر الأمر!»

ونهكه جهد الكلام. ورانت على وجهه صفرة الموت، ترافقها سيما طمأنينة وسلام أشبه بتلك التي تعلو وجه طفل متعب مستسلم للرقاد.

وظل كذلك بضع لحظات قصار. لقد رأوا اليد العليا تظلله. وقبيل أن تفارق الروح جسده فتح عينيه ببريق مفاجئ كأنه بريق الجذل والاعتراف بالفضل، وقال: «أمي!» ثم مضى لسبيله...

ـ 20 ـ

المحرومون من الحماية

بعد انقضاء أسبوعين أو يزيد على وفاة سانت كلار أقبل أدولف، الذي سحق قلبه موت سيده الكريم، على توم وقال في جزع:

ـ «هل تعرف يا توم أننا سنباع كلنا في وقت قريب؟»

فسأله توم:

ـ «وكيف عرفت ذلك؟»

ـ «اختبأت خلف السجف حين كانت مولاتي تتحدث إلى أحد المحامين، ففهمت من حديثها أنها اعتزمت إثر اتصالات مع شقيق سيدي، أن تبيع البيت وجميع الخدم، خلا ما تملكه هي شخصياً لتعود إلى مزرعة أبيها . . . وهذا يعني أننا سنرسل بعد أيام للبيع بالمزاد، يا توم.»

فقال توم:

ـ «لتكن مشيئة الله.»

وطوى ذراعيه وأخذ ينشج.

ـ «إن الزمن لن يجود علينا بسيد مثل الذي فقدناه. ولكني أفضل أن أباع في سوق الرقيق على أن أظل تحت سلطة مولاتي.»

ولم يقل توم شيئاً. كان قلبه يفيض أسى وشجناً. وبرز الأمل في الحرية، في لقاء زوجته وأولاده، أمام روحه المهيضة كما يبرز برج

الكنيسة، وسقوف بيوت القرية الحبيبة، لعيني الملاح وقد تحطم قاربه بعد أن بلغ الثغر أو كاد، وراح يلقي من على ظهر موجة سوداء عاتية، إلى دياره تلك، نظرة الوداع. وشد توم على صدره، وسفح دموعاً مريرة، وحاول أن يصلي.

ثم إنه هرع إلى الآنسة أوفيليا، التي ما فتئت تعامله منذ موت إيفا، في احترام ظاهر، وقال:

ـ «آنسة فيلي، لقد وعدني سيدي سانت كلار بأن يهبني حريتي. لقد قال لي إنه شرع في اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك. فهل لكِ يا آنسة أن تتفضلي فتحدثي مولاتي في الأمر، علها تمضي في تحقيق هذه المكرمة التي قضى سيدي سانت كلار دون إتمامها؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «سوف أحدثها بالأمر، يا توم، وسأبذل غاية جهدي لإقناعها. . .»

وتحاملت الآنسة الطيبة على نفسها وقصدت إلى غرفة ماري، لتبحث معها أمر توم، فوجدتها تستعرض هي و«جين» بعض نماذج من القماش الأسود الرقيق.

وقالت ماري وقد وقع اختيارها على أحد النماذج:

ـ «هذه جيدة. ولكني لست على يقين من أنها حدادية مئة بالمئة.»

فانبرت «جين» إلى القول في طلاقة:

ـ «ولم لا؟ لقد ارتدت زوجة الجنرال دربينون ثوباً من هذا القماش عينه بعد وفاة الجنرال في الصيف المنصرم، ولقد كان في الحق ثوباً لطيفاً.»

وهنا التفتت ماري إلى الآنسة أوفيليا وسألتها:

ـ «ما رأيك؟»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «إنها مسألة عُرف، في ما أحسب. وفي استطاعتكِ أن تقرّري بأفضل مما أستطيع أنا.»

ـ «تريدين الحق؟ إني لا أملك ثوباً واحداً أستطيع أن ألبسه. ولما كنت معتزمة أن أغادر المنزل في الأسبوع القادم فقد غدا حتماً عليّ أن أقرر شيئاً.»

ـ «وستذهبين بهذه السرعة كلها؟»

ـ «أجل. فقد كتب إليّ شقيق سانت كلار. وهو والمحامي يعتقدان أن الأرقاء والأثاث يحسن أن يباعوا في سوق المزاد، على حين يبقى البيت في عهدة المحامي.»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «هناك مسألة أحب أن أحدثكِ حديثها، ذلك أن أوغسطين كان قد وعد توم بأن يمنحه الحرية، وشرع في اتخاذ الإجراءات الشرعية المطلوبة. فالذي أرجوه أن تستعملي نفوذكِ لإكمال هذه الخطوة النبيلة...»

ـ «لا، إني لن أعمل شيئاً مثل هذا! توم من أثمن الأرقاء الذين يضمهم بيتنا. وليس في استطاعتي أن أفرّط فيه، مهما كان الأمر. وبالإضافة إلى ذلك، ما الذي يبغيه هو من الحرية؟ إن من الخير له ألف مرة أن يبقى عبداً رقيقاً.»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «ولكنه توّاق إلى الحرية، وقد وعده سيده بإعتاقه...»

فكان جواب ماري أن قالت:

ـ «أستطيع أن أقول إنه يريد الحرية، بل إنهم جميعاً يريدون الحرية لأنهم فئة ألفَت التذمر والشكوى، واعتادت أن تتطلع إلى ما

ليس في يدها وعلى أية حال، فإنا ضد مبدأ التحرير قولاً واحداً. أبقِ العبد في ظل السيد تجده حسن المسلك صالح السيرة. أما إذا أطلقته فعندئذ يتردى في مهاوي الكسل، وينقطع عن العمل، ويدمن الشراب، وينتهي إلى أن يصبح مخلوقاً وضيعاً لا يساوي شيئاً. لقد رأيت ذلك مئات من المرات. وعندي أن إعتاق العبد ليس خدمة تؤدى إليه.»

ـ «ولكن توم رجل مستقيم، ونشيط، وتقي.»

ـ «أوه، لست أحتاج إلى من يخبرني. لقد شاهدت مئات مثله. إنهم يحافظون على مسالكهم الطيبة ما داموا يحيون في رعاية سيد يتعهدهم بالعناية.»

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ «ولكن ألا تخافين إذا ما عرضت توم للبيع أن يشتريه سيدٌ لئيم؟»

ـ «أوه، هذا كله هراء. إن واحداً من كل مئة عبد طيب يقع عادة في يد سيد سيئ. ومعظم الأسياد طيبون ذوو ضمائر حية، برغم كل ما يذاع ويشاع. لقد عشت وترعرعت هنا، في الجنوب، ولست أعرف سيداً لم يعامل أرقاءه معاملة حسنة... أنا مطمئنة من هذه الجهة.»

وأدركت أوفيليا أنها أخفقت في سعيها، فاكتفت بهذا المقدار، وانقلبت إلى توم محزونة الفؤاد. وأياً ما كان، فقد أبت الآنسة أوفيليا إلاّ أن تمدّ إلى الرجل البائس يداً. فكتبت رسالة إلى السيدة شيلبي وصفت فيها ما يقاسيه توم من ضروب البلاء، واستحثتها على افتدائه. ثم إنها شرعت تعد العدة للعودة إلى موطنها الأول في نيو إنجلاند.

ـ 21 ـ

في سوق الرقيق

وفي اليوم التالي سيق توم وأدولف ونحو نصف دزينة من الأرقاء إلى مستودع الرقيق في انتظار أن يعرضهم النخاس السيد سُكَجز، وكثيراً غيرهم، للبيع بطريقة المزايدة العلنية.

وكان توم يحمل حقيبة ضخمة ملأى بالثياب، شأن معظم رفاقه. واقتيدوا جميعاً إلى مهجع طويل حيث وجدوا عدداً كبيراً من الرجال من مختلف الأعمار والأحجام وظلال البشر يعبثون ويتضاحكون. . .

وقال السيد سكجز:

ـ «آ، ها! هذا صحيح! ادخلوا يا أبنائي، ادخلوا!»

ثم التفت إلى زنجي كان يرسل فكاهات ماجنة وضيعة تستثير ضحك القوم وقال:

ـ «سامبو! لا تبخل عليهم بنكاتك. إن أرقائي يجب أن يكونوا دائماً على غاية من المرح والبشر!»

وكان طبيعياً أن ينفر توم من المشاركة في هذا العبث، الصاخب، فجلس على حقيبته، مبتعداً ما استطاع عن الجماعة الضاجة، مسنداً رأسه إلى جدار الغرفة.

والواقع أن المتاجرين بالسلع البشرية ينفقون غاية جهدهم لإحاطة الأرقاء بجوّ من الطرب الصارخ ينسيهم ما هم عليه من بؤس

وشقاء. بل إن التدريب الذي يخضع له الزنجي منذ اللحظة التي يباع فيها في السوق الشمالية حتى وصوله إلى الجنوب، موجهٌ توجيهاً نظامياً نحو جعل هذا المخلوق البائس قاسي القلب، عديم التفكير، وحشياً. فالنخاس يتصيد أرقاءه في فرجينيا أو كانتاكي ثم يسوقهم إلى مكان صحي ملائم، غزير المياه في الغالب، ابتغاء تسمينهم، وهناك يعلفون علفاً سخياً يوماً بعد يوم، وإذ كان بعض العبيد ينزعون إلى الهزال برغم برنامج التسمين هذا فإن النخاس يصدر أمره بأن يُعزف لهم طوال النهار على الرباب، ليهزجوا أو يرقصوا على أنغامها. أما من يرفض منهم الأخذ بأسباب المرح والابتهاج فيعتبر عنصراً خطراً تُنزل به ضروب التعذيب والنكال. وهكذا يرى أولئك البائسون أنفسهم مضطرين إلى التظاهر بالجذل والبشر طمعاً في أن يشتريهم سيد شهم، وفراراً بأنفسهم من عذاب رهيب يسومهم إياه النخاس إذا ما تكشفت السوق عن أنهم بضاعة كاسدة.

- «ماذا تفعل هنا أيها العبد؟ تفكر، إيه؟»

قال سامبو ذلك، وهو يقترب من توم، بعد أن غادر السيد سكجز الغرفة وكان سامبو أسود فاحماً ضخم الجثة، بادي الحيوية، يفيض مكراً وخبثاً.

فأجاب توم في أناة:

- «سوف أباع بالمزاد العلني! ها! ها! اسمعوا يا أولاد هذه النكتة...»

وحاول سامبو أن يتحرش بأدولف، فصرخ هذا في وجهه:

- «أرجوك أن تدعني وشأني!»

فقال سامبو:

- «والآن أيها الأولاد، انظروا إلى هذا العبد الأبيض، المضمخ بالروائح الزكية!...»

واقترب منه وكأنه يريد أن يشمه. . .

فزأر أدولف:

ـ «أقول لك ابتعد عني.»

ولكن سامبو استمر في تندره السمج، فما كان من أدولف إلا أن وثب عليه، وراح يوسعه ضرباً. وضحك الأرقاء، وصاحوا صيحات الشماتة. وما هي إلا لحظة حتى كان النخاس بالباب.

وصرخ بهم وهو يهز سوطه الكبير:

ـ «ما هذا؟ نظام! نظام!»

وولّوا كلهم الأدبار ما عدا سامبو. وقيل للسيد إن العناصر الجديدة هي التي أحدثت الشغب. فتقدم إلى توم وأدولف ووزع عليهما عدداً من الرفسات واللكمات. وبعد أن أصدر أمره بأن يلزم الجميع الهدوء رجع من حيث أتى.

الآن، وقد أعطينا القارئ صورة عما كان يجري في مهجع الرجال، يحسن بنا أن ننتقل به إلى المهجع المخصص للنساء. هناك كانت تنبطح على الأرض مخلوقات لا عدّ لها من مختلف الألوان، ابتداء من الابنوسي الصرف إلى الأبيض، ومن مختلف الأعمار، من الطفولة حتى الشيخوخة. هذه فتاة مليحة، لا يزيد عمرها على العاشرة، بيعت أمها أمس فليس من يكفكف دموعها الغزيرة التي سفحتها قبل أن تستسلم للرقاد. وتلك زنجية عجوز ذاوية تنبئ ذراعاها الهزيلتان وأصابعها الخشنة عن الكدح الموصول وتنتظر أن تباع في الغد كما يباع سقط المتاع بثمن بخس، دراهم معدودة. وهناك في الزاوية امرأتان تتميزان عن الأربعين أو الخمسين أمة اللواتي يضمهن المهجع بحسن البزة وملاحة الوجه. كانت إحداهن امرأة خلاسية، بين الأربعين والخمسين من سني حياتها، تعتمر شبه

عمامة حمراء زاهية وترتدي ثوباً نظيفاً أنيقاً. وكانت الأخرى فتاة جميلة في الخامسة عشرة، هي ابنتها. إنها نصف خلاسية، كما يبدو من بشرتها الأكثر إشراقاً؛ وإن يكن الشبه بينها وبين أمها واضحاً لا يمكن أن يُخطأ.

وكانت الأم وابنتها، ولنطلق عليهما اسمي سوزان وإميلين، تعيشان في كنف سيدة كريمة تقية من سيدات نيو أورليانز، حيث تعلمتا القراءة والكتابة وألمّتا بطرف من حقائق الدين. ولكن ابن سيدتهما الوحيد كان هو المدبّر لممتلكاتها، وكان طياشاً مبذّراً فانتهى أمره إلى الخراب، وانتهت إماؤه، وفيهن سوزان وإميلين، إلى سوق الرقيق...

قالت البنت لأمها، وهي تبكي في صمت:

- «ماما، ضعي رأسكِ على حضني وانظري ما إذا كنت تستطيعين أن تنامي قليلاً.»

- «ليست بي رغبة في النوم يا إميلين. وكيف أستطيع أن أنام وأنا أعرف أن هذه الليلة قد تكون آخر ليلة يضمنا فيها سقف واحد؟»

- «أوه، ماما، لا تقولي ذلك. ومن يدري؟ فلعل رجلاً واحداً يشترينا معاً.»

فقالت المرأة:

- «أرجو ذلك. ولكني لا أرى ما يدعو إلى التفاؤل.»

- «ولماذا يا ماما؟ ألم يقل الرجل إننا مليحتان، وإننا سنكون موضوع اهتمام المشترين؟»

وبقلب جازع، تذكّرت سوزان نظرات الرجل وكلماته. تذكرت كيف تطلع إلى يدي إميلين ورفع شعرها الجعد، وأعلن أنها سلعة من الباب الأول. وإذا كانت سوزان قد نشأت نشأة مسيحية فقد خافت

على ابنتها أن تباع لمن يفرض عليها حياة الإثم والعار، كما تخاف أيما مسيحية أخرى. ولكنها كانت هناك مجردة من الأمل، محرومة من الحماية.

وقالت إميلين:

ـ «ماما، لنحاول جهدنا أن نبدو على أكثر ما نستطيع من النضارة والحيوية، فقد يعجب بنا سيد كريم فيشترينا معاً...»

فقالت سوزان:

ـ «أريد منكِ أن تسرحي شعركِ غداً وتتركيه على طبيعته...»

ـ «ولكن ذلك يذهب بحسن مظهري، يا ماما!»

ـ «صحيح، ولكنكِ خليقة في مثل هذه الحال بأن تجدي المشتري الأفضل.»

فقالت الفتاة:

ـ «لست أفهم شيئاً مما تقولين.»

ـ «أقول إن الأسر المحترمة تكون أشد رغبة في شرائكِ عندما تراكِ زاهدة في التأنق والتبرج. أنا أعرف عاداتهم أكثر مما تعرفين.»

ـ «حسناً، يا ماما، سوف أفعل.»

ـ «وإذا ما قدّر لنا أن لا نلتقي بعد الغد يا إميلين، إذا ما قدّر لي أن أباع لأعمل في مزرعة وأن تباعي أنتِ لتعملي في مزرعة أخرى نائية، فاذكري دائماً نشأتكِ الصالحة وجميع ما علمتكِ إياه مولاتي، والزمي دائماً كتابك المقدس ومجموعة التراتيل. لأنكِ إذا كنتِ وفية للرب كان الرب وفياً لكِ.»

* * *

تحت قبة كبيرة فخمة، كان رجال من مختلف الأمم يذرعون

الأرض المبلطة بالرخام، جيئة وذهاباً، وفي كل جانب من جوانب المكان المستدير كانت تقوم منابر صغيرة، أو محطات، صنعت خصيصاً ليقف عليها الدلالون وأضرابهم. إن اثنين من هذه المنابر قائمين على جانبين متقابلين من الرقعة المدوّرة، قد شُغلا الآن بجمهرة من الرجال الموهوبين.

وكانت تحيط بمنبر ثالث لم يشغله أحد بعد جماعة تنتظر اللحظة التي يبدأ فيها البيع. هنا كان يقف أرقاء سانت كلار ـ توم وأدولف وغيرهما ـ وهنا أيضاً كانت سوزان وإميلين تنتظران دورهما في ضيق وانكسار. وتحلّق حول الأرقاء أناس مختلفون بعضهم راغب في الشراء، وبعضهم غير راغب في الشراء، فهم يحدّقون إليهم، ويفحصونهم ويبدون آراءهم في وجوههم وأوصالهم بمثل الحرية التي يتحدث فيها تجار الخيل عن محاسن فرس أو مساوئه.

ـ «هالو! ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

قال أحد الشبان ذلك وهو يضرب براحة يده على كتف شاب أنيق كان يفحص أدولف مستعيناً بإحدى النظارات...

ـ «حسناً، إني أبحث عن وصيف، وقد سمعت أن أرقاء سانت كلار معروضون للبيع...»

فقال الشاب الأنيق:

ـ «لا أنصحك بشراء أي من أرقاء سانت كلار. إنهم قوم مترفون مدللون...»

ـ «لا تخف. إني لن ألبث أن أفهمهم حقيقة مركزهم وأن سيدهم الجديد غير سيدهم القديم. ويخيل إليّ أني سوف أشتري هذا الولد... إن شكله يعجبني.»

وكان توم واقفاً مستغرقاً في التفكير، متأملاً في الوجوه

المحتشدة حوله، باحثاً عن واحد يؤانس من نفسه الرغبة في أن يدعوه مولاه. لقد رأى رجالاً كثيرين، رجالاً كباراً، ضخاماً، مقطبين، ورجالاً صغاراً ضامرين، قساة يلتقطون أرقاءهم كما يلتقط المرء قدد الحطب، ويضعها على النار أو في السلة في غير ما مبالاة كما يحلو له. ولكنه لم يجد بينهم أي سانت كلار.

وقبل بدء البيع بقليل شقّ طريقه وسط الزحام رجلٌ قصير مفتول الذراعين يلبس قميصاً «مقفصاً» مفتوحاً يكشف عن جزء من صدره، وبنطلوناً متسخاً متهرئاً. حتى إذا بلغ مكان الأرقاء شرع يفحصهم واحداً إثر واحد. ولم يكد توم يراه مقترباً نحوه حتى أخذه ذعر مفاجئ ثائر. كان واضحاً أن الرجل، على قصره، ذو قوة هائلة. وكان فمه الكبير الغليظ منتفخاً بالتبغ يمضغه ثم يلقي بعصارته بين الفينة والفينة على الأرض، في عزم وطيد وقوة متفجرة، وكانت يداه كبيرتين إلى حد بالغ، يعلوهما شعر كثيف، وقذر كثير، وتطلّ من رؤوسهما أظافر طويلة على نحوٍ كريه جداً.

وحين انتهى الرجل إلى توم أمسك به من فكه وأكرهه على أن يفتح فمه ليرى أسنانه وأن يرفع أكمامه ليرى عضلاته، ثم أمره بأن يقبل ويدبر، ويقفز ويثب.

ـ «أين كانت نشأتك؟»

فأجاب توم وهو يتطلع حوله كمن يلتمس النجاة:

ـ «في كانتاكي، أيها السيد!»

ـ «وما كان عملك؟»

ـ «كنت أعنى بمزرعة مولاي.»

فقال الرجل:

ـ «شيء معقول!»

وتابع سيره. ثم إنه وقف لحظة أمام أدولف، بصق بعدها مقداراً من عصير التبغ على حذائه الململمع، ومضى لسبيله. حتى إذا بلغ حيث كانت سوزان وإميلين تمهّل ومدَّ يده الثقيلة القذرة وجرّ الفتاة إليه. ثم مرَّر تلك اليد على عنقها وجذعها ولمس ذراعيها، وتطلع إلى أسنانها ثم دفعها على صدر أمّها التي كان وجهها المصفر ينطق بالألم المرير الذي يعتادها كلما أتى الرجل الجلف بحركة من حركاته تلك.

وارتاعت الفتاة وأخذت في الصياح.

فصرخ النخاس:

ـ «كفى أيتها الفاجرة. ليس هذا محل للنحيب. إن البيع سوف يبدأ.»

وبدأ البيع فعلاً.

وبيع أدولف، بثمن صالح، للشاب الذي رغب في شرائه من قبل. وتوزع أرقاء سانت كلار الآخرين مشترون مختلفون.

وقال النخاس لتوم:

ـ «والآن، جاء دورك يا صاح. تقدّم! ألا تسمع؟»

وتقدم توم وارتقى المنصة، وألقى بعض النظرات الجازعة إلى ما حوله. لقد بدا له أن كل شيء يختلط في ضجة عامة غير واضحة: صوت الدلاّل وهو يعدد مزايا السلعة بالفرنسية والإنكليزية، وعروض الشراء المنصبّة كالسيل، بالفرنسية والإنكليزية أيضاً من شفاه المزايدين. وما هي إلا لحظة حتى رنت ضربة المطرقة الأخيرة في آذان القوم وأصداء المقطع الأخير من كلمة «دولارات» فيما كان الدلاّل يعلن الرقم الذي انتهى إليه الثمن...

وحُوّل توم إلى الرجل الذي رست عليه المزايدة. لقد صار له سيّد!

ودُفع من على المنصة. وأمسك به الرجل الجلف القصير من كتفه ودفعه إلى ناحية، قائلاً في صوت أجش:

ـ «قف هناك!»

ولم يدرك توم شيئاً، ولكن المزايدة استمرت، بالفرنسية حيناً، وبالإنكليزية حيناً آخر. وسقطت المطرقة من جديد، ـ لقد بيعت سوزان. إنها تنزل عن المنصة، وتقف متمهلة، وتتطلع في لهفة إلى الوراء. إن ابنتها تمد يديها نحوها. فتتطلع في ذلة وألم إلى وجه الرجل الذي اشتراها، وهو كهل محترم تبدو على محياه أمارات المحتد الخيّر.

ـ «أوه. أيها المولى، أرجوك أن تشتري ابنتي!»

ـ «يسعدني أن أفعل. ولكني أخشى أن لا تمكنني أموالي من تحقيق رغبتك.»

قال الرجل ذلك، ونظر في شوق أليم، إلى الفتاة وهي ترتقي المنصة وتتطلع إلى ما حولها مذعورة خائفة.

لقد شاع الدم في خديها، وكانا من قبل شاحبين لا لون لهما، ولمعت عيناها بمثل نار الحمى، وتأوهت أمها بعد أن بدت في عينيها أجمل مما رأتها في أيما يوم مضى. ولم يُضع الدلاّل دقيقة واحدة، فأفاض في وصف محاسنها بلغة هي مزاج من الفرنسية والإنكليزية جميعاً، وأخذت الأرقام تقفز قفزات سريعة.

ـ «سوف أفعل أقصى ما أستطيع أن أفعله.»

قال الرجل الكريم ذلك وألقى دلوه بين الدلاء. وما هي إلا لحظات حتى بلغ الثمن حداً فاق ما تستطيع محفظته أن تدفعه. فلاذ بالصمت. وازداد الدلاّل حماسة واندفاعاً، ولكن المزايدين أخذوا ينسحبون واحداً بعد واحد، ولم يثبت في الميدان غير اثنين: مواطن

أرستقراطي عتيق، وصاحبنا الجلف القصير. وزايد المواطن الأرستقراطي بضعة دولارات، محاولاً تعجيز منافسه في استخفاف وازدراء، ولكن خصمه القصير كان يفوقه عناداً وضخامة محفظة. وما هي إلا لحظة حتى سقطت المطرقة. لقد استولى على الفتاة جسداً وروحاً، إلا إذا تداركها الله برحمته!

وكان سيدها هذا يدعى المستر ليكري، وكان يملك مزرعة قطن على النهر الأحمر. فانضمت إلى توم، ورجلين آخرين، وانخرطت في بكاء مرير.

- 22 -

عبر النهر الأحمر

جلس توم في القسم السفلي من مركب صغير حقير يشق عباب النهر الأحمر. كانت الأصفاد في رسغيه، والأغلال في قدميه، وكان همّ أثقل من القيود الحديدية يجثم على فؤاده. لقد خبا في سمائه كل شيء، فلا قمر ولا نجوم. لقد مرَّ كل شيء به، كما تمر به الآن هذه الأشجار والضفاف، لغير ما رجعة: كوخه القديم في كانتاكي وزوجته وأولاده، بيت سانت كلار بمتارفه كلها ومجالي روعته، رأس إيفا الذهبي وعيناها اللتان تشبهان أعين القديسين، سانت كلار الفخور، المبتهج المليح، المهمل في ما يبدو، ولكن الكريم أبداً، وساعات الراحة والفراغ الماتعة، كل ذلك قد ذهب وليس إلى عودته من سبيل!

إن من أكبر آفات الاسترقاق أن الزنجي الوادع السريع التمثل والتكيّف لا يكاد يكتسب في كنف أسرة كريمة تلك العادات والأذواق والإحساسات التي تطبع جو المكان حتى يزحزَح عن مستقره ذاك ليلقى به بين أيدي أقوام جفاة غلاظ لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلوبهم، كما تنتهي الكرسي أو الطاولة التي زينت في وقت من الأوقات صالوناً فخماً مترفاً، إلى أن يلقى بها مهشمةً في حانة حقيرة قذرة، أو بيت من بيوت الدعارة. مع فارق كبير واحد هو أن الكرسي أو الطاولة عاجزة عن أن تحس، في حين أن الإنسان غير عاجز عن ذلك.

كان سايمون ليكري، سيد توم الجديد، قد اشترى من مواطن عدة في نيو أورليانز عدداً من العبيد يبلغ الثمانية وساقهم مكبلين بالحديد، زوجاً زوجاً، إلى المركب البخاري الموسوم بـ«القرصان» المستعد للرحلة عبر النهر الأحمر.

وحين انتهوا إلى ظهر السفينة، وسارت بهم، أقبل السيد ليكري وأمارات الصرامة تعلو وجهه، ليستعرضهم واحداً واحداً. حتى إذا ألقى نظرة على توم، وكان قد عُرض للبيع ببذلته المخيطة من الجوخ الجيد، وبقميصه المنشى، وحذائه اللماع، صاح:

ـ «قف!»

ووقف توم.

ـ «اخلع هذه العقدة!»

وفيما كان توم يحاول، بيديه المصفدتين بالأغلال، أن يحل عقدة رقبته، تقدّم ليكري لمساعدته بأن جذبها في غلظة وقسوة، من عنقه، ودسها في جيبه.

وهنا ارتد ليكري إلى حقيبة توم، وكان قد فتشها قبل ذلك ونهب منها ما حلا له، وانتزع منها بنطلوناً عتيقاً وسترة بالية كان توم متعوّداً أن يلبسهما أثناء عمله في الاسطبل، وقال محرراً يدي عبده من أصفادهما ومشيراً إلى موضع مستتر بين الصناديق:

ـ «اذهب إلى هناك والبس هذه الثياب.»

وامتثل توم أمر سيده ورجع بعد لحظات.

وقال السيد ليكري:

ـ «اخلع نعليك!»

وخلع توم نعليه. فصاح به مولاه وهو يلقي إليه حذاء ضخماً قاسياً كالذي كان شائعاً بين العبيد:

ـ «البس هذا!»

ولم ينسَ، فيما كان يغيّر ثيابه، أن يضع الكتاب المقدس، الأثير لديه، في أحد جيوبه. وقد أحسن في ذلك صنعاً، لأن السيد ليكري لم يكد يعيد الأغلال إلى يدي توم حتى شرع ينبش جيوب البذلة المخلوعة، فعثر على منديل حريري فدسّه في جيبه. ووقع على أشياء أخرى كان توم يحملها في جيوبه لمجرد إمتاع إيفا ومؤانستها بها، فألقى عليها نظرة ازدراء وقذف بها من فوق كتفيه في مياه النهر.

كان توم قد نسي كتاب التراتيل فلم ينقذه كما أنقذ الكتاب المقدس. وإذ وقع ذلك الكتاب في يد السيد ليكري قال:

ـ «جميل! أنت تقيّ من غير شك. فما اسمك؟ أنت عضو في الكنيسة، إيه؟»

فقال توم في عزم:

ـ «أجل يا مولاي.»

ـ «حسناً، سوف أقتلع ذلك منك في الحال. فليس في مزرعتي مكان للزنوج الذين يضيعون أوقاتهم بالصياح والصلاة والغناء. أنا كنيستك، منذ الآن! أفهمت؟ يجب أن تكون كما آمرك أن تكون.»

وأجاب شيء في ذات نفس الرجل الأسود الصامت قائلاً: «لا» وضجت في أعماق أعماقه، وكأنما كان يرددها صوت غير منظور، كلمات كانت إيفا كثيراً ما ترددها على مسامعه. «لا تخف! فقد افتديتك: لقد سميتك باسمي. وصرت منذ اليوم ملكي.»

ولكن سايمون ليكري لم يسمع أيما صوت. لقد كان ذلك الصوت من ضرب لم يُقدّر له أن يسمعه أبد الدهر. فحدق لحظة في وجه توم المطرق، وتابع طريقه...

وانتهى ليكري حيث كانت إميلين تجلس، مشدودة بالحديد إلى

امرأة أخرى، وقال لها وهو يربت على ذقنها:

ـ «حسناً يا عزيزتي، حافظي على مرحك!»

ولم تخطئ عينه نظرات الذعر والنفور التي حدجته بها الفتاة، فصاح بها مقطباً:

ـ «يجب أن يكون وجهكِ رطباً حين أخاطبك، هل تسمعين؟»

ثم التفت إلى المرأة الخلاسية التي شُدّت إميلين إليها وصاح:

ـ «وأنتِ أيضاً، يجب أن تكوني أكثر مرحاً وانشراحاً. أفهمتِ؟»

ثم إنه رجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء وصرخ:

ـ «هيه، أنتم جميعاً! انظروا إليَّ! انظروا إليّ! ضعوا أعينكم في عينيّ على شكل خط مستقيم لا يعرف الانحراف.»

وحدقت العيون كلها في عيني سايمون الرماديتين الضاربتين إلى الخضرة، القادحتين شرراً...

وقبض سايمون كفه الضخمة الثقيلة، فإذا بها أشبه ما تكون بمطرقة حداد، وقال:

ـ «والآن، أترون قبضة يدي هذه؟ روزوها!»

ووضع جمع كفه في يد توم وتابع قائلاً:

ـ «انظروا إلى هذه العظام! حسناً، إني أحب أن أخبركم أن هذه القبضة قد غدت صلبة كالحديد لكثرة ما صرعت من العبيد! إني لم ألقَ، حتى اليوم، ذلك الزنجي الذي تعجز يدي عن صرعه بلكمة واحدة.»

وقرّب جُمع كفه إلى وجه توم تقريباً كثيراً حتى لقد رفت عينه وارتدّ إلى الوراء...

وأمسكت النساء أنفاسهن على نحوٍ غير إرادي، وأطرقت جماعة

الأرقاء كلها وعلت وجوهها سيماء الذعر والكآبة. وعندئذ انكفأ سايمون قاصداً إلى بار السفينة للترفيه عن نفسه. . .

ـ «تلك هي الطريقة التي أستهلّ بها صِلاتي بالعبيد،» قال سايمون ذلك لرجل اتفق أن كان واقفاً أمامه حين ألقى خطبته عن أرقائه. «من مذهبي أن أبدأ قوياً، وأن أعرّفهم بالذي ينبغي أن يتوقعوه عندي!»

ـ «ولكن أرقاءك ممتازون على ما رأيت. . .»

فقال سايمون:

ـ «فعلاً. إن توم على ما قيل لي شيء نادر حقاً. ولقد دفعت فيه ثمناً عالياً بعض الشيء. وهناك تلك المرأة الصفراء الممراضة. يُخيّل إليّ أن صحتها رديئة وقد لا تعيش أكثر من عام أو عامين. أنا لست ممن يصدعون رؤوسهم بتطبيب الزنوج ومعالجتهم. استهْلِكهم، ثم اشترِ جماعة جديدة. تلك هي سياستي. إنها أخف مؤونة، وأنا واثق أنها في النتيجة أرخص وأوفر.»

فسأله الرجل الغريب:

ـ «وكم يبقون على قيد الحياة عادة؟»

ـ «لست أدري. ذلك رهن ببنيتهم الجسمانية. فأما العبيد البدينون فيبقون ست سنوات أو سبعاً، وأما العبيد المهزولون فيُستهلكون في سنتين أو ثلاث. . .»

ـ 23 ـ

مواطن قاتمة

وأخيراً بلغت السفينة، وحمولتها اللوعة والأسى، شاطئ إحدى المدن الصغيرة. فغادرها ليكري وجماعته واتخذوا سبيلهم في اتجاه المزرعة التي قدّر لتوم أن يعيش على ثراها شطراً جديداً من عمره.

وفي بعض الطريق التفت ليكري إلى إميلين وقال وهو يضع يده الغليظة على كتفها:

ـ «حسناً يا عزيزتي الصغيرة، لقد أوشكنا أن نصل إلى المنزل!»

وارتعدت فرائص الفتاة، ولفها ذعر، وحاولت أن تتقي مداعبات ليكري السمجة بالالتصاق أكثر فأكثر بالمرأة الخلاسية التي شُدّ وثاقها إليها، وكأنها هي أمها حقاً.

وأمسك ليكري بأذن الفتاة وقال:

ـ «أحسب أنكِ لم تلبسي أقراطاً في حياتكِ؟...»

فقالت إميلين وهي ترتجف وعيناها إلى الأرض:

ـ «لا يا مولاي!»

ـ «حسناً، سأقدم إليكِ قرطاً حين نبلغ المنزل شرط أن تكوني فتاة طيبة. لا داعي لأن تخافي. إني لا أعتزم أن أرهقكِ بالشغل. ولسوف تقضين وقتاً جميلاً معي، وتعيشين كما تعيش السيدات. كل ما أطلبه أن تكوني فتاة طيبة...»

وانتهت العربة التي تقلّ ليكري وأرقاءه إلى ممر معبّد تظلله أشجار الزنزلخت الوارفة، ويقود إلى بيت كبير جميل ولكنه يشكو الإهمال وقلة النظافة.

وهبّت لاستقبال العربة لدى سماعها صوت عجلاتها، أربعة كلاب مخيفة، وراحت تنبح نباحاً صاخباً وتتعلق بأذيال القادمين الجدد وتكاد تمزقهم بأنيابها، لولا أن ردها عنهم نفر من الأرقاء القدماء هرعوا بدورهم لاستقبال السيد...

وقال ليكري، وهو يداعب الكلاب في ارتياح مقطب، ويوجه الكلام لتوم وصحبه:

ـ «أنتم ترون بأعينكم أي شياطين أعددتها لكم إذا ما سوّلت لكم أنفسكم الفرار. لقد نشأت هذه الكلاب على تعقّب العبيد الفارّين وافتراسهم. فخذوا حذركم.»

والتفت إلى أحد الخدم وقال:

ـ «والآن سامبو! كيف جرت الأمور أثناء غيابي؟»

ـ «على غاية ما يرام يا مولاي!»

ثم وجه السؤال إلى آخر قائلاً:

ـ «كويمبو، هل فعلت ما قلت لك أن تفعله؟»

ـ «طبعاً يا مولاي!»

كان هذان العبدان أبرز الأرقاء في المزرعة. وكان ليكري قد نشّأهما على الوحشية كما قد نشّأ كلابه، فهما يسومان العاملين في المزرعة سوء العذاب، في غير ما رحمة ولا استبقاء.

وقال ليكري:

ـ «سامبو، سق هؤلاء الأولاد إلى حظيرتهم. ودونك هذه الجارية التي اشتريتها لك.»

وفصل ليكري المرأة الخلاسية عن إميلين ودفعها إليه مردفاً:

ـ «لقد وعدتك أن آتيك بواحدة، أتذكر؟»

وصاحت المرأة:

ـ «رفقاً بي، أيها السيد. لقد تركت زوجي في نيو أورليانز!»

ـ «وأي بأس في ذلك؟ ألا تريدين واحداً غيره هنا؟ لا تنطقي بكلمة! اغربي عن وجهي!».

قال ليكري ذلك ورفع سوطه في وجهها، ثم التفت إلى إميلين وقال:

ـ «أما أنتِ أيتها السيدة فبإمكانكِ أن تدخلي معي إلى هنا!»

ولم يكد ليكري يفتح باب المنزل حتى انطلق صوتٌ نسائي بكلام ما، في لهجة سريعة آمرة. وسمع توم، الذي كان يُتبع الفتاة نظره في لهفة وجزع، هذا الصوت، وسمع ليكري يجيب مغضباً:

ـ «تستطيعين أن تخرسي! إني أفعل ما يحلو لي!»

* * *

كانت الشمس قد غربت عندما رجع سكان الأكواخ المتعبون إلى أكواخهم: رجال ونساء مكدودون، يرتدون ثياباً ملوثة ممزقة. وكان عليهم وقد أتموا عملهم أن يقصدوا إلى الطواحين اليدوية ليطحنوا جرايتهم من الذرة ويصنعوا منها كعكاً هو كل عشائهم. لقد سلخوا النهار، منذ بزوغ الفجر، وهم يعملون تحت سياط النظار المستحِثة. ذلك أن الموسم كان في أوج احتدامه، فينبغي اللجوء إلى جميع الأساليب التي تكفل حمل الأرقاء على بذل الجهد الأقصى...

قد يقول المترفون الناعمون: «ولكن جني القطن ليس عملاً مضنياً»، فنقول وليس في سقوط نقطة من الماء على رأسك شيء مزعج أيضاً، ومع ذلك فإن سقوط نقطة وراء نقطة، أقصى ضروب

التنكيل والتعذيب، تسقط لحظة بعد لحظة، في تعاقب رتيبٍ، على المكان نفسه. والعمل قد لا يكون في ذاته مجهداً شاقاً ولكنه يصبح كذلك إذا ما تلاحق ساعة إثر ساعة في تماثل رتيبٍ يزيده وطأة على النفس مجرد كونك لا تستشعر أن لك الحق في النجاة من جحيمه. وتطلَّع توم إلى وجوه القوم فلم يجد غير رجال مقطبين انحطوا إلى درك البهائم، ونساء مهزولات قد ثُبِّطت عزائمهن...

وظلت أصداء الطواحين تُسمع حتى ساعة متأخرة من الليل. كان عددها أقل من عدد الطاحنين، وكان القوي يزحزح الضعيف من مكانه، فيضطر إلى الانتظار حتى ينجز الأقوياء طحنهم.

واقترب سامبو من المرأة الخلاسية، وألقى كيساً من الذرة أمامها وقال:

ـ «هيه، أنت، ما الاسم الذي يدعونك به؟»

ـ «لوسي.»

ـ «حسناً، يا لوسي، أنتِ امرأتي الآن. اطحني هذه الكمية من الذرة وأعدّي لي عشائي منها. أسمعتِ؟»

فقالت المرأة في جرأة اليأس الحادة الخاطفة:

ـ «أنا لست امرأتك. ولن أكون. فاذهب في سبيلك!»

ورفع سامبو قدمه متهدداً:

ـ «سأرفسك بقدمي هذه!»

ـ «في استطاعتك أن تقتلني أيضاً، إذا شئت. وكلما أسرعت كان ذلك أفضل. فأنا أتمنى لو أموت!»

وكان توم يستشعر الجوع من جراء رحلة النهار الطويلة. وكان على وشك أن يقع مغشياً عليه من التَّعب. وانتظر دوره في الطحن حتى ساعة متأخرة من الليل. ثم تقدّم ليساعد امرأتين مكدودتين في

طحن جرايتهما، وفي خبزها لهما على جذوات النار الخامدة، ثم مضى يعد عشاءه. وبادرته الجاريتان عطفاً بعطف فساعدتاه في إعداد الخبز، حتى إذا تناول طعامه جلس في ضوء النار وأخرج كتابه المقدس...

فتساءلت إحداهما:

ـ «ما هذا؟»

فقال توم:

ـ «الكتاب المقدس.»

ـ «أوه يا إلهي، إني لم أرَ كتاباً مقدساً منذ غادرت كانتاكي!»

فسألها توم في شوق:

ـ «وهل نشأتِ في كانتاكي؟»

ـ «أجل، وكانت نشأة طيبة. إني لم أتوقع يوماً أن ينتهي بي المطاف إلى هنا.»

وهنا سألت المرأة الأخرى:

ـ «وما هو ذلك الكتاب!»

ـ «إنه الكتاب المقدس!»

فقالت المرأة:

ـ «وما هو الكتاب المقدس؟»

فأجابتها رفيقتها:

ـ «ألم تسمعي به من قبل؟ لقد كنت أسمع سيدتي تتلو أجزاء منه، بعض الأحيان في كانتاكي. ولكن، وأسفي عليّ. إننا ههنا لا نسمع غير الصخب والعربدة.»

فقالت المرأة الأولى:

ـ «اتل علينا شيئاً من كتابك!»

وتلا توم:

ـ «تعالوا إليّ، يا جميع المتعَبين وثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم.»

فقالت المرأة:

ـ «هذا كلام جميل. من الذي قاله؟»

فأجاب توم:

ـ «السيد المسيح.»

فقالت المرأة:

ـ «ليتني أعرف أين يقيم! إذن لذهبت إليه! يبدو لي أني أصبحت في حاجة ماسة إلى الراحة. لقد تقرح جلدي، لكثرة ما ضربني سامبو بالسوط، وإني لمضطرة إلى أن أسهر حتى منتصف الليل، من كل يوم، حتى أحصل على عشائي. ولا أكاد أغمض عيني حتى يوقظني البوق معلناً طلوع الفجر. ليتني أعرف أين يوجد هذا السيد حتى أخبره.»

فقال توم:

ـ «إنه هنا. إنه في كل مكان!»

ـ «لا، أظنك لن تحاول أن تقنعني بذلك. إن السيد ليس هنا.»

قالت ذلك ومضت هي ورفيقتها إلى كوخهما لتناما، وكذلك فعل توم.

ـ 24 ـ

كاسي

لم يكد المقام يستقر بصاحبنا توم، في الموطن الجديد، حتى تجلّت كفايته وسجاياه لكل ذي عينين. فقد كان هذا الزنجي العجوز خبيراً في كل عمل يعهد إليه به، وكان أميناً مخلصاً في كل ما يعمل. صحيح أنه شهد من الظلم والبؤس ما يوقع اليأس في الفؤاد، ولكنه آثر أن ينصرف إلى كدحه، صابراً لا يتململ ولا يتأفف، مسلماً أموره إلى رب العالمين، لا يقطع الرجاء من أن يُفتح له باب من أبواب النجاة، في يوم من الأيام.

وذات صباح، وقد حُشد العبيد للعمل في الحقل، لاحظ توم وافداً جديداً أثار اهتمامه. كانت امرأة فارعة الطول رقيقة البنية، تلبس ثياباً نظيفة محترمة. وكان وجهها يؤذن بأن عمرها يراوح ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين عاماً، وبأن جوانحها تنطوي على مأساة موجعة. لقد كانت على ما يبدو جميلة في صباها الأول، أما اليوم فقد تغضن وجهها بخطوط من الألم، والاحتمال الأبيّ المرير. كانت بشرتها شاحبة مريضة، وكانت وجنتاها مهزولتين، وكان قوامها كله نحيلاً ضعيفاً. ولكن عينيها كانتا أبرز ما يلفت النظر فيها. كانتا شديدتي الكبر، شديدتي السواد، تظللهما أهداب فاحمة تنضح بيأس فاجع. كان ثمة كبرياء شرسة وتحدٍّ متمرد في كل خط من خطوط وجهها، وفي كل انحناءة من انحناءات شفتيها، وفي كل حركة من

حركات جسمها، ولكن في عينيها ليلاً عميقاً ساكناً من اللوعة يتغاير تغايراً مخيفاً مع الازدراء والكبرياء اللذين يؤذن بهما سلوكها كله.

من أين أقبلت؟ ومَن هي؟ ذلك ما لم يعرفه توم. كل ما عرفه أنها كانت تمشي إلى جانبه، منتصبة القامة مرفوعة الرأس، في غَبَش الضحى. أما سائر الأرقاء فكانوا يعرفونها معرفة جيدة إذ ما كادوا يرونها حتى أخذوا يتهامسون ويطلقون التعليقات...

وما هي إلا لحظة حتى انكبّ توم على عمله. وإذ كانت المرأة الغريبة غير بعيدة عنه فقد كان يلقي بين الفينة والفينة، نظرة إليها وإلى شغلها. فإذا به يجدها ذات براعة وخفّة تجعلان الشغل أخف وطأة عليها من كثير من العاملين في الحقل. وكانت تجني القطن في سرعة وفي نظافة، وفي استخفاف، وكأنها تحتقر العمل وتحتقر مهانة الأحوال والظروف التي ألقيت في خضمها.

واتفق أن كان توم يعمل، في بحر ذلك النهار، قرب المرأة الخلاسية التي بيعت معه في سوق النخاسة. كانت في حال من الأسى المزلزل. وكثيراً ما سمعها تصلي، وهي مرتجفة الأوصال، خائرة القوى تكاد تسقط على الأرض، فما كان من توم إلا أن اقترب منها، خلسة، وألقى في سلتها بضع حفنات مما جمعه من القطن.

فقالت المرأة وقد أخذتها الدهشة:

ـ «أوه، لا تفعل! لا تفعل! إن ذلك قد يسبب لك بلاء كثيراً.»

وفي تلك اللحظة أقبل سامبو. لقد بدا وكأنما يحمل حقداً خاصاً على هذه المرأة. وفي لهجة وحشية قال وهو يهز سوطه:

ـ «ما هذا؟ أتحاولين الغش والخداع؟»

ورفس المرأة بعقب حذائه الثقيل ثم ارتد إلى توم فضربه بالسوط على وجهه..

واستأنف عمله، في صمت. ولكن المرأة التي كانت قبل ذلك على حافة الإغماء، سقطت على الأرض مغشياً عليها.

ولم يكد سامبو يراها تسقط حتى هدر:

ـ «سوف أعيد إليها وعيها، وسأعطيها منبهاً أفضل من الكافور.»

وانتزع من سترته دبوساً وغزّ رأسه في لحمها. فأنّت المرأة أنيناً موجعاً ونهضت نصف نهضة. فصاح بها الجلف:

ـ «انهضي أيتها البهيمة واشتغلي وإلا أريتك ما هو أدهى وأمرّ!»

وانقضت لحظات واصلت المرأة بعدها، العمل، في لهفة يائسة. فقال لها الرجل:

ـ «حذار أن تتراخي. أما إذا فعلتِ فثقي أن منيتكِ ستكون الليلة؟»

وسمع توم المرأة تقول:

ـ «ليتها تكون الآن!»

ثم سمعها كرة ثانية تقول:

ـ «آه يا إلهي إلى متى؟ آه، إلهي! لماذا لا تساعدنا؟»

وبرغم علمه بالثمن الباهظ الذي قد يضطر إلى دفعه، تقدم توم إلى الأمام ووضع جميع ما جناه من القطن في سلة المرأة اليائسة. فقالت المرأة:

ـ «لا تفعل! أنت لا تعلم كيف ينتقمون منك!»

فقال توم:

ـ «إني أستطيع أن أحتمل أكثر منكِ.»

ورجع إلى مكانه.

وكانت المرأة الغريبة قد اقتربت من توم، ولمّا سمعت كلماته

الأخيرة حتى رفعت عينيها السوداوين إليه، وركزتهما لحظة عليه. ثم إنها تناولت مقداراً من القطن من سلتها ووضعته في سلة توم.

- «أنت لا تعرف شيئاً عن هذا المكان، ولو قد كنت تعرف إذن لما فعلتَ ما فعلتَ. وعندما تسلخ ههنا شهراً واحداً ستجد نفسك مضطراً إلى أن لا تمدَّ يد المساعدة إلى أحد...»

فقال توم:

- «ولكن المسيح يحرّم ذلك.»

فأجابت المرأة في مرارة:

- «المسيح لا يزور هذه الديار!...»

وابتسمت ابتسامتها الصفراء.

ورأى سامبو حركة المرأة، من بعيد. فسارع إليها، حتى إذا صار على مقربة منها صاح:

- «ماذا؟ ماذا؟ أنتِ تغشّين؟ اذهبي! أنتِ تحت إمرتي الآن. فافتحي عينيكِ وإلا عرفت كيف أؤدبكِ.»

وحدجت المرأة سامبو بعينين تشتعلان غيظاً واحتقاراً، وصاحت به:

- «إلمسني إذا كنت تستطيع! إن لي من القوة ما يجعل لحمك طعاماً للكلاب، أو وقوداً للنيران. يكفي أن أقول كلمة واحدة...»

وألقي الذعر في قلب الرجل، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء:

- «ولأي شيء أنتِ هنا إذن؟ أنا لم أقصد أن أسيء إليكِ، يا سيدتي كاسي!»

وانصرفت المرأة إلى القطاف في سرعة عجيبة. فما كادت

الشمس تميل للغروب حتى كانت سلتها قد امتلأت على الرغم من أنها دست غير مرة مقادير من القطن في سلة توم. وبعد الغسق بفترة غير قصيرة سارت قافلة الأرقاء المتعبة، وقد حمل كل من أفرادها سلته على رأسه، في اتجاه البناء المخصص لخزن القطن ووزنه. وكان ليكري هناك مستغرقاً في الحديث مع سامبو وكويمبو.

قال سامبو:

ـ «يبدو أن ذلك الرجل المدعو توم سوف يُحدث لنا متاعب كثيرة. لقد رأيته ينقل القطن غير مرة، من سلته إلى سلة لوسي. ومثل هذا العمل يُدخل في نفوس الزنوج أنهم مظلومون...».

فقال ليكري هائجاً:

ـ «سوف أؤدبه! سوف آمره بأن يجلد لوسي بالسوط. بيده هو! انتظر قليلاً!»

* * *

في بطء مكدود تقدمت المخلوقات البائسة إلى الغرفة وقدّمت سلالها إلى من يزنها. وكان ليكري يدوّن على لوح حجري أسماء العبيد ومقدار القطن الذي جناه كل منهم.

ووُزنت سلة توم واجتازت الامتحان.. وتقدمت لوسي حاملة سلتها. كانت طافحة تماماً، كما لاحظ ليكري من غير ريب، ومع ذلك فقد صاح بها مغضباً:

ـ «ما هذا أيتها البهيمة الكسول! عدنا إلى النقص! قفي جانباً، وانتظري جزاءكِ!...»

وهنا تقدمت كاسي، وسلمت سلتها في شموخ ولامبالاة... ولم تكد تفعل حتى حدجها ليكري بنظرات ساخرة فسمرت عينيها السوداوين عليه وحركت شفتيها وقالت شيئاً ما بالفرنسية. ولم يفهم

أحد ماذا قالت، ولكن ليكري رفع يده، فيما كانت تتكلم، نصف رفعة، وكأنما يريد أن يضربها. فألقت على يده نظرة ازدراء شرسة، ومضت لسبيلها.

عندئذ صاح ليكري:

- «والآن، تعال إلى هنا يا توم. خذ هذه الجارية واجلدها بالسوط. أما سبب ذلك فأنت تعرفه جيداً...»

فتوسل توم إلى مولاه قائلاً:

- «أرجو أن يعفيني مولاي من هذه المهمة. أنا لم أقم بها من قبل. ولن أقوى على القيام بها أبداً!»

وهاج ليكري وماج، وضرب توم بالسوط على وجهه ضرباً مبرحاً ثم قال:

- «والآن، ألا تزال تصر على القول إنك لا تستطيع؟»

- «أجل، يا سيدي.»

قال توم ذلك ورفع يده ومسح الدم الذي يسيل من وجهه:

- «إني مستعدٌ لأن أعمل، طوال الليل والنهار، أن أعمل ما دام فيَّ عرق ينبض. أما جَلد هذه المرأة فهذا ما لن أقوم به لأني أعتقد أنه عمل خاطئ..»

وذهل ليكري لحظة ثم انفجر:

- «ماذا؟ أيها البهيمة السوداء؟ تقول إنه عمل خاطئ؟ هيا احمل السوط.»

فقال توم:

- «مولاي، في استطاعتك أن تقتلني، إذا شئت. أما أن أرفع يدي على إنسان ما فذلك ما لا أفعله. إني أوثر أن أموت.»

وبرقت عينا ليكري ببريق وحشي وصاح ثائراً:

ـ «حسناً، ها قد جاءكم في آخر الزمان كلب ورع أيها الخطاة. العفو، جاءكم قديس، إنسان نبيل ليحدثكم عن خطاياكم. . . ولكن هل نسيت أيها الوغد، قول الكتاب المقدس: «أيها الخدم أطيعوا أسيادكم.» ألست أنا سيدك؟ ألم أشترك بألف ومئتي دولار نقداً وعدّاً؟ ألست ملكي جسداً وروحاً؟»

قال ذلك ورفس توم رفسة عنيفة بحذائه الغليظ:

ـ «قل لي.»

ورفع توم عينيه إلى السماء، فيما كان الدمع والدم يمتزجان على صفحة وجهه السوداء، وقال:

ـ «لا! لا! لا! إن روحي ليست ملكك، أيها السيد! أنت لم تشترها، أنت لا تستطيع أن تشتريها! لقد اشتراها من هو قادر على حفظها! ومهما تكن من القوة فليس في استطاعتك أن تلحق بي أيما أذى!»

فصاح ليكري:

ـ «لا أستطيع؟»

وضحك ضحكة ساخرة:

ـ «سوف نرى! حسناً. سامبو! كويمبو! اجلدا هذا الكلب جلداً يقصم ظهره ويقعده طوال هذا الشهر!»

وأمسك الزنجيان الضخمان بتوم. . . وصاحت المرأة في ذعر، ونهض الجمع كلهم، فيما كان سامبو وكويمبو يسوقان الرجل العجوز إلى الخارج.

ـ 25 ـ

قصة المرأة نصف الخلاسية

كانت ساعة متأخرة من الليل، وقد انطرح توم على الأرض يئن ويسيل الدم من جراحاته، في غرفة عتيقة مهجورة من مركز حلج القطن، بين قطع الآلات المحطمة، وبالات القطن التالف ونفايات أخرى متراكم بعضها فوق بعض.

وفجأة سمع توم وطء أقدام تدخل الغرفة. فصاح:

ـ «من هذا؟»

وانعكس ضوء فانوس صغير على عينيه، فقال:

ـ «أوه، هذا أنتِ يا سيدتي! ناوليني، بربكِ، قليلاً من الماء!»

ووضعت كاسي الفانوس على الأرض، وصبت الماء من زجاجة كانت معها، ورفعت رأس توم، وقدمت الكوب إليه.

وشرب توم مرة ومرة ومرة، حتى إذا ارتوى قال للمرأة:

ـ «أشكركِ يا سيدتي!»

فقالت كاسي:

ـ «لا تدعُني سيدتك. أنا عبدة بائسة مثلك، بل أشد منك بؤساً. ولكن ما لنا الآن، إن جراحاتك في حاجة إلى عناية.»

كانت المرأة قد عاشت فترة مع ضحايا الوحشية البشرية فهي

تتقن فن تضميد الجراح. وما هي إلا فترة حتى استشعر توم بعض الراحة، فجدد شكره للمرأة، فيما كانت تجلس القرفصاء على الأرض، وقد طغت موجة من اللوعة المريرة على محياها.

وصمتت المرأة برهة، ثم قالت:

ـ «ليس من فائدة أيها الأخ البائس! ليس من فائدة ترجى من هذا الذي كنت تحاول صنعه. لقد كنت شجاعاً، وكان الحق في جانبك، ولكن من العبث الضائع أن تحاول النضال. أنت هنا بين يدي الشيطان. إنه أقوى وإن عليك أن تقلع عن كل محاولة...»

ـ «يا إلهي! وكيف أستطيع ذلك؟»

فقالت المرأة:

ـ «لا فائدة من الابتهال إلى الله. إنه لا يسمع. وأنا أعتقد أنه ليس ثمة إلٰه. وإذا كان هناك إلٰه فليس من شك في أنه ضدنا. كل شيء ضدنا. الأرض والسماء. وكل شيء يدفع بنا إلى الجحيم. فلماذا لا نذهب؟»

وأغمض توم عينيه وارتجف لدى سماعه هذه الكلمات المظلمة الكافرة.

وأردفت المرأة:

ـ «الواقع أنك لا تعرف شيئاً عن هذا المكان، ولكني أنا أعرف. لقد سلخت هنا خمس سنوات، تحت نعل هذا الرجل، وإني لأكرهه كما أكره الشيطان. إنك هنا في مزرعة نائية تبعد عشرة أميال عن أي مزرعة أخرى. وليس ههنا رجل أبيض واحد يستطيع أن يشهد ضدَّ جلادك إذا ما اختار أن يدفنك حياً، أو إذا ما أحرقك بالماء الحار، وقطّعك إرباً إرباً، أو ألقى بك إلى الكلاب تمزقك، أو شنَقَكَ، أو جَلَدَكَ بالسياط حتى تموت. ليس ههنا قانون، إنسانياً كان هذا القانون

أو إلهياً، يستطيع أن يعود عليك أو على أيّ منا بأي فائدة. وهذا الرجل، إنه لا يعفّ عن عمل شيء من الأشياء. يكفي أن أقصّ عليك طرفاً مما شهدت وعرفت في ظله حتى يلفّك الهول من جميع أطرافك. هل أردت أن أعيش إلى جانبه؟ ألم أنشأ تنشئة طيبة؟ ومع ذلك فقد عشت معه هذه السنوات الخمس ولعنت كل لحظة من لحظات حياتي، في الليل والنهار جميعاً. وها قد أتى اليوم بفتاة جديدة، فتاة في الخامسة عشرة، تقول إنها نشأت نشأة دينية، وتزعم أن سيدتها الطيبة علمتها التوراة والأناجيل، وإنها حملت معها الكتاب المقدس إلى هنا ـ ألا فلتنزل عليها اللعنة ولتذهب إلى الجحيم!»

وطوى توم ذراعيه وسط الظلام وجأر:

ـ «أوه يسوع! يسوع أيها السيد! هل نسيتنا نحن المخلوقات البائسة؟ ساعدني، أيها السيد، فأنا أكاد أموت!»

واستطردت المرأة كالحة الوجه:

ـ «ومن هم هؤلاء الكلاب البؤساء الذين تعمل معهم حتى تتألم من أجلهم! إن كلاً منهم خليق بأن ينقلب عليك عند أول فرصة. إنهم جميعاً متوحشون أشداء على بعضهم؟...»

ـ «مساكين! ما الذي جعلهم متوحشين قساة؟ إني لو عشت عيشهم لغدوت مثلهم. لا، لا ياسيدتي. لقد خسرت زوجتي وأولادي، وبيتي وسيداً كريماً. فلست أستطيع أن أخسر السماء أيضاً...»

قال توم ذلك وراح يصلي...

فقالت كاسي:

ـ «أوه يا عزيزي! لقد سمعت كثيراً من هذه الصلوات من قبل، ولكنها تلاشت كلها وتحطمت. ها هي ذي إميلين تحاول أن

تستعصم، وأنت أيضاً ـ ولكن ما الفائدة؟ يجب أن ترضى بالواقع وإلا قُطّعت إرباً إرباً.»

وصمتت كاسي برهة ثم أردفت:

ـ «أنظر إليّ الآن، أنظر إلى حالتي. حسناً لقد نشأت في النعمة والترف، وتعلمت في أحد الأديار الموسيقى والفرنسية والوشي، حتى إذا بلغت الرابعة عشرة توفي والدي. وإذ قصّرت ممتلكاته عن تغطية الديون المتراكمة عليه فقد وضعت في لائحة الممتلكات التي عُرِضَتْ للبيع وفاء لتلك الديون. كانت أُمي أمَة رقيقة، وكان والدي يعتزم إعتاقها ولكن الموت عاجله فلم يفعل. وبعد أن غُيب والدي التراب اصطحبتنا زوجة أبي إلى مزرعة والدها. وكان يتردد إلى هناك، يومياً، محام شاب عهد إليه في إنجاز التركة، كان يتحدّث إليّ بلطف كثير. وذات يوم أقبل معه شاب لم أرَ أجمل منه وجهاً. وتمشيت معه في الحديقة وتجاذبنا أطراف الحديث، فقال لي إنه عرفني قبل دخولي إلى الدير، وإني شغفته حباً، وإنه سوف يكون صديقي ومجيري، ثم إنه اشتراني بألفي دولار، فصرت ملكه راضية القلب، لأني أحببته.

«آه، ما كان أجمله وأنبله. لقد نقلني إلى بيتٍ بديع، ووضع تحت تصرفي الخدم والخيل والعربات وما أشاء من مالٍ وثياب... ولكني كنت أطمع في أن يتزوجني. فحدّثته في ذلك، فأقنعني باستحالته وقال إن إخلاصنا الود هو في ذاته زواج أمام الله. ورزقت منه ولدين: ذكراً دعوناه باسم أبيه هنري وأنثى دعوناها أليزا، ما كان أجملهما وأحلاهما. كان هنري يحبهما حباً جماً، ويقول لي إنه يعتز بي وبهما، وكان يسألني أن ألبسهما أروع ثيابهما ويحملني معهما في عربة مكشوفة وكل همه أن يسمعني إطراء الناس لي ولولديه. آه، كانت أياماً سعيدة جداً. ولكن نجم السعد ما لبث أن مال إلى الأفول. كان لهنري ابن عم جاء إلى نيو أورليانز، وكان صديقاً له

حميماً. ولكني لم أكد أراه حتى استشعرت الخوف منه وأيقنت أنه سيجلب عليَّ الشقاء. وما هي إلا فترة حتى عوَّد هنري قضاء السهرة حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، في بيوت القمار، وقدّمه إلى فتاة ما لبث أن وقع في شباكها... وهنا عرض عليه أن يشتريني ويشتري ولديّ وفاء لديون هنري في المقامرة، تلك الديون التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل زواجه. فباعنا جميعاً!...

«وحين جاءني الوغد حاملاً صك البيع لعنته أمام الله وقلت له إني أؤثر أن أموت على أن أعيش معه، فهدّدني ببيع ولديّ وزعم أنه أحبني منذ وقعت عينه عليّ أول مرة، وأنه ورّط هنري بالديون وأوقعه في شراك امرأة أخرى ليحمله على التخلص مني وبيعي له.

«واستسلمت إليه. كانت يداي مغلولتين ولم يكن الغل الذي يكبلهما غير ولديّ الصغيرين. وهكذا عشت إلى جانبه، أُظهِر له الحب وأكنّ له البغض. ولكن استسلامي لم يجنبني ما كنت أخشاه، فباع الوغد ولديّ. لقد ذهب بي ذات يوم في نزهة حتى إذا عدنا لم أجدهما في المنزل. وحين سألته عنهما قال إنه باعهما، وأراني صك البيع، فثارت ثائرتي ولعنت الله والناس. ويبدو أن ثورتي أوقعت الرعب في فؤاده فأخبرني أن ولديّ قد بيعا فعلاً ولكن إمكانية رؤيتي وجهيهما بعد اليوم رهن بإرادتي ومدى استسلامي إليه. فأخلدت إلى السكينة ونزلت عند حكمه، فأخذ يعللني بالآمال زاعماً أنه يعتزم أن يشتريهما في وقت قريب.

«وفيما كنت مارة ذات يوم بسجن البلدة رأيت جماعة تحتشد حول أحد الأبواب، وسمعت صوت طفل. وفجأة أفلت ولدي من بين أيدي رجلين أو ثلاثة كانت تمسك به، واندفع نحوي باكياً صارخاً وتعلق بي، فلحق به الرجال مهددين متوعدين، وقال أحدهم إنه كان ذاهباً معه إلى السجن وإنه سيلقي عليه هناك درساً لن ينساه.

وحاولت أن أستعطف وأتوسل، فأغرقوا في الضحك وانتزعوا الولد مني وهو ينتحب ويصيح: «ماما! ماما! ماما.» والتفتُّ حولي فرأيت رجلاً قرأت في وجهه شيئاً من الشفقة عليّ، فتضرعت إليه أن يتدخل في الأمر، فهز رأسه وقال إن الرجل يزعم أن الولد قد أعجزه فأراد أن يدخله السجن تأديباً له... وحين رجعت إلى البيت رجوت باتلر أن يعمل شيئاً من أجل ابني، فانفجر يضحك مني ومن لوعتي، فزاغت عيناي واجتاحتني ثورة مجنونة. وأذكر أني رأيت سكيناً على الطاولة، وأذكر وكأني اختطفتها وهجمت عليه... وعندئذٍ اسودّ كل شيء في عيني، ولم أعرف شيئاً بعد ذلك.

«وحين ثبتُ إلى وعيي رأيتني في غرفة نظيفة ولكنها غير غرفتي. ورأيت امرأة عجوزاً سوداء تعنى بي وطبيباً يشرف على معالجتي. وبعد فترة وجدت أنه غادر المكان وتركني في ذلك المنزل لأباع. وكان ذلك هو السر الكامن وراء اهتمامهم بصحتي هذا الاهتمام كله.

«وتمنيت أن لا أشفى، ولكن الحمى ما لبثت أن زايلتني. وعندئذ أخذوا يفرضون عليّ أن أظهر في أجمل حلة، كل يوم. وطفق الرجال يأتون لمشاهدتي ويطرحون عليّ ضروباً من الأسئلة ويتناقشون في الثمن الذي سأباع به. وأخيراً جاء رجل كريم يدعى ستيوارت، وإذ رأى الأسى يقطر من عيني اشتراني ووعدني بأن يبذل غاية جهده لافتداء ولديّ. وحين قصد إلى الفندق الذي كان فيه ابني قيل له إنه بيع لأحد أصحاب المزارع عند نهر بيرل. وكان ذلك آخر ما سمعه عنه. ثم إنه اكتشف مستقر ابنتي... كانت امرأة عجوز تشرف على تنشئتها، فعرض عليها مبلغاً ضخماً من المال ولكنها رفضت أن تبيعها. لقد اكتشف باتلر أن الرجل إنما يرغب في شراء البنت من أجلي فكتب إليّ يقول إنني لن أراها أبدَ الدهر. وكان الكابتن ستيوارت كثير العطف عليّ. وكانت له مزرعة رائعة فحملني إليها.

وفي خلال عام وضعت غلاماً. آه كم أحببت ذلك الغلام. ما كان أشد شبهه بولدي هنري. ولكني كنت قد عقدت العزم ـ أجل كنت قد عقدت العزم على أن لا أدع ولداً من أولادي يعيش حتى يشب عن الطوق، وهكذا حملت الطفل الصغير يوم بلغ عمره أسبوعين اثنين، وقبلته باكية منتحبة ثم أعطيته صبغة الأفيون، وضغطت جسده على صدري فيما يغرق في نومه الأبدي! ولا تسل كيف نحتُ وانتحبت عليه، وكيف رأيت في ما يرى النائم أن إعطائي إياه صبغة الأفيون كان إثماً كبيراً، ولكن ذلك العمل كان من الأشياء القليلة التي لم أندم عليها. لقد أبعدت عنه شبح البؤس والألم. وأي شيء كان في استطاعتي أن أقدمه لذلك الطفل المسكين أفضل من الموت؟! وبعد ذلك انتشرت الكوليرا في البلد، وقضى الكابتن ستيوارت نحبه، ومات كل من كان يحرص على الحياة، في حين عشت أنا، أنا التي وصلت إلى باب الموت. ثم إنهم باعوني في سوق الرقيق، وانتقلت من يد إلى يد، حتى ذبلت وذويت. وأخيراً اشتراني هذا الوغد وحملني إلى هنا. وها أنا ذا كما تراني!»

وصمتت المرأة لحظة، ثم أردفت:

ـ «تقول لي إن هناك إلهاً، إلهاً يرى هذه المظالم كلها. قد يكون ذلك صحيحاً. ولقد كانت راهبات الدير يقلن لي إن هناك يومَ حساب يلقى فيه كل امرئ جزاء عمله وينتقم فيه لنا من الظالمين. إنهم يظنون أن ما نعانيه من آلام ليس بشيء، وأن ما يعانيه أولادنا ليس بشيء أيضاً. ومع ذلك فقد ذرعت الشوارع يوم بدا لي وكأن في قلبي الواحد من الشقاء ما يكفي لإغراق المدينة كلها، وتمنيت لو تقع البيوت على رأسي وتريحني من بلائي. أجل! وفي يوم الحساب سوف أقف أمام الله، شاهدةً ضد أولئك الذين قتلوني وقتلوا أولادي جسداً وروحاً.

«عندما كنت فتاة، اعتقدت أني ورعة تقية. كنت أحب الله والصلاة. أما الآن فأنا روح تائهة تلاحقني الشياطين ليلاً ونهاراً وتدفعني إلى ما ينبغي أن أصنعه، ـ ولسوف أصنعه في يوم من الأيام!» قالت ذلك، وجمعت أصابعها في قوة، وأومضت عيناها الفاحمتان ببريق مجنون. «سوف أبعث به إلى المكان الذي يستحق، ومن طريق مختصرة أيضاً، في ليلة من الليالي، ولو دفعت ثمن ذلك إلقائي في النار وأنا على قيد الحياة.»

ورنّت في أرجاء الغرفة المهجورة ضحكة طويلة متوحّشة، انتهت بتنهدة هستيرية. ثم إن كاسي سقطت على الأرض صريعة نوبة جامحة.

وبعد دقائق ثابت كاسي إلى رشدها واقتربت من توم وقالت:

ـ «هل أستطيع أن أقدم لك أيما خدمة، أيها البائس المسكين؟ هل تطلب مزيداً من الماء؟»

وشرب توم، وتطلع إلى وجهها في إشفاق:

ـ «أوه، يا مولاتي، إني أتمنى لو تذهبين إلى ذلك الذي يستطيع أن يقدم إليك المياه الحية!»

فقالت كاسي، وفي عينيها السوداوين وميض حلم فاجع:

ـ «كنت أرى صورته فوق الهيكل، حين كنت فتاة صغيرة. ولكنه ليس هنا. هنا لا يوجد غير الإثم واليأس الطويل الذي ما ينقضي!»

وتطلّع إليها وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكنها حالت بينه وبين الكلام وقالت:

ـ «لا تتكلم أيها الرجل البائس. حاول أن تنام إذا كنت تستطيع.»

ووضعت مقداراً من الماء في متناوله، وغادرت المكان.

ـ 26 ـ

أمارات وإشارات

كان ليكري جالساً قرب الموقد، في غرفة القعود الكبيرة الرطبة، يعاقر الخمرة، ويدمدم:

ـ «ليت طاعوناً ينزل على رأس سامبو الذي أضاع عليّ مجهود الأيدي الجديدة! إن العبد لن يقدر على معاودة العمل قبل انقضاء أسبوع كامل، ومتى؟ الآن، وفي ذروة الموسم!»

فقال صوت من وراء الكرسي الذي كان يجلس عليه:

ـ «أجل، مثلك أنت!»

كانت كاسي هي صاحبة ذلك الصوت. فلم يكد ليكري يراها حتى قال:

ـ «هاه! أنتِ أيتها الشيطانة! لقد رجعتِ من الحقل، أليس كذلك؟»

فقالت في برود:

ـ «أجل، ولسوف أعمل منذ اليوم ما يحلو لي أيضاً!»

ـ «أنتِ تكذبين، أيتها الفاجرة. واعلمي أنكِ إن لم ترعوي فرضتُ عليكِ العمل كل يوم مع سائر العبيد!»

ـ «إني أفضل ألف مرة أن أعمل مع العبيد على أن أظل تحت حافرك. . .»

ـ «ولكنك تحت حافري على أية حال!... فاجلسي هنا على ركبتي، يا عزيزتي، واسمعي إلى صوت العقل...»

وحدجته كاسي بنظرات شرسة مسعورة وقالت:

ـ «سايمون ليكري، خذ حذرك. أنت خائف مني، وإن لك الحق في ذلك. كن حذراً فإن في غطائي الشيطان!»

وهمست بالكلمات الأخيرة في أذنه همساً.

ودفعها ليكري بعيداً عنه، ونظر إليها نظرات تنضح بغيظ مكبوت:

ـ «على كل حال، يا كاسي، لماذا لا تعاملينني معاملة الصديق كما كنت تفعلين من قبل؟»

وقالت في مرارة:

ـ «كما كنت أفعل من قبل!»

وصمتت فجأة. لقد ثارت في قلبها دنيا من الانفعالات المزلزلة أكرهتها على السكوت.

كانت كاسي تفرض دائماً على ليكري ذلك الضرب من النفوذ الذي تستطيع المرأة القوية الثائرة أن تفرضه على أكثر الرجال وحشية. ولكنها انتهت في الأيام الأخيرة إلى أن تصبح أكثر اهتياجاً وأشد قلقاً، تحت نير عبوديتها الثقيل، فخافها ليكري وهو الذي كان مصاباً بذلك الذعر الخرافي من المخبولين، الشائع كثيراً عند أصحاب العقول القاسية غير المثقفة. وعندما جاء ليكري بإميلين إلى البيت، اشتعلت أقباس العاطفة الأنثوية الخامدة كلها في قلب كاسي المهترئ، فوقفت في جانب الفتاة، وشجر صراع عنيف بينها وبين ليكري وأقسم ليكري ليحملنّها على العمل في الحقل إذا لم تخلد إلى السكينة، فقبلت كاسي التحدي، وعملت هناك يوماً واحداً، كما رأينا، لكي تثبت له استخفافها بوعيده.

وكان الظلم النازل بتوم المسكين قد زاد في نقمتها فوجهت إلى ليكري أعنف اللوم، تلك الليلة. وفيما هما يتشاحنان فتح الباب، ودخل سامبو، حاملاً بيده شيئاً قد لف في ورقة.

فقال ليكري:

ـ «ما هذا، أيها الكلب؟»

ـ «إنها تميمة يا مولاي!»

ـ «ماذا؟»

ـ «إنها إحدى التمائم التي يشتريها العبيد من السحرة والعرافين، فتساعدهم على احتمال آلام الجلد بالسياط. كان يعلقها حول عنقه بخيط أسود.»

وكان ليكري من المؤمنين بالخرافات. فتناول الورقة وفتحها في نرفزة، فإذا في داخلها دولار فضي وخصلة طويلة من شعر مشرق جميل، ـ شعرٍ التفّ، وكأنه شيء حي حول أصابع ليكري.

وفي هياج مباغت وقف ليكري وطفق يجذب خصلة الشعر بعيداً عن أصابعه وكأنها تحرقه وصاح:

ـ «من أين جئت بها؟ أبعدها عن عينيّ. أحرقها! أحرقها!»

وألقى الخصلة في نار الموقد واستطرد:

ـ «لماذا جئتني بها؟ لماذا؟»

وشُدِهَ سامبو ولم يحر جواباً. وتمهلت كاسي، وكانت على وشك أن تغادر الغرفة، وتطلعت إليه في دهشة بالغة.

وصاح ليكري في وجه سامبو:

ـ «حذار أن تأتيني بأي من أشيائك الشيطانية بعد اليوم!»

وتناول الدولار الفضي وطرحه خارج النافذة. ثم إن سامبو غافل

مولاه وركن إلى الفرار، في حين انسلت كاسي إلى حيث كان توم المسكين رغبة منها في مؤاساته، كما قد أسلفنا.

ولكن ما الذي جعل ليكري يثور هذه الثورة كلها لدى رؤيته تلك الخصلة من الشعر؟ لكي نجيب عن ذلك يتعين علينا أن نعود بالقارئ قليلاً إلى الوراء. وتفصيل الأمر أن ليكري الشرس الغليظ القلب تربى في أحضان أم تقية ورعة حاولت جهدها أن تغرس في نفسه روح الإيمان وأن تحببه بالصلاة، وإذ كان أبوه سيئ الخلق مستهتراً فقد اقتفى صاحبنا آثار والده غير مكترث لنصائح أمه. ولم يكد يبلغ مبلغ الرجال حتى فارق أمه وضرب في البحار يلتمس الثروة والمتعة. ولم يرجع إلى أمه بعد ذلك إلا مرة واحدة، فتعلقت به وراحت تصلي لهدايته وإنقاذه من حمأة الإثم والرذيلة.

وأومض في قلب ليكري نور اليقين، ودعته الملائكة إلى استخلاص روحه، وكاد يقتنع بأن التقوى خير وأبقى، ولكن صراعاً ما لبث أن نشب في نفسه، وكُتب النصر للإثم، آخر الأمر، فانقلب ليكري إلى حياة الشرّ أكثر مما كان عليه من قبل. حتى إذا جثت أمه يوماً، وقد بلغ منها اليأس غايته، على قدميه رفسها بعقبيه فخرت على الأرض فاقدة الوعي. عندئذ فرّ ليكري إلى سفينته ولم يعرف من أمر أمه، بعدُ، شيئاً. وفيما كان يعاقر الخمرة، ذات ليلة، مع جماعة من رفاقه السكارى، وُضعت في يده رسالة. وما كاد يفضها حتى برزت منها خصلة طويلة من الشعر الجعد والتفّت على أصابعه. أما الرسالة فقد حملت إليه نعي أمه، وأنها غفرت له وهي على فراش الموت.

وسرت الرعدة في أوصال ليكري. ثم إنه أحرق خصلة الشعر، وأحرق الرسالة. وفيما كان يرى النار تأكلها ارتجف جسده ارتجافاً مزلزلاً، وتراءت له من خلال هذا المشهد نار السعير التي يصلاها المجرمون. وفزع إلى الشراب يلتمس بواسطته النسيان، ولكنه كان

كثيراً ما يتمثل في ظلام الليل البهيم أمه الشاحبة قائمة إلى جانب فراشه، ويستشعر التفاف شعرها التفافاً رفيقاً حول أصابعه، حتى ليتصبب العرق البارد على وجهه، ويثب من فراشه خائفاً مذعوراً.

تلك قصة ليكري، في إيجاز كثير.

ولم يكد ليكري يجد نفسه، وحيداً، بعد أن غادر سامبو وكاسي الغرفة، حتى انفجر:

ـ «من أين أتى بها؟ لقد حسبت أني نسيتها! ألا لعنة الله عليّ إذا كنت أعتقد أن في مقدوري النسيان! وعلى أي حال، أنا الآن وحدي. من أجل ذلك سوف أدعو إميلين. إنها تكرهني. يا لها من قردة! ولكني لا أبالي، سوف أحملها على أن تجيء!»

واندفع ليكري إلى خارج الغرفة، وأخذ يرتقي السلم. وإذا به يسمع صوتاً ينطلق بالغناء فوقف متمهلاً، وأصاخ. كان الصوت يتغنى، رقيقاً شجياً، بترتيلة من تلك التراتيل الشائعة بين الزنوج:

«أوه، سيكون ثمة انتحاب، انتحاب، انتحاب،

«أوه، سيكون ثمة انتحاب يوم يجلس المسيح للحساب!»

وهدر ليكري:

ـ «لعنة الله على الفتاة. سوف أخنقها.»

ثم صاح بصوت أجش:

ـ «إميلين! إميلين!»

فلم يردّ عليه غير صدى ساخر رجّعته الجدران. وواصل الصوت العذب إنشاده:

«هناك ينفصل الآباء عن الأبناء!

«هناك ينفصل الآباء عن الأبناء!

«ينفصلون لغير ما لقاء.»

ثم عاد الصوت يتغنّى باللازمة:

«أوه، سيكون ثمة انتحاب، انتحاب، انتحاب!»

«أوه، سيكون ثمة انتحاب يوم يجلس المسيح للحساب!»

وجمد ليكري في مكانه. كان خليقاً بأن يستحيي من أن يروي على مسمع من أحد ما جرى له: لقد علت جبينه حبات كبيرة من العرق، ووجف قلبه وجيفاً شديداً، وخيّل إليه أنه رأى شيئاً أبيض يرتفع ويضيء الظلمة من حوله. وارتعدت أوصاله حين خطر بباله أن شبح أمه الميتة قد يبرز له.

وحين انقلب ليكري إلى حجرة القعود قال في ذات نفسه: «أنا واثق من شيء واحد. هو أني سأترك هذا الرجل وحده، بعد اليوم! وما الذي كان يهمني من ورقته اللعينة؟ لا شك أنني قد سُحرت. فأنا لم تزايلني الرعدة ولم يزايلني العرق منذ تلك اللحظة! من أين أتى بتلك الخصلة من الشعر؟ إنها لا يمكن أن تكون تلك! لقد أحرقتُ تلك بالنار. أنا واثق من ذلك. وإنه لأمر مضحك أن يزعم المرء أن في ميسور الشعر أن يُبعث حياً بعد أن يموت!»

وصفر ليكري للكلاب وصاح:

ـ «ابقوا معي، لازموني!»

ولكن الكلاب اكتفت بأن فتحت عيناً واحدة ناعسة، ثم أغمضتها وغرقت في الرقاد.

وقال ليكري:

ـ «سوف آتي بسامبو وكويمبو إلى هنا ليغنيا ويرقصا بعض رقصاتهما الجهنمية، وبذلك أطرد هذه الأفكار من رأسي...»

ولبس قبعته، وقصد إلى الشرفة، ونفخ في بوق تعوّد أن يستدعي به خادميه المقربين.

وفيما كانت كاسي عائدة من غرفة توم، في نحو الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل، سمعت صياحاً عالياً وعربدة وغناء صادراً من حجرة الجلوس. فارتقت سلم الشرفة وألقت نظرة على الغرفة فألفت ليكري وخادميه في حال من السكر الشديد يغنون، ويرقصون ويقلبون الكراسي رأساً على عقب.

فقالت في ذات نفسها:

ـ «أيكون إثماً أن يراح العالم من مثل هذا الوغد اللئيم؟»

ثم انطلقت في خفة وارتقت السلم قاصدةً إلى غرفة إميلين.

ـ 27 ـ

إميلين وكاسي

دخلت كاسي الغرفة فوجدت إميلين جالسة، والرعب يلفها، في أقصى زاوية من زواياها. وانتفضت الفتاة بادئ الأمر، حتى إذا تبينت وجه كاسي اندفعت نحوها وتعلقت بذراعها وقالت:

ـ «أوه كاسي، أهذه أنتِ؟ شد ما أنا سعيدة بمجيئك. كنت أخشى أن يكون هو القادم. أوه، أنتِ لا تعرفين أي ضجة مخيفة كانت تسمع من الدور السفلي طوال هذه الليلة!»

فقالت كاسي:

ـ «وكيف لا أعرفها، لقد سمعت نظيرها مئات المرات...»

ـ «أوه، كاسي، أليس من سبيل إلى أن نفرّ بأنفسنا من هذا البيت؟ أليس من سبيل إلى أن نفر إلى المستنقع حيث الحيات والثعابين، أو إلى أيما مكان بعيد من هنا؟»

فقالت كاسي:

ـ «ليس في استطاعتنا أن نفرّ إلى أيما مكان غير قبورنا!»

ـ «وهل حاولتِ ذلك يوماً؟»

ـ «لقد رأيت كثيراً من الأرقاء يحاولون. وعرفت النتيجة.»

فقالت إميلين:

ـ «إني لأوثر أن أعيش في المستنقعات، وأن أقضم لحاء

الشجر. أنا لست خائفة من الحياة. أنا أفضل أن أحيا إلى جانب ثعبان من الثعابين على أن أعيش قرب ليكري...»

ـ «لقد كان ههنا كثير ممن يشاركونك هذا الرأي. ولكنكِ لن تستطيعي البقاء في المستنقعات. إن الكلاب خليقة بأن تتعقب آثاركِ، وتعود بكِ إلى هنا، وعندئذ... وعندئذ...»

فصاحت الجارية وهي تتطلع مبهورة النفس في وجهها:

ـ «ما الذي يفعله عندئذ؟»

فقالت كاسي:

ـ «الأصح أن تسألي: وما الذي يتورع عن فعله؟ لقد أتقن الصناعة جيداً بفضل حياته مع القرصان في جزائر الهند الغربية. ولو رويت لك بعض ما شهدته من أشياء، إذن لما غمضت عيناكِ. لقد سمعت ههنا عويلاً لم أستطع أن أذوده عن أذني طوال أسابيع وأسابيع. وقد لا تعلمين أن ثمة مكاناً بعيداً بعض الشيء عن هذا المنزل، تقوم في وسطه شجرة سوداء يابسة، وتغطي أرضه كلها طبقة من الرماد الأسود. وفي ميسوركِ أن تسألي من تشائين عن الفظائع التي ارتُكبت هناك، وسترين ما إذا كان يجرؤ على أن يجيبكِ.»

ـ «ولكن ما معنى هذا كله؟»

ـ «لن أخبركِ، إني أكره مجرد التفكير في ذلك. وإني لأصارحكِ بأن الله وحده هو الذي يعلم بما قد تراه أعيننا، في الغد القريب.»

وغاض الدم من وجه إميلين وقالت:

ـ «شيء مخيف! أوه، كاسي أخبريني ما الذي ينبغي أن أفعله؟»

ـ «ما فعلته أنا. اعملي أقصى ما تستطيعين عمله. اعملي ما ينبغي أن يُعمل، واعمليه في بغض وتجديف.»

فقالت إميلين:

- «إنه يُكرهني على أن أعاقر الخمر معه... وإني لأكرهها...»

فأجابت كاسي:

- «من الخير لك أن تشربي. لقد كنت أكرهها أيضاً. أما اليوم فأنا لا أستطيع أن أعيش بدونها... ذلك أن الأمور لا تبدو مخيفة جداً حين يحتسي المرء كأساً من الخمر!»

- «ولكنّ أمي كانت تقول إن عليّ أن لا أقرب هذه الأشياء...»

- «كذلك كانت أمي تقول أيضاً.» قالت كاسي ذلك مشدّدة على لفظة الأم. «ولكن لِمَ تُتعب الأمهات أنفسهن بالنصائح والتوجيهات؟ إنكم جميعاً سوف تباعون، وتُدفع أثمانكم وتصبح نفوسكم مِلكاً لكلّ من يقدر على استرقاقكم. هكذا تجري الأمور هنا. ومن أجل ذلك أقول اشربي الخمرة، اشربي منها أكبر قدر مستطاع، ففي ذلك ما يجعل الحياة أخف وطأة، وأيسر احتمالاً.»

وفي صباح اليوم التالي دخلت كاسي على ليكري - وكان قد رأى فيما يرى النائم وجهاً محجباً هو وجه أمه يمدّ يداً رفيقة إليه، وأن تلك الخصلة من الشعر تلتف حول أصابعه ثم تطوّق عنقه وتضغط عليها في شدة حتى لتكاد تخنقه، وأن كاسي قد ألقت به في جبٍّ مخيف لا قرار له - وقالت له:

- «والآن يا سايمون، عندي نصيحة لك!»

- «وما هي؟»

- «أن تترك توم وشأنه.»

- «ولكن ما الذي يهمكِ من أمر توم؟»

- «ماذا؟ أنسيت أننا في أوج الموسم، وأنه ليس من مصلحتك أن تجعل أنشط أيديك مغلولةً عاطلةً، في حين يبذل منافسوك الجهد للفوز عليك في هذا الميدان؟»

وكان لليكري، شأنَ كثير المزارعين، مطمح واحد هو أن يخرج من الموسم بأغنى محصول مستطاع. وكان مرتبطاً بعدة مراهنات حول هذا الموسم بالذات، ومن هنا اقتنع بكلام كاسي في سهولة ويسر وقال:

ـ «حسناً، سأخلي سبيله، ولكن من الواجب عليه أن يسألني العفو وأن يعدني بأن ينهج منذ اليوم نهجاً أفضل.»

فقالت كاسي:

ـ «ذلك شيء لن يقبل به.»

ـ «لا يقبل به؟ إني أريد أن أعرف لماذا يا سيدتي؟...»

ـ «لأنه عملَ ما هو صواب. فمن المتعذر عليه أن يزعم أنه أخطأ.»

ـ «ولكنه سوف يفعل. سوف يفعل من غير شك. أنا أعلم الناس بالزنوج. وسترين أنه سيلتمس العفو مني، كالكلب، هذا الصباح.»

فقالت كاسي:

ـ «إنه لن يفعل. أنت لا تعرف هذه الفئة. إنه يفضل أن يقطّع إرباً إرباً، على أن يدلي باعتراف كهذا.»

ـ «سنرى.»

قال ليكري ذلك وذهب إلى الغرفة التي أُلقي فيها توم.

* * *

كانت أنوار الضحى قد نفذت إلى تلك الغرفة المهجورة عندما بدا للعبد العامر القلب بالإيمان أن وفاته غدت وشيكة، فخفق قلبه بالبهجة والمسرة، واستعد للقاء ربه العظيم...

وإنه لكذلك إد دخل عليه مولاه، ليكري، ورفسه برجله في ازدراء وقال:

ـ «حسناً، توم، كيف تجد نفسك الآن. . . أحسب أن الدرس الذي أعطِيته كان كافياً!»

واعتصم توم بالصمت.

فصاح به ليكري:

ـ «انهض أيها الحيوان!»

ورفسه برجله من جديد.

وتحامل توم على نفسه ونهض، وواجه مولاه مرفوع الجبين. فتطلع إليه ليكري شزراً وقال:

ـ «ما زلت قادراً على أن تقف هذه الوقفة، هيه! يبدو أنك لم تنل ما فيه الكفاية بعد. حسناً، اركع الآن واطلب العفو عما بدر منك الليلة البارحة!»

ولم يتحرك توم.

ـ «اركع أيها الكلب!»

وضربه بسوطه.

فقال توم:

ـ «مولاي. أنا لا أستطيع. لقد فعلت ما اعتقدت أنه الحق. ولسوف أقف الموقف نفسه، إذا ما اضطررت إلى ذلك في المستقبل. . .»

ـ «إذن، فما قولك لو شددت وثاقك إلى جذع شجرة، وأضرمت النار من حولك؟ إنه لمشهد جميل. . . أليس كذلك؟»

فأجاب توم:

ـ «مولاي. أنا أعرف أن في استطاعتك أن تنزل بي أفظع الانتقام، ولكن بعد أن قتلت الجسد لم يبقَ شيء تستطيع أن تعمله.

إنني مستعد أن أهب لك نشاطي كله، ووقتي كله، وقوتي كلها، أما نفسي فأرفض أن أقدمها إلى أيما مخلوق فانٍ. إني سأقدمها إلى الله، وأنفذ أوامره قبل كل شيء، سواء أعشت أو مت. وفي ميسورك يا مولاي، أن تثق أني لا أخاف الموت، البتة. إنك تستطيع أن تجلدني بالسياط، أن تجوعني، أن تحرقني، ولكن ذلك لا يسوؤني. على العكس، إنه يعجل في ذهابي إلى ذلك العالم الذي أحبّ أن أذهب إليه.»

- 28 -

النصر

لم يكد توم يعود إلى الحقل يكدح من الضحى إلى ساعة متأخرة من الليل حتى عاوده الضعف البشري فتمثلت له مأساته فاجعةً مخيفة، وران على فؤاده الغم والأسى. لقد فكر في الرسالة التي كتبتها الآنسة أوفيليا إلى أصدقائه في كانتاكي، وتضرع إلى الله أن يبعث إليه من يخلصه من حمأة الشقاء التي يتردى فيها. وطفق يترقب ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، أن يطلع عليه من يفتديه ويستنقذه، حتى إذا لم يجد غير سراب الآمال الخادعة ساورته شكوك مريرة كان يعمل جاهداً على سحقها، فهي تلقي في روعه حيناً أن من العبث الذي لا طائل تحته أن يقيم على تقوى الإله، وهي تهمس في ذات نفسه حيناً أن الله قد نسيه وتخلى عنه وهو في قلب المعركة.

والواقع أنه حين تنوء النفس بثقل ثقيل يُعجزها احتماله تتألب مجهودات كل عصب من الأعصاب الجسمانية والمعنوية، في حملة شعواء يائسة، لزحزحة ذلك الثقل الذي يقصم ظهر المرء، ويقض مضجعه، ومن هنا جاز أن يكون أشد الكرب وأوجعه مقدمة لمرحلة جديدة من البِشر والشجاعة. وهذا ما وقع لتوم بالذات. كانت المظالم التي تفنّن مولاه في إنزالها به قد أوفت على الغاية من الوحشية والبشاعة. وكانت يد الإيمان لا تزال متمسكة بالصخرة

الأزلية، ولكن بقبضة خدرة دبَّ في عروقها اليأس المرير، وكان يجلس موزع النفس، شارد اللب، إلى جانب النار، حين بدا له وكأن كل شيء قد خبا من حوله، وبرزت له طلعة مشرقة يتوجها إكليل من الأشواك، ويسيل الدم من جراحاتها. وأمعن توم النظر، في ذعر، إلى الصبر المهيب الذي يطبع ذلك الوجه، وهزت العينان العميقتان الناضحتان بالأسى كيانه كله، فاستيقظت روحه وبسط يديه وجثا على قدميه، فيما كانت الرؤيا تحول تدريجياً وتتغير، فإذا بالأشواك الحادة أشعة من بهاء ومجد، وإذا بذلك الوجه نفسه ينثني نحوه في رفق وحنان، وإذا بصوت يقول: «طوبى لمن يصبر ويقاوم لأنه يجلس معي على عرشي!»

وحين ثاب توم إلى نفسه كانت النار قد خمدت، وكانت ثيابه ندية بالعرق الغزير. ولكن أزمة الروح المخيفة كانت قد انقضت، وملأ جوانب نفسه بشر وابتهاج علويان، فهو لا يستشعر، بعد، جوعاً أو برداً أو تحقيراً أو خيبة أو تعاسة. وتطلع توم في خشوع إلى كواكب السماء الخالدة، التي ما تفتأ ترعى الإنسان وتلقي بأنظارها الملائكية إليه، ثم راح يتغنى، في سكون الليل الجليل، بكلمات تلك الترنيمة التي تعوّد إنشادها في أيامه السالفة، وقد غمره إحساس لم يستشعر مثله قبل اليوم:

«إن الأرض سوف تذوب كالثلج

وإن الشمس سوف تنطفئ أنوارها

ولكن الله الذي دعاني، هنا، إليه

سوف يكون لي إلى الأبد!»

وحين ارتفع الضحى واستيقظ النائمون من سباتهم ليهرعوا إلى الحقل كان بين أولئك البائسين المرتجفين من البرد رجل يمشي في

خطى جذلة، متهللة، لأن إيمانه بالعلي القدير، بالحب الأزلي، كان أثبت من الأرض التي يسير عليها.

ومنذ تلك اللحظة اكتنفت قلب ذلك المعذب في الأرض رقعة سلام لا سبيل إلى انتهاك حرمتها. لقد زالت الآن أحزان ذلك القلب وآماله ومخاوفه ورغباته، وامتزجت تلك الإرادة البشرية، التي طالما قُهرت وناضلت، امتزاجاً كلياً بالإرادة الإلهية فهي جزء منها.

ولاحظ ليكري وأرقاؤه جميعاً هذا التطور الذي طرأ على نفسية توم. وحاروا في تفسيره وتعليله. وفيما كان ليكري عائداً ذات ليلة من رحلة قام بها على الفرس إلى المدينة المجاورة ـ وكانت الليلة قمراء والنسيم عليلاً ـ سمع توم يتغنى بإحدى التراتيل الشجية، فرفع سوطه في وجهه وصاح:

ـ «كيف تجرؤ على أن تطلق صوتك بالغناء في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ أغلق فمك الأسود واذهب إلى فراشك!»

وقال توم:

ـ «نعم يا مولاي!»

ونهض جذلاً مستبشراً. كان توم غارقاً في نوم هادئ عميق حين أيقظته كاسي، من شباك الغرفة، ودعته إلى الخروج.

كانت الساعة تراوح ما بين الواحدة والثانية بعد منتصف الليل. ولاحظ توم، فيما كان ضوء القمر ينعكس على عيني كاسي الواسعتين السوداوين، أن بريقاً وحشياً هائجاً يعصف بهما.

ـ «تعال إلى هنا، أيها الأب توم!» ومدت يدها الصغيرة إلى معصمه وجذبته إلى الأمام في قوة وكأنما قُدّت يدها من فولاذ. «تعال إلى هنا. إن عندي أخباراً أريد أن أنقلها إليك!»

فقال توم في قلق:

ـ «وما تلك، يا كاسي؟»

ـ «توم، ألا تريد أن تنعم بحريتك؟»

فقال توم:

ـ «سوف أنعم بها في وقت قريب. . .»

ـ «ولكن في استطاعتك أن تنعم بها الليلة. هيا!»

وتردد توم.

فركزت عينيها السوداوين عليه وهمست في أذنه:

ـ «تعال! إنه نائم ملء جفنيه. لقد سقيته مقداراً ضخماً من البراندي حتى يغرق في نوم طويل. تعال! إن الباب الخلفي غير موصد. إن هناك فأساً. لقد وضعتها أنا هناك. إن باب غرفته لمشرع، وإني سوف أدلك على الطريق. لقد كنت جديرة بأن أتولى بنفسي القيام بهذه المهمة ولكن ذراعيّ ضعيفتان. تعال! تعال!»

ـ «لا، لا، يا سيدتي. لن ألوث يدي بالدم ولو أعطِيت الدنيا بكاملها!»

فقالت كاسي:

ـ «ولكن فكر في هذه المخلوقات البشرية البائسة. إننا قد نوفق إلى تحريرهم جميعاً ونذهب إلى مكان ما من المستنقعات ونقع على جزيرة نستطيع أن نعيش فيها في عزلة عن العالم. . .»

وفي حزم قال توم:

ـ «لا. لا. إن الخير ليس ينبثق أيضاً عن الشر. إني أوثر أن أقطع يميني قبل أن أقترف هذا المنكر!»

فقالت:

ـ «إذن، سأنهض بهذه المهمة بنفسي. . .»

ـ «أوه كاسي، من أجل المخلص الذي مات في سبيلكِ لا تبيعي روحكِ الثمينة للشيطان. إن هذا الصنيع لن يثمر غير الشر. إن الإله لم يدعُنا إلى الاقتصاص من أعدائنا. يجب أن نتعذب وننتظر حتى يجيء زمانه...»

فقالت كاسي:

ـ «أنتظرُ! ألم أنتظر حتى لقد زاغ رأسي ومرض فؤادي؟ لماذا يفرض عليَّ أن أتعذب؟ لماذا يفرض على مئات من المخلوقات التعسة أن تتعذب؟ أليس يمتص دم الحياة منك امتصاصاً؟ لا، لقد دُعيت إلى العمل، إنهم يدعونني. لقد جاءت ساعته. ولسوف أسفح دمه!»

فأمسك توم بيديها الصغيرتين وصاح:

ـ «لا، لا، أيتها النفس الضالة المسكينة. إن يسوع لم يسفح غير دمه هو، وإنما فعل ذلك من أجلنا يوم كنا أعداءه. فاللهم ساعدنا على أن نقتفي آثاره، ونحب أعداءنا!»

فقالت كاسي، وقد لمعت عيناها ببريق ضارٍ:

ـ «نحب؟ نحب مثل هؤلاء الأعداء! ذلك ما لا طاقة للحم والدم به.»

ـ «لا، يا سيدتي. ليس ذلك متعذراً. ولكنه هو الذي يهبنا القوة على هذا. وذلك هو النصر. فعندما تتم لنا القدرة على أن نحب الجميع ونصلّي من أجل الجميع فعندئذ تنقضي المعركة ويبزغ فجر النصر. ليكن المجد لله!»

وبعينين دامعتين وصوت مختنق رفع الرجل الأسود بصره إلى السماء.

وسقطت دموع توم سقوط الندى على تلك الروح القلقة الهائجة.

فخمدت النار المضطرمة في عينيها، وأطرقت إلى الأرض، وأحس توم بعضلات يديها تسترخي، فيما كانت تقول:

ـ «ألم أقل لك إن الأرواح الشريرة موكلة بي؟ أوه، أيها الأب توم. إني لا أستطيع أن أصلي، إني لأتمنى لو كنت أستطيع. أنا لم أُصلِّ منذ ذلك اليوم الذي شهد بيع ولديّ! إن ما تقوله هو الحق. ولكن حين أحاول أن أصلي أجدني غير قادرة إلا أن أكره وألعن. أنا لا أستطيع أن أصلي!»

فقال توم في حنان:

ـ «أيتها الروح البائسة. إن الشيطان يريد أن يتخطّفك وإني لأصلي للرب من أجلك.»

ووقفت كاسي صامتة، بينا انحدرت على خديها دموع كبيرة ثقيلة.

وقال توم في لهجة المتردد:

ـ «سيدتي، إذا كان في استطاعتك فعلاً أن تفري من هنا فإني أنصح لك بأن تهربي مع إميلين، أعني إذا كان في إمكانكما أن تفعلا ذلك من غير إراقة للدم...»

وهل تحاول ذلك معنا أيها الأب توم؟»

ـ «لا. لقد كلفني الرب القيام بعمل ما بين هؤلاء البائسين. ولسوف أبقى إلى جانبهم، وأحمل صليبي معهم حتى النهاية. إن الأمر مختلف بالنسبة إليكما. إنه أمرٌ قاسٍ، وليس في طاقتكما الصبر عليه. ومن الخير لكما أن تذهبا إذا كان ذلك مستطاعاً.»

فقالت كاسي:

ـ «لست أعرف سبيلاً إلى ذلك غير القبر. إن أحقر الحيوانات والطيور لتجد لها منزلاً في مكان ما. حتى الحيات والتماسيح لها

مواطنها التي تفزع إليها وتلتمس فيها الراحة والهدوء. أما نحن فليس لنا منزل نأوي إليه. إذا ذهبنا إلى المستنقعات المظلمة تعقبتنا كلابهم ومزقتنا تمزيقاً. إن كل إنسان وكل شيء ضدّنا. حتى البهائم نفسها عدوّ لنا. فإلى أين نذهب؟»

وصمت توم لحظة. وأخيراً قال:

ـ «إن الذي أنقذ دانيال من مخالب الأسود... إن الذي سار على الماء، وأمر الرياح بأن تهدأ لم يمت. إنه حي ما يزال! وإني لموقن أن في استطاعته أن ينقذكما. حاولا، ولسوف أصلي، بكامل قوتي، من أجلكما.»

ما أعجب قانون العقل الذي يقضي بأن تلتمع في رؤوسنا فجأة، وعلى ضوء جديد، فكرة طالما أغفلناها ودسناها بأقدامنا وكأنها حصاة لا تُغني، فإذا الحصاة الحقيرة ماسة تبهر الأنظار وتأخذ بمجامع القلوب!

لقد أدارت كاسي في ذهنها، طوال ساعات، مختلف الخطط التي يمكن اصطناعها للهرب من ذلك الجحيم، ولكنها استبعدتها جميعاً بوصفها يائسة وغير قابلة للتنفيذ. ولكن خطة لمعت في ذهنها، في تلك اللحظة. خطة كانت من البساطة والسهولة بحيث ملأت نفسها بأمل كبير.

وقالت كاسي فجأة:

ـ «أيها الأب توم. سأحاول ذلك!»

فقال توم:

ـ «آمين! ليساعدك الرب!»

ـ 29 ـ

الخدعة

كانت سماوة(*) بيت ليكري مكاناً عريضاً مهجوراً تعلوه طبقة كثيفة من الغبار، وتتدلى في جنباته أنسجة العنكبوت، وتتراكم فوقه ضروب الأمتعة وصنوف الأثاث. ذلك أن أصحاب البيت الأولين كانوا قد حملوا إليه مقداراً كبيراً من فاخر الرياش استعادوا قسماً منه عند بيعهم البيت، وخلفوا القسم الآخر. وكان في جانبي السماوة صندوقان كبيران من تلكم الصناديق التي جُلب فيها الأثاث. وكان ثمة نافذة صغيرة يعلوها الغبار وتخترقها أشعة ضعيفة تنعكس على المناضد والكراسي ذوات المساند العالية التي شهدت في يوم من الأيام عهوداً أزهى وأفضل. كانت السماوة في الجملة محلاً موحشاً يوقع في نفس الداخل أنه انتهى إلى موطن مسحور آهل بالأشباح والأرواح. وإلى ذلك فقد ارتبط تاريخ هذا الجزء من بيت ليكري بخرافات ذاع ذكرها بين الزنوج، الميّالين إلى الأخذ بالأوهام والأساطير. فمُلِئوا منه رعباً وذعراً. وقبل بضع سنوات حُبست فيه امرأة زنجية استثارت غضب ليكري. أما ما جرى لها فهذا ما نمسك عن التصريح به. كان الأرقاء يتهامسون إذا خلا بعضهم إلى بعض. ولكن الشيء الراهن أن جسد تلك المخلوقة السيئة الطالع أخرج، في

(*) السماوة: الطبقة القائمة تحت السقف.

يوم، من هناك، ودُس في التراب. وقيل بعد ذلك إن لعنات وضربات عنيفة كانت ترنّ في جنبات السماوة العتيقة وتختلط أصداؤها بفيض من الأنين المثير والانتحاب اليائس. وقد سمع ليكري بعض هذه الأقاويل فارتاع وأخذته الرجفة وأقسم لا يسمع أحداً يروي أيما قصة عن تلك السماوة إلا شد وثاقه وألقاه فيها طوال أسبوع. . .

ومع الأيام هُجر السلم المؤدي إلى السماوة، بل هجر المجاز الموصل إلى السلم، ودخلت الأسطورة في مطاوي النسيان. وفجأة خطر لكاسي أن تفيد من سلطان الخرافة على نفس ليكري لانتزاع حريتها وحرية زميلتها في العذاب.

كانت حجرة النوم الخاصة بكاسي تقع تحت السماوة مباشرة. وفي ذات يوم أصدرت أمرها إلى الخدم بأن ينقلوا رياش الغرفة كله إلى غرفة أخرى بعيدة. وفيما هم منهمكون في ذلك رآهم ليكري وكان عائداً من نزهة، فسأل كاسي عن السبب الذي من أجله رغبت في الانتقال إلى غرفة جديدة فقالت:

ـ «لأني بت مشتاقة إلى أن أنعم بشيء من النوم. . .»

ـ «النوم؟ حسناً. ولكن ما الذي يحول بينكِ وبين النوم؟»

فقالت كاسي:

ـ «إذا كنت تصر على أن تعرف حدثتك عن ذلك!»

فصاح ليكري:

ـ «تحدّثي، أيتها الخبيثة!»

ـ «أوه، لا شيء، أحسب أن ذلك لن يقلقك. كل ما هنالك بعض الأنات المزعجة، وبعض الناس الذين يتخاصمون ويتدحرجون على أرض السماوة، في منتصف الليل، من الثانية عشرة حتى الصباح!»

فتساءل ليكري في قلق، وهو يتكلف الضحك:

ـ «بعض الناس في سماوة البيت؟ ومن يكون هؤلاء؟»

ورفعت كاسي عينيها السوداوين الحادتين ونظرت إلى وجه ليكري نظرات استشعر أنها تنفذ إلى عظمه:

ـ «صحيح يا سايمون، من هم؟ أريد منك أن تخبرني. أنت لا تعرف، في ما أظن!»

وحاول ليكري أن يضربها بسوطه، ولكنها انسلت في خفة واجتازت الباب ثم تلفتت إلى الوراء وقالت:

ـ «لو نمتَ في تلك الغرفة إذن لعرفت كل شيء عنهم. ولعل من الخير لك أن تجرب يوماً!»

وأغلقت الباب خلفها في الحال.

وأرغى ليكري وأزبد، وتوعد بأن يكسر الباب، ولكنه ما لبث أن آثر العافية ومضى إلى حجرة الجلوس. وأدركت كاسي أن سهمها لم يطش، فأقامت منذ ذلك الحين على تحطيم أعصاب مضطهدها تحطيماً موصولاً.

وكانت قد أدخلت في ثقب من ثقوب السماوة عنق زجاجة قديمة، على نحو من الانحناء بحيث لا تكاد الريح تهب خفيفة رقيقة حتى ينبعث منها أنين موجع مثير، لا يلبث أن يتحول حين يشتد عزيف الرياح إلى صراخ راعب مخيف.

وكان الأرقاء يسمعون هذه الأصوات حيناً بعد حين، فتحيي في مخيلتهم ذكرى أسطورة الأرواح القديمة... وما هي إلا فترة حتى ملأ البيت ذعرٌ خرافي ماحق. وعلى الرغم من أن أحداً لم يجرؤ على أن يهمس بذلك في أذن ليكري، فقد وجد نفسه مطوّقاً بها.

وبعد ليلة أو ليلتين كان ليكري جالساً في حجرة القعود العتيقة

قرب النار. كانت الليلة عاصفة، وكانت الرياح تتلاعب بالنوافذ وتكاد تحطمها، وتهز المدخنة وتوشك أن تقتلعها، وتثير الدخان والرماد، بين الفينة والفينة، وكأن كتيبة من العفاريت كانت تجري وراءهما. وكان ليكري قد أمضى بضع ساعات يحسب ويقرأ الصحف، في حين جلست كاسي في الزاوية تحدق، جاهمة الوجه، إلى النار. وألقى ليكري صحيفته، وتناول كتاباً كان قد رأى كاسي تطالعه في القسم الأول من الليل، وأخذ يتصفحه. وكان الكتاب حلقة من تلك السلاسل التي تقدِّم إلى القراء ضروباً من الروايات الإجرامية الدامية، والحكايات المروعة عن الأشباح والأرواح وما إليها.

واستهوت القصة ليكري فراح يقرأ ويقرأ حتى إذا أدركه الكلال طرح الكتاب جانباً وتساءل:

ـ «أنتِ لا تؤمنين بالأرواح يا كاسي، أليس كذلك؟ إن ما يسمونه أرواحاً وعفاريت ليس في الواقع إلا فئراناً ورياحاً. إن الفئران لتحدث ضجة شيطانية هائلة، وكثيراً ما كنت أسمع صخبها وضجيجها في عنبر السفينة. أما الرياح، فحدثي عنها ولا حرج. إن في استطاعتكِ أن تستخرجي أيما شيء تريدينه من الريح.»

واعتصمت كاسي بالصمت، وحدقت إلى وجهه تحديقاً شديداً لعلمها بأن سايمون يستشعر القلق والجزع تحت عينيها. فصاح ليكري:

ـ «تكلمي أيتها المرأة. ألا تعتقدين ذلك؟»

وهنا قالت كاسي:

ـ «هل تستطيع الفئران أن تهبط السلم وتجري عبر المدخل وتفتح باباً كنت قد أوصدته ووضعت كرسياً خلفه، ثم تسير وتسير وتسبر حتى تبلغ مضجعك وتمد أيديها هكذا؟...»

وظلت كاسي تحدق إلى وجه ليكري، وهي تتحدث. وحملق هو إليها وكأنه رجلٌ واقعٌ تحت وطأة كابوس ثقيل. حتى إذا وضعت يدها، ثلجيةً باردة، على يده ارتد إلى الوراء وصاح:

ـ «ماذا تعنين أيتها المرأة؟ ومن تظنين أنه قد فعل ذلك؟»

فقالت كاسي:

ـ «تستطيع أن تنام هناك إذا كان يهمك كثيراً أن تعرف!»

ـ «هل جاءت من السماوة، يا كاسي؟»

فتساءلت كاسي:

ـ «جاءت؟ من تعني؟»

ـ الأشياء التي تتحدثين عنها...»

فقالت كاسي في تجهم مغضب:

ـ «أنا لم أحدثك عن شيء...»

وأنشأ ليكري يذرع الغرفة، والقلق بادٍ على محياه ثم صاح:

ـ «سوف أفحصها هذه الليلة بالذات. ولسوف أحمل مسدسي...»

فقالت كاسي:

ـ «افعل. نم في تلك الغرفة. شدّ ما أتوق إلى أن أراك تفعل ذلك. وأطلِقْ مسدسك. أطلِق!»

وفي تلك اللحظة بالذات شرعت ساعة الحائط العتيقة تدق الثانية عشرة.

ولسبب ما جمد ليكري في مكانه لا يريم ولا يتكلم. لقد لفه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ذعر غامض. في حين وقفت كاسي تتطلع إليه وتعد دقات الساعة.

ـ «الساعة الثانية عشرة. حسناً، الآن سوف نرى!»

قالت ذلك واستدارت وفتحت الباب المؤدي إلى الممر، ووقفت وكأنها تستمع.

ـ «اسمع! ما هذا؟»

ورفعت إصبعها...

فقال ليكري:

ـ «إنها الريح ليس غير. ألا تسمعين كيف تهب هبوباً لعيناً؟»

فوضعت كاسي يدها في يدي ليكري وقادته إلى أدنى السلم وهمست في أذنه قائلة:

ـ «سايمون، تعال إلى هنا. هل تعرف أي شيء هو هذا؟ اسمع!»

وانطلقت نحو السلم صيحة وحشية. لقد كانت السماوة هي نقطة انطلاقها. فاصطكت ركبتا سايمون، وغدا وجهه أبيض من الذعر.

فقالت كاسي في سخرية جمدت دم ليكري:

ـ «أليس من الأفضل أن تأتي بمسدسك؟ إني أريد منك أن تصعد إلى السماوة الآن. إنهم فيها...»

ـ «لن أذهب! لا! لن أذهب!»

ـ لِمَ لا؟ ليس ثمة شيء اسمه عفاريت، كما تعلم!»

وارتقت السلم في رشاقة، ونادت:

ـ «تعال! هيا!»

فقال ليكري:

ـ «يخيل إليّ أنكِ أنتَ الشيطان! ارجعي أيتها الساحرة. ارجعي يجب أن لا تذهبي!»

ولكن كاسي أطلقت ضحكة وحشية ومضت لسبيلها. وسمعها ليكري تفتح الأبواب التي تقود إلى سماوة البيت. ومن خلال تلك الأبواب هبّت عليه ريح عاتية أطفأت الشمعة التي كان يحملها في يده وتصاعدت معها تلك الصيحات المخوفة، غير الأرضية. لقد بدت وكأنها تطلَق في أذنه هو، بالذات. . .

وهكذا ظلت كاسي تعبث بعقل ليكري ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، حتى انتهى إلى أن يفضّل إدخال رأسه في فم الأسد على أن يصعد إلى تلك السماوة المسحورة، ويستطلع أمرها. وفي أثناء ذلك كانت كاسي تجمع في السماوة، تحت جنح الليل البهيم، مؤونة تكفي لإقامة الأود فترة من زمان. وتنقل القسم الأعظم من ثيابها وثياب إميلين. حتى إذا تمت جميع الترتيبات الضرورية ترقبتا أن تسنح الفرصة المؤاتية لوضع خطتهما موضع التنفيذ.

* * *

كانت الشمس تؤذن بالمغيب. وكان ليكري غائباً في نزهة إلى مزرعة مجاورة. لقد دأبت كاسي منذ أيام على ملاطفته والتودد إليه. وها هي ذي في هذه اللحظة، منهمكة مع إميلين في إعداد صرتين صغيرتين.

ـ «والآن البسي قبعتكِ، ولننطلق فهذا هو الوقت الأنسب.»

فقالت إميلين:

ـ «ولكن في استطاعتهم أن يرونا إذا خرجنا الآن.»

ـ «أنا أرجو أن يرونا. ألستِ تعرفين أنهم سوف يتعقبوننا على أية حال؟ إن خطتي تجري هكذا: ننسلّ من الباب الخلفي فيرانا سامبو وكويمبو، فيلحقان بنا. فنبلغ المستنقعات. وعندئذ يعودان فيأتيان بالكلاب وغيرها. وفيما هم يتعثرون ويتخبطون ويسقط بعضهم فوق بعض، كما يفعلون دائماً، ننسلّ إلى النهر الصغير الذي يجري

في اتجاه المنزل ونخوّض في مياهه حتى نبلغ الباب الخلفي. وليس من ريب في أن أهل البيت جميعاً سوف يخرجون في طلبنا فنندفع إلى السماوة حيث أعددت فراشاً وثيراً فوق أحد الصندوقين الكبيرين.»

وأمسكتْ بيد إميلين وقالت:

ـ «تعالي!»

وفرّت الجاريتان، فلحق بهما ليكري. حتى إذا نجحتا في بلوغ المستنقع وخوّضتا فيه، برغم عمقه المخيف، آثر ليكري أن يستعين بسامبو وكويمبو وسائر الأرقاء، وكانوا قد عادوا من عمل النهار، فأغراهم بتعقب الجاريتين الفارّتين واعداً العبد الذي يلقي القبض عليهما بخمسة دولارات...

وانطلقت الجماعة كلها وفي أيديها المشاعل، وإلى جانبها الكلاب، نحو المستنقع، وهكذا كان البيت خالياً خلواً كاملاً حين انكفأت كاسي وإميلين بطريق الرجعة. حتى إذا بلغتا المنزل كان في ميسورهما أن تريا العصبة التي تلاحقها ومشاعلها وكلابها تتخبط في اللجة وتملأ الدنيا صراخاً ونباحاً.

ودب الخوف في قلب إميلين فقالت:

ـ «يجب أن نختبئ يا كاسي. عجلي!»

فأجابتها كاسي في هدوء:

ـ «لا داعي للعجلة. لقد خرجوا جميعاً لتصيّدنا. تلك هي متعة هذه الأمسية! إن في استطاعتنا أن نرتقي السلم في روية وأناة.»

قالت ذلك وانتزعت مفتاحاً من جيب سترة لليكري. ثم أردفت:

ـ «وفي الوقت نفسه سوف آخذ شيئاً نستعين به على العيش!»

وفتحت كاسي الخزانة وانتزعت منها رزمة من الأوراق النقدية وعدّتها في سرعة.

فقالت إميلين:

ـ «لا. يجب أن لا نفعل ذلك!»

فصاحت كاسي:

ـ «يجب أن لا نفعل؟ ولِمَ لا؟ أي أفضل: أن نجوع في المستنقعات أم أن نستعين بهذه الأموال على شق طريقنا إلى إحدى الولايات الحرة؟ إن الدراهم لقادرة على أن تفعل كل شيء، أيتها الفتاة!»

وفيما كانت تتكلم دست المال في صدرها.

عندئذ همست إميلين همسة واجفة:

ـ «ولكن هذه سرقة.»

فقالت كاسي، في ضحكة ساخرة:

ـ «سرقة؟ يحسن بأولئك الذين يسرقون أبداننا وأرواحنا أن لا يتحدثوا بهذه اللغة. إن كل ورقة من هذه الأوراق النقدية مسروقة ـ مسروقة من مخلوقات فقيرة، جائعة، تنضح جباهها بالعرق، ويتعين عليها أن تذهب إلى الشيطان، آخر الأمر، من أجله ومن أجل منفعته. دعيه يتحدث عن السرقة ولكن تعالي. يحسن بنا الآن أن نصعد إلى السماوة. إن عندي هناك لذخيرة من الشموع وبعض الكتب نزجي بها الوقت. وفي استطاعتكِ أن تتأكدي أنهم لن يصعدوا إلى هناك للبحث عنا. فإذا فعلوا عرفتُ كيف أحملهم على أن يولوا فراراً...»

ـ 30 ـ

الشهيد

أثار فرار كاسي وإميلين ثورة ليكري على نحو لم يشهد له مثيلاً من قبل، وقد انصبت نقمته، كما هو متوقع، على رأس توم المستضعف المسكين. ذلك بأن النبأ العظيم ما كاد يذاع في الأرقاء حتى أومضت عينا توم ببريق مفاجئ، وارتفعت يداه إلى السماء في حركات لم يغفل ليكري عن أن يراها. لقد لاحظ أن العبد العجوز لم يشترك في الحملة التي جردت للبحث عن الأَمَتين الفارّتين. وقد حدثته نفسه بأن يُكرهه على ذلك، ولكن علمه بصلابته وعناده في أمثال هذه المواقف غير الإنسانية جعله يتركه وشأنه خشية أن يكون في الاصطدام به إضاعة للوقت...

وفي صباح اليوم التالي آثر ليكري أن يعتصم بالصمت أيضاً، وركّز همته على تجريد حملة جديدة قوامها بعض الرجال العاملين في المزارع المجاورة وبعض الكلاب والبنادق، لتطويق المستنقع ومواصلة البحث بطريقة نظامية. فإذا وفق إلى تصيّد الجاريتين كان ذلك حسناً، وإذا لم يوفق فعندئذ يدعو توم إلى المثول في حضرته ويحطمه تحطيماً...

ونظرت كاسي في ذلك اليوم من أحد ثقوب السماوة وقالت:

ـ «حسناً. إن الحملة على وشك أن تنطلق من جديد!»

كان ثلاثة أو أربعة من الفرسان يتبخترون بخيلهم في الباحة المواجهة للبيت، وإلى جانبهم جمهرة من الزنوج وكلاب تنبح وتتخاصم. ووضعت كاسي أذنها على الثقب. وإذ كان نسيم الصباح يهب في اتجاه المنزل مباشرة، فقد استطاعت أن تستمع إلى قدر من الحديث. لقد سمعتهم يقتسمون الميدان في ما بينهم، ويتناقشون في مزايا كل من الكلاب، ويصدرون الأوامر بإطلاق النار، ويعيّنون نوع المعاملة لكل من الجاريتين في حال اعتقالهما.

وارتدت كاسي إلى الوراء، وتطلعت إلى أعلى، شابكة يديها وقالت:

- «أيها الإله العلي القدير! نحن جميعاً آثمون، ولكن ما الذي جنيناه نحن أكثر من سائر الخلق حتى نعامَل على هذه الشاكلة؟»

ورانت على وجهها، وعلى صوتها، فيما كانت تتكلم، انطباعة من أسى صارم.

وتطلعت إلى إميلين وقالت:

- «لولاكِ أيتها الطفلة لخرجت للقائهم، ولشكرت اليد التي تطلق على صدري النار. إذ ما الذي سوف أفيده من الحرية؟ هل تستطيع أن تُرجع إليّ أولادي، أو تعيدني إلى ما كنت عليه من قبل؟»

وببساطتها الطفلية خافت إميلين، نصف خوف، من هذه الانتفاضة اليائسة التي زلزلت كيان كاسي. وسرت الرعدة في أوصالها، ولم تحر جواباً، واكتفت بأن أمسكت بيدها وكأنما تقصد إلى ملاطفتها.

فما كان من كاسي إلا أن حاولت دفع يد الفتاة قائلة:

- «لا تحاولي. أنتِ تريدين إغرائي بأن أحبكِ ولكني لا أعتزم أن أحب أي شيء بعد اليوم!»

فقالت إميلين:

ـ «كاسي! لا تدعي هذا الشعور يستحوذ عليكِ. إذا وهبنا الله الحرية فقد يعيد إليك ابنتكِ. وعلى أية حال فإني سأكون بمثابة بنت لكِ. أنا أعلم أني لن أرى أمي كرة ثانية. ولسوف أحبكِ، يا كاسي، سواء أحببتني أنت أم لم تحبيني!»

وانتصرت الروح الرفيقة نصف الطفلية. فجلست كاسي إلى جانبها، وطوقت عنقها بذراعها وراحت تمرّر كفها على شعرها الناعم الأسمر، ثم قالت:

ـ «أوه، يا إميلين، لقد جعت إلى أولادي، وتعطشت لهم. إن عينيّ ليحرقهما الحنين إلى رؤيتهم. هنا! هنا!» وضربت على صدرها، «إنه مقفر كله، فارغ كله! وإذا ما أعاد الله إليّ أولادي، فعندئذ يصبح في مقدوري أن أصلي!»

فقالت إميلين:

ـ «يجب أن لا تقنطي من رحمته، يا كاسي. إنه أبونا السماوي وإني لواثقة من أنه سيساعدنا!»

* * *

لم يوفق ليكري وأعوانه في بحثهم الجاهد عن كاسي وإميلين. وفي حقدٍ عاصف أمر كويمبو بأن يسوق توم إليه، زاعماً أن الرجل العجوز هو الذي مهّد سبيل الفرار للجاريتين المختفيتين.

ومثل توم بين يدي مولاه. فأمسك به من جيب سترته الأعلى وقال في هياج مسعور:

ـ «هل تعرف أنني قد وطنت النفس على قتلك.»

فأجاب توم في هدوء:

ـ «جائز أن يكون ذلك أيها المولى.»

فقال ليكري:

ـ «ثق أني عازم على ذلك إلا إذا أدليت إليّ بما تعرف عن تينك الجاريتين. .»

واعتصم توم بالصمت.

وزأر ليكري:

ـ «هل تسمع؟ تكلم!»

فقال توم بقلب ثابت:

ـ «ليس عندي ما أقوله يا مولاي.»

ـ «أتجرؤ على أن تقول لي إنك لا تعرف، أيها المسيحي الأسود العجوز؟»

وصمت توم.

وانفجر ليكري بمثل قصف الرعد ضارباً توم ضرباً مبرحاً:

ـ «تكلم! هل تعرف شيئاً؟»

فقال توم:

ـ «أعرف يا مولاي. ولكني لن أقول شيئاً. إنني مستعدّ للموت!»

وهنا كبت ليكري ثورته، وأمسك بذراع توم وقرَّب وجهه إلى وجهه وقال في صوت راعب:

ـ «اسمع يا توم! لعلك تظنني غير جاد في ما أقول، شأني في المرات السابقة. ولكني عقدت النية هذه المرة على أن أبطش بك البطشة الكبرى. لقد كنت دائماً ضدي فاختر الآن أحد خيارين: إما أن تتكلم، وإما أن تُقتل. لقد عدَدتُ كل قطرة من قطرات الدم الذي في عروقك ولسوف أنتزعها قطرة قطرة أو تصرح بما ينطوي عليه صدرك من سر!»

وتطلع توم إلى مولاه وأجاب:

ـ «سيدي لو كنتُ مريضاً، أو على فراش الاحتضار وكان في ميسوري أن أُنقذك إذن لوجدتني سعيداً بأن أُقدم إليك دم قلبي، عن رضا وطيب نفس. ولو كان التنازل عن آخر قطرة من دماء هذا الجسد البالي ينقذ روحك الغالية إذن لما أحجمت عن أن أسفحها من أجلك كما قد سفح يسوع دمه من أجلي. أوه، يا مولاي، حذار أن تقترف هذا الإثم العظيم! إنه خليق بأن يسيء إليك ويؤذيك، بأكثر مما يسيء إليّ ويؤذيني. إفعل ما تستطيع أن تفعله فلا بد لبلائي من أن ينقضي وشيكاً. أما إذا لم تتب وتصلح فإن بلاءك لن ينقضي أبد الدهر.»

كانت هذه الكلمات النابضة بالعاطفة الصادقة أشبه بفلذة غريبة من موسيقى سماوية تسمع عند سكون العاصفة. ووقف ليكري ذاهلاً حائراً. وتطلع إلى توم. وساد الغرفة صمت أخرس سمعت معه تكتكات الساعة العتيقة تعلن أن امتحان الرحمة الذي أُخضع له ذلك القلب المتحجر يكاد يوفي على غايته...

وما هي إلا لحظة حتى عاودت ليكري روح الشرّ بأعنف وأعتى من ذي قبل، فانقضّ على ضحيته وطرحها أرضاً.

* * *

إن الحديث عن مشاهد الدم الوحشية ليؤذي آذاننا وقلوبنا. ذلك أن ما تقوى أعصاب الإنسان على عمله تعجز أعصاب الإنسان عن سماعه. وإن ما يتعين على إخواننا في الإنسانية والنصرانية أن يقاسوه، ينبغي أن لا تُروى أنباؤه على مسامعنا. إنها توهن الروح وتسومها سوء العذاب، ومع ذلك فإن تلك الفظائع تُقترف في ظل قوانين البلاد، وتحت سمع الكنيسة، كنيسة يسوع، وبصرها.

ـ «لقد انتهى أو يكاد، يا مولاي!»

قال سامبو ذلك وقد أخذته الشفقة على توم بعد أن رأى إلى تجلده العجيب وصبره على ضربات الكرباج التي تلهب جسمه المكدود.

فصاح ليكري:

ـ «اضربه حتى يموت! إني أريد أن أنتزع آخر قطرة من قطرات دمه، أو يعترف!»

وفتح توم عينه ونظر إلى سيده ثم قال:

ـ «أيها المخلوق البائس المسكين. لم يبق ما تستطيع أن تعمله أكثر من ذلك! إني أغفر لك من صميم قلبي!»

واستغرق في غيبوبةٍ كاملة.

وتقدم ليكري قليلاً ليتفحّصه عن كثب وقال:

ـ «يخيل إليّ أنه انتهى. أجل، لقد انتهى!»

ولكن توم لم يكن قد قضى نحبه بعد. وكانت كلماته العجيبة وصلواته الحارة قد لمست بعصاها السحرية قلبي سامبو وكويمبو اللذين سخّرهما ليكري لاقتراف جريمته. فلم يكد هذا الأخير يغادر الغرفة حتى هرعا، في جهالتهما، إلى بذل غاية الجهد لإنقاذه من الموت، وكأن في ذلك يداً يسديانها إليه، أو جميلاً يستحق شكره وعرفانه.

وقال سامبو:

ـ «لا شك في أننا كنا آلات شريرة مخيفة! وإني لأرجو أن يحاسَب سيدنا على ذلك، لا نحن...»

وغسلا جراحاته، وأعدا له فراشاً من خشارة القطن ومدّداه عليه ثم انطلق أحدهما إلى سيده والتمس منه كأساً من البراندي بحجة أنه متعب، حتى إذا جاد عليه بها انقلب إلى توم وأفرغها في فمه.

وقال كويمبو:

ـ «أوه، توم، لقد كنا قاسيين عليك!»

فقال توم، في صوت خافت:

ـ «إني أغفر لكما من شغاف قلبي!»

وتساءل سامبو:

ـ «أوه، توم، أخبرنا من هو يسوع، على أية حال؟ يسوع الذي كان واقفاً إلى جانبك، طوال هذه الليلة. من هو؟»

وأثار السؤال تلك الروح الضعيفة الذاوية. فأطلقت بضع جمل ناضحة بالقوة عن حياة ذلك المخلص وخلوده آخر الأبد، وقدرته على الإنقاذ.

ويكى سامبو وكويمبو... بكى الرجلان المتوحشان.

وقال سامبو:

ـ «لماذا لم أسمع هذا قبل اليوم قط؟ ولكني أؤمن به! إني لا أستطيع إلا أن أؤمن. آه، اسبغ علينا رحمتك يا يسوع!»

فقال:

ـ «أيها المخلوقان البائسان، إني أصلّي من أجلكما!»

واستجيب ذلك الدعاء!

ـ 31 ـ

المولى الصغير

بعد يومين اثنين كان شاب في مقتبل العمر يسوق عربة خفيفة عبر أشجار الزنزلخت الوارفة الظلال. حتى إذا انتهى إلى المنزل العتيق ألقى زمام العربة على غوارب الخيل وترجل ليسأل عن صاحب البيت، سؤال المشفق الملهوف.

كان ذلك الشاب هو جورج شيلبي. ولكي نوضح للقرّاء كيف انتهى إلى هناك يتعين علينا أن نرجع بهم، بعض الشيء إلى الوراء.

كانت الرسالة التي بعثت بها الآنسة أوفيليا إلى السيدة شيلبي قد حُجزت، بسبب من حادثة مشؤومة، في أحد مراكز البريد، طوال شهر أو شهرين. حتى إذا وصلت آخر الأمر إلى السيدة شيلبي كان توم قد وقع في قبضة ليكري الرهيبة، وسيق على متن النهر الأحمر إلى بيئته الجديدة.

وقرأت السيدة شيلبي الرسالة في اهتمام بالغ، ولكنها لم تستطع أن تقوم بأيما عمل عاجل من أجل استنقاذ توم. كان زوجها آنذاك طريح الفراش فهي تمرّضه وتقضي إلى جانبه ساعات الليل والنهار. وكان ابنها جورج قد استوى شاباً فهو يُعينها على تصريف شؤون المزرعة في حنكة وبراعة. والواقع أن الآنسة أوفيليا كانت قد احتاطت للأمر، فسمّت للسيدة شيلبي المحامي المشرف على تصفية

تركة سانت كلار، آملة أن تتصل به عند الحاجة. بيد أن وفاة السيد شيلبي بعد بضعة أيام صرفتها عن كل نشاط، فصلاً بكامله.

واتصلت السيدة شيلبي آخر الأمر بالمحامي الذي سمته لها الآنسة أوفيليا، فكتب إليها يقول إنه لا يعرف من الأمر شيئاً، وإن الرجل قد بيع في مزايدة علنية...

وما كان لجورج وللسيدة شيلبي أن يرتاحا لهذه النتيجة. وهكذا عزم الشاب بعد نحو من ستة أشهر، وكانت أمه قد عهدت إليه في إنجاز بعض الشؤون، على أن يشخص إلى نيو أورليانز بحثاً عن توم وافتداءً له من مالكه.

وبعد بضعة أشهر من البحث الموصول غير المجدي، التقى جورج مصادفة برجل يعرف بأمر توم ومولاه. فما كان من جورج إلا أن امتطى متن النهر الأحمر وهو يمنِّي النفس بلقاء الشيخ الخيِّر الذي رعاه طفلاً، وأحبه يافعاً.

وفي الحال دخل جورج منزل ليكري فوجده مسترخياً في حجرة الجلوس.

ورحب ليكري بضيفه ترحيباً جافاً. حتى إذا استقر المقام بالشاب الشهم قال:

ـ «أعلمُ أنك اشتريت في نيو أورليانز رقيقاً اسمه توم، كان يعمل في مزرعة والدي. وإني لأحب أن أرى ما إذا كان في إمكاني أن أشتريه من جديد.»

فتجهم وجه ليكري وقال في انفعال واضح:

ـ «أجل لقد اشتريت مثل هذا العبد المنكود وليتني لم أفعل. لقد أغرى زنوجي بالفرار، وأفقدني جاريتين تساوي كل منهما ثمانمئة دولار أو ألف دولار. وحين سألته عن مقرّهما قال إنه يعرف ولكنه لا

يستطيع أن يبوح لي بشيء، وأصر على ذلك برغم أني ألهبت جسده بالسياط على نحو لم أصطنعه مع أي زنجي من قبله. والذي أعتقده أنه يحاول أن يموت، ولكني لا أعلم متى سيكون ذلك.»

فسأل جورج في حنق:

ـ «أين هو؟ دعني أراه.»

وشاع الدم في وجه الشاب الفارع الطويل، وتطاير الشرر من عينيه...

ولم يجب ليكري. ولكن أحد الغلمان دل جورج على السقيفة التي تظل العجوز المحتضر فانطلق يعدو في ذلك الاتجاه.

كان توم منطرحاً على أرض السقيفة بعد يومين اثنين انقضيا على تلك الليلة النكراء. ولم يستشعر ألماً ما، لأن أعصابه التي تتألم كانت قد تبلدت وماتت. وقد سلخ معظم هذه الفترة في غيبوبة كاملة، لأن من عادة البنية القوية الحسنة النسيج أن لا تطلق الروح الحبيسة دفعة واحدة. وكان ثمة نفر من المعذبين في الأرض الذين اقتطعوا جزءاً من وقت راحتهم الضئيل ليفدوا عليه، سراً، راجين أن يكافئوه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص. صحيح أن أولئك البائسين لم يكونوا بقادرين على أن يقدموا إليه غير القليل ـ كوب من الماء البارد وحسب ـ ولكنهم قدموه إليه من حبات القلوب.

وكانت كاسي قد وفدت لزيارته في الليلة الماضية بعد أن سمعت بالتضحية التي قام بها من أجلها ومن أجل إميلين، فخرجت من مكمنها متحدية ضروب الخطر المحيطة بها. وهنا استمعت إلى الكلمات الأخيرة التي كانت الروح الكبيرة ما تزال قادرة على التنفس بها، فعرتها هزة أطاحت بشتاء اليأس الطويل، وبصقيع السنوات القارس، فإذا بالمرأة السوداء القانطة من رحمة الله تبكي وتصلي.

وحين دخل جورج على الشهيد المحتضر أحس بدوارٍ في رأسه وانقباض في صدره.

وركع إلى جانبه وراح يناجيه:

- «أممكن هذا؟ أممكن هذا؟ أيها العم توم! أيها الصديق البائس العجوز!»

ونفذ شيء من ذلك الصوت إلى أذن الرجل المطل على العالم السرمدي، فحرك رأسه في رفق، وتبسم، وقال:

«في استطاعة يسوع،

أن يجعل فراش الاحتضار،

ناعماً كالوسادة،

المحشوّة بزغب الأطيار!»

وتحدّرت من عيني الشاب عبرات تشرّف قلبه الكبير فيما كان منحنياً فوق صديقه البائس المسكين.

- «أوه، أيها العم توم العزيز! أفق، - تكلم مرة أخرى! انظر إليّ! أنا السيد جورج، - مولاك الصغير جورج. ألا تعرفني؟»

ففتح توم عينيه وقال في صوت وانٍ:

- «مولاي جورج! مولاي جورج!»

وبدا ذاهلاً دهشاً.

وما هي إلا لحظة حتى تركزت العين الجوفاء والتمعت، وأضاء الوجه كله بنور السعادة، واشتبكت اليدان اليابستان، وتحدرت الدموع فوق الخدين.

- «تبارك اسم الإله! إن هذا... إن هذا، إن هذا كل ما أطمع فيه. إنهم لم ينسوني. إن هذا يخلع على روحي الدفء. إنه يدخل

على قلبي الطمأنينة. الآن سوف أموت مرتاحاً...»

فصاح جورج في عزم:

ـ «لن تموت! ينبغي أن لا تموت، وأن لا تفكر في ذلك! لقد جئت لكي أشتريك وأعود بك إلى كوخك القديم.»

ـ «أوه، أيها المولى الصغير. لقد جئت متأخراً جداً. لقد اشتراني الرب ولسوف يحملني إلى عالم الخلود... إن السماء خير من كانتاكي...»

ـ «أوه، لا تمت! إن ذلك لخليق أن يقتلني! وإن قلبي لينكسر إذ أفكّر في ما قاسيت، وفي انطراحك في هذه السقيفة العتيقة، هنا! أيها التعس المسكين...»

فقال توم:

ـ «لا تقل إني تعس مسكين. لقد كنت تعساً مسكيناً. ولكن ذلك قد ولى وانقضى. أنا الآن لدى الباب، في طريقي إلى المجد. أوه، أيها السيد جورج، لقد فُتحت أبواب السماء، ولقد فزت بالنصر!»

وذهل جورج لتلك القوة التي تفجرت بها كلمات توم هذه فجلس يحدق إليه في صمت.

وأمسك توم بيده وأردف:

ـ «يحسن أن لا تخبر «كلو» كيف وجدتني... إن ذلك سوف يكون كثيراً عليها. أخبرها فقط أنك رأيتني ماضياً إلى المجد، وأن الرب كان دائماً إلى جانبي وأنه جعل كل شيء خفيفاً هيناً. أوه، والأولاد المساكين، والطفلة! لقد تفطّر قلبي العجوز حسرة عليهم. قل لهم أن يتبعوني ـ أن يتبعوني. أقرئ سلامي وحبي لمولاي الطيب، ومولاتي الطيبة، ولكل امرئ في داركم! أنت لا تدري. يبدو لي أني أحبهم جميعاً! أحب كل مخلوق حيثما كان!»

وفي تلك اللحظة تلاشت دفقة القوة الفجائية التي بعثها لقاء الشاب الشهم في الرجل المحتضر. فأغمض عينيه، وتطاولت أنفاسه وأخذ صدره العريض يعلو ويهبط، في رفق وتمهل. أما وجهه فكان يعلوه نوع من نشوة الانتصار.

ـ «من، ـ من ـ من ذا الذي يستطيع أن يفصلنا عن حب المسيح؟»

قال ذلك في صوت كالهمس وبابتسامة وادعة أغفى توم إغفاءة الأبد.

نهض جورج ثقيل القلب، مهيض الجناح، واستدار على عقبيه فإذا به وجهاً لوجه أمام ليكري.

ألجمت رهبة الموت عاطفة الشاب الثائرة، فرمق ليكري بعينيه الحادتين السوداوين واكتفى بأن قال له، مشيراً إلى الميت:

ـ «لقد انتزعت منه كل ما تستطيع انتزاعه. والآن كم يتعين عليّ أن أدفع ثمناً للجثة؟ إني أريد أن أحملها إلى مكان بعيد وأواريها في التراب.»

فقال ليكري في غلظة:

ـ «أنا لا أبيع عبيداً ميتين. في استطاعتك أن تدفنه حيثما شئت، ومتى شئت.»

فوجّه جورج خطابه إلى اثنين أو ثلاثة من الزنوج الذين كانوا واقفين بمحاذاة الجثمان:

ـ «أيها الإخوان. ساعدوني في حمله، ونقله إلى عربتي وائتوني بمعول...»

وانطلق أحدهم للبحث عن معول، في حين تعاون الآخران مع جورج في نقل الجثمان إلى العربة.

ولم يقل جورج أيما كلمة لليكري الذي كان واقفاً يصفر في غير مبالاة. ولم يتطلع إليه. حتى إذا انطلقوا إلى العربة لحق بهم متجهم الوجه كالح الجبين.

ونشر جورج معطفه فوق أرض العربة ولف الجثمان به مزيحاً المقعد ليفسح له مكاناً يستريح فيه. ثم إنه رجع، فحدق إلى ليكري وقال في هدوء متكلف.

- «أنا لم أقل لك حتى الآن رأيي في هذه المسألة الوحشية. فليس المكان ولا الزمان مناسبين لذلك. ولكن ثق، أيها السيد، أن هذا الدم البريء سوف يُثأر له. إني سوف أحيط السلطة علماً بهذه الجريمة، وسأقصد إلى أول حاكم مسؤول وأشكوك إليه.»

فقال ليكري، وهو يفرقع أصابعه في سخرية:

- «اذهب! إني لشديد التوق إلى أن أراك تذهب! من أين سوف تأتي بشهود الإثبات؟ كيف تبرهن على ذلك؟ تعال، الآن!»

وأدرك جورج في الحال قوة التحدي في كلام خصمه فلم يكن ثمة رجل أبيض واحد في مكان الحادث. وليس يقام وزن ما، في جميع الولايات الجنوبية، لشهادة أصحاب البشرة الملونة. واستشعر في تلك اللحظة وكأنه يريد أن يمزق السموات بصرخة قلبه الساخطة من أجل العدالة.. ولكن عبثاً.

وقال ليكري:

- «وعلى أية حال، فلا داعي لهذه الضجة كلها من أجل زنجي ميت!»

كانت كلمة ليكري أشبه شيء بشرارة من نار مست مستودعاً للبارود، فما كان من جورج إلا أن ارتد إلى الجلاد وضربه على وجهه ضربة طرحته أرضاً وأقامت الدليل على أن ذلك الفتى النبيل

جدير بأن يحمل اسم البطل القديم الذي انتصر على التنين.

والواقع أن بعض الرجال ليهذب نفوسهم أن يُلقَوا على الأرض صرعى. فلا يكاد امرؤ يمرغ رؤوسهم بالتراب حتى يحترموه ويجلوه. وكان ليكري من هذه الطبقة. وهكذا نهض، ونفض الغبار عن ثيابه وراح يرمق العربة الماضية لسبيلها، في كثير من الاحترام. بل إنه لم يفتح فمه إلا بعد أن غابت العربة عن بصره، بالكلية.

وكانت عينا جورج قد وقعتا على ربوة قائمة وراء حدود المزرعة تظللها بضع أشجار وارفة. فأحب أن يحفر فيها رمس صديقه الراحل. حتى إذا تم حفر الرمس تساءل الزنوج:

ـ «هل ننزع المعطف، أيها السيد!»

فأجاب جورج:

ـ «لا، لا. ادفنوه معه! إنه كل ما أستطيع أن أقدمه إليك، الآن، يا توم المسكين، فعسى أن تتقبله مني!»

ودسوه في التراب، وأقاموا حوله سداً، ووضعوا قليلاً من العشب الأخضر فوقه.

وألقى جورج ربع دولار في يد كل من الأرقاء، وقال:

ـ «والآن تستطيعون أن تذهبوا، أيها الإخوان.»

ولكنهم لزموا أماكنهم لا يريمون.

وقال قائل منهم:

ـ «ليت مولاي الشاب يتعطف فيشترينا...»

وقال ثان:

ـ «إنا خليقون بأن نخلص له أبد الدهر...»

وعاد الأول فقال:

ـ «إننا ههنا نقضي أياماً عسيرة، أيها السيد. فتكرّم يا مولاي واشترنا من مالكنا!»

فقال جورج في حرج:

ـ «لا أستطيع! لا أستطيع! ذلك مستحيل!»

وران الأسى على وجوه الأرقاء البائسين، وبرحوا المكان صامتين.

وانحنى جورج فوق رمس صديقه المسكين وقال معاهداً الله على أمر عظيم:

ـ «أيها الرب الأزلي، إشهد أنني سوف أعمل، منذ هذه الساعة، كل ما يستطيع أن يعمله الرجل المفرد لطرد لعنة الاسترقاق هذه من أرضي ودياري!»

ـ 32 ـ

قصة أشباح حقيقية

كانت سوق القصص الخرافية الدائرة على محور الأشباح والأرواح والعفاريت رائجة، طبعاً، في تلك الأثناء، بين الأرقاء الذين يُظلهم بيت ليكري.

فقد تهامس الأرقاء بأن وقع أقدام قد سُمع على نحو لا يقبل الشك، وفي جوف الليل البهيم، عند سلم السماوة، وأن روحاً من الأرواح هبطت السلم وراحت تجوس خلال الدار. وعبثاً أُوصدت الأبواب المؤدية إلى المدخل العلوي، فقد كانت الروح تنفذ إلى ذلك القسم من البيت كل يوم وتسرح فيه كأن في جيبها مفتاحاً طبق الأصل، أو كأنها كانت تتسلل من خلال ثقب الباب جرياً على التقليد المتبع عند الأرواح منذ الزمان الأقدم.

ولم يكن في ميسور ليكري أن يصمّ أذنيه دون سماع هذا الهمس الذي ملأ البيت كله وشغل أهل البيت كلهم، فاستبد به الجزع وفزع إلى الخمر يتسلى بها عن الهموم، وإلى الشتائم ينفس بها عن كربه. ولكن بلاءه الأكبر كان في الأحلام المقلقة الراعبة.

ففي تلك الليلة التي تلت نقل جثمان توم ودفنه قصد ليكري إلى المدينة المجاورة ابتغاء الترفيه عن النفس. وهناك عبّ من ضروب اللذات كما لم يعبّ في يوم من الأيام، وانقلب إلى منزله في موهن من الليل، وهو يتحامل على نفسه تعباً وإعياء.

وأوصد ليكري باب غرفته ووضع كرسياً خلفه وأقام مصباحاً ليلياً فوق سريره، وأعد مسدسه للقتال. وبعد أن أحكم إغلاق النوافذ زعم في ما بينه وبين نفسه «أنه ما عاد يبالي بالشيطان وبجميع ملائكته» ومنّى النفس بنوم هادئ عميق.

حسناً، لقد نام ليكري ملء جفنيه، فقد كان متعباً، ولكن شيئاً مروعاً ما لبث أن أفسد عليه نومه الهادئ، آخر الأمر. كان ذلك في ما تراءى له، هو كفن أمه، ولكن كاسي كانت تحمله، وتقدمه إليه ليراه. لقد سمع ضجة مختلفة فيها ولولة وفيها أنين، وعرف مع هذا كله أنه كان نائماً، فهو ينفق غاية الجهد لكي يوقظ نفسه من هذا السبات المزعج. وأفاق نصف إفاقة فداخله نوع من اليقين بأن شيئاً دخل إلى غرفته. لقد رأى الباب يفتح، ولكنه كان أعجز من أن يحرك يداً أو رجلاً. وأخيراً برقت عيناه رعباً: كان الباب مفتوحاً وكان ثمة يد تمتد إلى مصباحه فتطفئه.

كانت ليلة قمراء كثيرة الغيم والضباب، وهناك رآه! لقد رأى شيئاً أبيض يتسلل إلى الغرفة! وسمع حفيف ثوبه الأسطوري الساكن. كان الشبح واقفاً إلى جانب فراشه، وكأن على رأسه الطير... وامتدت يد باردة فمست يده... وهمس صوت عميق راعب:

- «تعال! تعال!!»

وفيما كان ليكري يتفصّد عرقاً، من غير أن يدري أين كان ذلك وكيف كان، مضى الشبح لسبيله. فوثب الجلف المروّع من فراشه، وهرع إلى الباب يشده فإذا بالباب موصد محكم الإقفال، وإذا بالرجل يسقط على الأرض مغشياً عليه.

ومن ذلك الحين انصرف ليكري إلى الخمر يعاقرها في غير ما احتياط ولا استبقاء. كان يشربها من قبل ولكن بحكمة وحذر، أما

اليوم فقد انقلب إلى مدمن يشربها حين يصبح، ويشربها حين يمسي ويغلو في ذلك غلوّاً كبيراً.

وما هي إلا فترة حتى شاع في المنطقة كلها أنه يشكو مرضاً عضالاً، وأنه يتقلب على فراش الاحتضار. والواقع أن أحداً ما كان يستطيع أن يُطيق جو الرعب الذي كان يطغى على غرفته كلما استغرق في الهذيان والصياح، وصار يتحدث عن رؤى كانت توقف الدم في عروق السامعين، أو تكاد. وإلى جانب فراشه الاحتضاري كان يقوم شبح عابس، أبيض، قاسي الفؤاد، يناديه:

ـ «تعال! تعال! تعال!»

وبمصادفة عجيبة، وُجِد باب المنزل مفتوحاً في صباح تلك الليلة التي رأى فيها ليكري هذه الرؤيا بالذات، وبصر بعض الأرقاء بشخصين أبيضين يتخذان سبيلهما إلى الطريق الرئيسية.

وكان الضحى على وشك أن يرتفع حين تمهلت كاسي وإميلين، لحظة، عند بضعة أشجار قرب المدينة.

كانت كاسي متشحة بالسواد الكامل، على طريقة السيدات اللواتي يختلط في عروقهن الدم الإسباني والدم الزنجي. وكانت تعتمر قبعة سوداء صغيرة، يتدلى منها حجاب غليظ موشى يخفي معالم وجهها. وكان الاتفاق قد تم بين الجاريتين الفارّين على أن تمثل كاسي شخصية السيدة ذات الدم الإسباني الزنجي، في حين تمثل إميلين دور الخادمة.

وإذ نشأت كاسي منذ صباها الأول في بيئة أرستقراطية مترفة فقد كانت لغتها وحركاتها وملامحها متفقة كلها مع هذه الفكرة. وكان في الجواهر التي تحلت بها ما زادها قدرة على تمثيل هذا الدور الذي اختارته لنفسها.

ووقفت كاسي في ضاحية البلدة لتشتري حقيبة. وبعد أن دفعت

إلى البائع ثمنها سألته أن يوجه معها من يحملها لها. فما كان من البائع إلا أن أوعز إلى غلامه في السير معها فتابعت طريقها، يحف بها الغلام من جانب وإميلين من جانب. حتى إذا بلغت النزُل الصغير دخلته وكأنها سيدة ذات اعتبار...

وكان أول من لفت نظرها، بُعيد وصولها، هو جورج شيلبي الذي كان ينتظر في ذلك النزُل، سفينة تعود به إلى موطنه.

وكانت كاسي قد تتبعت حركات الشاب الكريم من خلال ثقب السماوة التي اختبأت فيها، ورأته يحمل جثمان توم، وينتقم له من ليكري فيطرحه أرضاً، وكانت قد عرفت من خلال الأحاديث التي سمعتها تدور بين الأرقاء عندما تجوّلت خلال الديار في تنكرها الشبحيّ، بعد أن هبط الليل، من هو ذلك الشاب والصلة التي تشده إلى توم. من أجل ذلك استشعرت فضلاً من الثقة والطمأنينة حين اكتشفت أنه كان، مثلها، على وشك السفر في السفينة المرتقبة.

وفي موهن من الليل أقبلت السفينة، وأخذ جورج شيلبي بيد كاسي، يساعدها على امتطاء متن المركب بذلك اللطف المأثور عن أبناء كانتاكي جميعاً، ويلتمس لها غرفة مستقلة صالحة.

ولزمت كاسي غرفتها وفراشها طوال تلك الرحلة على غارب النهر الأحمر، بحجة أنها تشكو اعتلالاً في الصحة. فكانت إميلين تشرف على راحتها في تفانٍ وإخلاص.

وعندما انتهت السفينة إلى نهر ميسيسيبي اقترح جورج على السيدة الغريبة، بعد أن علم أنها متجهة صعداً، شأنه هو، أن يحجز لها غرفة مستقلة على السفينة التي يعتزم السفر على متنها. وإنما كان يحدوه على ذلك رغبته في أن يخدم تلك السيدة المريضة ما استطاع إلى الخدمة سبيلاً.

وهكذا انتقل الرفاق الثلاثة إلى الباخرة سينسيناتي. وصعدوا في النهر بقوة واندفاع.

وتحسنت صحة كاسي شيئاً كثيراً. فصارت تظهر على متن السفينة، وتتناول الطعام على المائدة العامة. فلفتت أنظار الركاب جميعاً، وأعجبوا بها كسيدة لا ريب في أنها كانت على حظ كبير من الملاحة والجمال.

وآنس جورج، منذ وقعت عيناه على كاسي، أنها تشبه وجهاً يعرفه شبهاً بعيداً. وكما يقع عادة في مثل هذه الأحوال، راح جورج يدمن النظر إليها ولا يرفع بصره عنها إلا حين يبدو على محياها أنها تستشعر بعض الحرج لهذه المراقبة الموصولة.

واضطربت كاسي، وتداخلها الظن بأن الشاب في ريبة من أمرها. وأخيراً وطنت العزم على أن تكل أمرها إلى خُلقه الكريم وتقص عليه سيرتها كلها.

وكان جورج مستعداً استعداداً قلبياً لأن يعطف على أيما امرئ وفّق إلى الفرار من إقطاعة ليكري المشؤومة، فلم يكد يستمع إلى حديث كاسي حتى أكد لها أنه سوف ينفق كل ما يستطيع من جهد لحمايتها، مهما تكن النتائج.

وكانت تحتل الغرفة المجاورة لغرفة كاسي سيدة فرنسية تدعى «مدام دي تو» ترافقها ابنتها الجميلة، وهي طفلة لا يتجاوز عمرها اثني عشر ربيعاً.

وإذ فهمت هذه السيدة، من خلال حديثها مع جورج، أنه من ولاية كانتاكي فقد بدت حريصة على توكيد صلتها به، تساعدها في ذلك فتاتها المليحة الخليقة بأن تطرد بحيويتها البالغة وخفتها الظريفة جو السأم الذي يلمّ عادة بمسافر يركب متن الماء طوال أسبوعين كاملين.

وإذ كان جورج كثيراً ما يضع كرسيه عند باب غرفتها، فقد كان في ميسور كاسي أن تسمع إلى ما يدور بينهما من حديث.

كانت السيدة «دي تو» لا تفتأ تسأل أسئلة تفصيلية دقيقة عن كانتاكي حيث عاشت، كما قالت، فترة من حياتها. ودهش جورج حين اكتشف أن بيتها القديم كان غير بعيد من بيت أبيه فهي تعرف الناس والأشياء في تلك الديار معرفة تامّة.

وذات يوم سألته السيدة دي تو:

ـ «هل تعلم شيئاً عن رجل كان في جواركم، يدعى هاريس؟»

فقال جورج:

ـ «أعرف رجلاً شيخاً بهذا الاسم، يقطن غير بعيد من بيت أبي. ولكن صلتنا به كانت محدودة دائماً.»

ـ «إنه واحد من كبار أصحاب الرقيق، في ما أعتقد.»

قالت السيدة دي تو ذلك في لهجة كشفت عن قدر من الشوق والاهتمام يفوق ما كانت راغبة في إظهاره.

فقال جورج مندهشاً:

ـ «أجل. إنه لكذلك.»

ـ «هل سبق إلى علمك أنه امتلك في يوم من الأيام غلاماً خلاسياً يدعى جورج؟»

ـ «آه، طبعاً، جورج هاريس. أنا أعرفه جيداً. لقد تزوج إحدى إماء والدي، ولكنه فرَّ إلى كندا...»

فقالت السيدة دي تو في سرعة:

ـ «فرّ إلى كندا؟ شكراً لله!»

وازداد جورج دهشةً. ولكنه لم يقل شيئاً.

وأسندت السيدة دي تو رأسها إلى يدها وأخذت تنشج.

وقالت:

ـ «إنه أخي!»

ـ «مدام!»

قالها جورج في نبرة عجب قوية.

فكفكفت السيدة دي تو عبراتها وقالت:

ـ «سيد شيلبي، إن جورج هاريس هو أخي!»

وأخّر جورج كرسيه قليلاً وأمعن النظر في السيدة دي تو وقال:

ـ «إني لا أتعجّب من هذا كله!»

وقالت السيدة:

ـ «لقد باعوني لواحد من أهل الجنوب يوم كان جورج صبياً. وكان الذي اشتراني رجلاً كبير القلب، كريم النفس فاصطحبني إلى جزائر الهند الغربية حيث أعتقني وتزوج مني. وقد لقي وجه ربه منذ وقت قريب. وها أنا ذا قاصدة إلى كانتاكي بحثاً عن أخي راغبة في افتدائه.»

فقال جورج:

ـ «لقد سمعته يتحدث مرة عن أخت له تدعى إميلي، بيعت في الجنوب...»

ـ «أجل حقاً. أنا هي بالذات... والآن قل لي ما رأيك فيه؟»

ـ «إنه شاب نجيب. يتحلى بشخصية من الطراز العالي وبقدر وافر من الذكاء والإخلاص... أنا أعرفه جيداً لأنه تزوج إحدى إماء والدي.»

فتساءلت السيدة دي تو في لهفة:

ـ «وماذا تستطيع أن تحدثني عن زوجته هذه؟»

فقال جورج:

ـ «إنها كنز، إنها فتاة جميلة، ذكية الفؤاد، محببة إلى كل نفس. ثم إنها شديدة التقوى. وقد نشّأتها أمي معتبرة إياها بمثابة بنت لها. فهي تقرأ وتكتب، وتخيط وتطرز، وهي إلى ذلك جميلة الصوت حسنة الغناء.»

فسألت السيدة دي تو:

ـ «وهل وُلدت في بيتكم؟»

ـ «لا. لقد اشتراها أبي يوماً، وكان يقوم برحلة من رحلاته إلى نيو أورليانز... كانت في السابعة من عمرها، أو في الثامنة، آنذاك، والحق أن والدي لم يخبر أمي كم دفع ثمناً لهذه الجارية الصغيرة. وفيما كنا نقلّب بعض أوراقه العتيقة، منذ وقت قريب، عثرنا على صك البيع، فإذا به يؤذن بأن أبي قد اشتراها بثمن ضخم من غير شك. وأحسب أن مردّ ذلك إلى ما كانت تتمتع به من جمال بارع يندر أن يجد له المرء نظيراً.»

كانت كاسي جالسة غير بعيدة عن جورج حين دار هذا الحديث، وكانت تصيخ إلى كلامه في شوق بالغ ولهفة عارمة. حتى إذا انتهى إلى هذا الموضع لم تتمالك أن وجهت إليه السؤال، ووجهها أبيض كالشمع:

ـ «هل تعرف أسماء الذين اشتراها منهم؟»

فقال جورج:

ـ «أظن أن رجلاً اسمه سايمونز كان هو الشخص الرئيسي في تلك الصفقة. ذلك على الأقل هو الاسم المنصوص عليه في صك البيع.»

وهنا صاحت كاسي:

ـ «آه، يا إلهي!»

وسقطت على الأرض مغشياً عليها.

ـ 33 ـ

نتائج

في الصفحات القليلة التالية، سأحاول أن أقص على القراء بقية قصتنا هذه في إيجاز كثير. فقد حرص جورج شيلبي بأن يرسل إلى كاسي صك البيع الخاص بأليزا. فإذا بالتاريخ الذي يحمله والاسم الذي ينص عليه منطبقان أتم الانطباق على الحقائق التي تعرفها، فرسخ في نفسها، بما لا يقبل الشك والريبة، أن أليزا هي ابنتها التي انتزعتها الأقدار منها وهي طفلة بعد. ولم يبق عليها الآن إلا أن تتتبّع خطاها وخطى زوجها، حتى موطنهما الجديد الذي لجآ إليه.

وهكذا شدت هي والسيدة دي تو ـ بعد أن ارتبطت مصائرهما هذا الارتباط الوثيق ـ رحالهما إلى كندا، حيث قامتا برحلة استطلاع إلى المعسكرات التي تضم الفارّين من العبودية. وفي آمهرستبرغ لقيتا مبشراً كان قد أجار جورج وأليزا لدى وصولهما إلى كندا. ومن طريق ذلك المبشر علمت السيدتان أن جورج وأليزا يقيمان الآن في مدينة مونتريال. فوجهتا وجهيهما شطرها، يصحبهما راعي المعسكر في آمهرستبرغ الذي كان رق لتوسلاتهما فوضع نفسه في تصرفهما.

وكان الزوجان السعيدان قد أمضيا خمس سنوات من عمرهما في ظل الحرية الوارف. وكان جورج قد وجد عملاً عند ميكانيكي معروف، فهو يكسب أجراً كافياً تفي بحاجات أسرته، وكان قد أضيف إليها في الوقت نفسه، عضو جديد هو أليزا الصغيرة.

وفي ذات مساء، بينا كانت الأسرة السعيدة تستعد لتناول العشاء في شقتها الصغيرة النظيفة بضاحية مونتريال قُرع الباب، فهرعت الزوجة لترى من الطارق، حتى إذا عرفت فيه راعي آمهرستبرغ الطيب رحبت به ترحيباً حاراً، ورحبت بالسيدتين اللتين كانتا معه ودعتهم جميعاً إلى الجلوس، منادية زوجها في غبطة وابتهاج.

والحق أن الراعي الشفيق كان قد رسم لتعريف البنت إلى أمها والأخ إلى أخته خطة حكيمة طلب إلى رفيقتيه التزامها في كثير من الدقة. ولكن السيدة دي تو أفسدت عليه خطته تلك، فلم تكد ترى إلى أخيها جورج حتى هرعت إليه وطوقت عنقه بذراعيها قائلة، في غير ما تمهيد ولا مقدمات:

ـ «أوه، جورج! ألا تعرفني؟ أنا أختك إميلي...»

وكانت كاسي قد ضبطت أعصابها رغبة منها في التزام الخطة التي رسمها القس، وكانت خليقة بأن تواصل تمثيل دورها في نجاح كبير لولا أن برزت أليزا الصغيرة، فجأة، أمام ناظريها، وفي كل لمحة من ملامح وجهها، وكل خط من خطوط شعرها الجعد ما يجعلها صورة عينية عن ابنتها الحبيبة يوم أن رأتها آخر مرة. فلم تتمالك كاسي نفسها، إذ اندفعت تطوّق الطفلة الصغيرة بذراعيها وشدتها إلى صدرها قائلة ما اعتقدته فعلاً في تلك اللحظة:

ـ «حبيبتي، أنا أملكِ!»

والحق أنه كان من العسير على السيدة دي تو وعلى كاسي أن تلزما الخطة المرسومة. ولكن القس الطيب نجح، آخر الأمر، في تهدئة القوم، وألقى خطبته التي كان يعتزم استهلال الاجتماع بها، فلم يكد ينتهي إلى غايتها حتى انخرط الجمع كلهم في البكاء والنحيب، ثم ركعوا جميعاً، فصلى القس الصالح فيهم. وحين نهض أفراد

الأسرة المجتمعة الشمل بعد طول تفرق وتشتت عانق بعضهم بعضاً وحمدوا الله لما أسبغ عليهم من نعمة السلامة والإياب.

وبعد يوم أو يومين حدثت السيدة دي تو أخاها بأن وفاة زوجها قد تركت لها ثروة ضخمة وأنها مستعدة لأن تضع قسماً كبيراً منها في تصرفه. حتى إذا سألته عن السبيل التي يؤثر أن ينفق فيها تلك الهبة السخية أجابها:

ـ «أعطني ثقافة جيدة يا إميلي. تلك كانت دائماً أمنية قلبي. وعندئذ أستطيع أن أعمل كل شيء.»

وبعد تفكير وتباحث انعقد الرأي على أن تسافر الأسرة كلها، إلى فرنسا لتقضي بضع سنوات في ربوعها. وما هي إلا فترة حتى ركبوا متن البحر، ومعهم إميلين، قاصدين إلى القارة الأوروبية.

ولفتت إميلين بملاحة وجهها أنظار معاون الربان ووقعت في قلبه. ولم تكد السفينة تبلغ الثغر حتى عُقد لها عليه.

قضى جورج أربع سنوات ينهل العلم في إحدى الجامعات الفرنسية. وإذ انصرف بكليته إلى اكتساب المعرفة فقد أفادته هذه الدراسة ثقافة عالية، ونضجاً صالحاً.

ولكن اضطراب الأحوال السياسية في فرنسا أكره الأسرة، آخر الأمر، على أن تغادر تلك الديار. بيد أن جورج آثر أن لا يرجع بأسرته إلى أميركا، فوجه وجهه شطر الجمهورية السوداء المستقلة، ليبيريا، ليعمل هناك، بوصفه عضواً في أمة معترف بوجودها، على خدمة القضية الزنجية.

ـ 34 ـ

المحرر

كان جورج شيلبي قد كتب إلى أمه رسالة لا تزيد عن سطر واحد حدد فيه موعد عودته المرتقبة. لقد حاول غير مرة أن يشير إلى مصرع صديقه العجوز، ولكن قلبه لم يسعفه فكان يعمد في كل مرة إلى تمزيق الرسالة والانخراط في البكاء.

وفي الموعد المحدد سادت بيت شيلبي جلبة مستبشرة. كانت ربة الدار جالسة في غرفة الاستقبال الوثيرة حيث كانت نار خشب الجوز البهيجة تبدد برد تلك الأمسية من أمسيات الخريف الذي يوشك أن ينقضي. وكانت مائدة العشاء قد مدت بإشراف كلو العجوز، صديقتنا القديمة.

وكانت كلو تلبس ثوباً من الخام جديداً، ومئزراً نظيفاً أبيض وتعتمر شبه عمامة عالية منشّاة، وكان وجهها الأسود المصقول يضيء ببريق الارتياح وهي تطوف بالمائدة وتعدّل في ترتيبها ملتمسة مختلف الأعذار لتتحدث قليلاً مع سيدتها:

ـ «والآن، أحسب أنها سوف تبدو طبيعية في عينيه. لقد وضعت صحنه حيث يجب أن يوضع تماماً، غير بعيد عن النار. إن مولاي جورج ليحب المقعد الدافئ دائماً. أوه، لماذا لم تأت «سالي» بإبريق الشاي الأفضل، ذلك الإبريق الصغير الجديد الذي اشتراه مولاي

جورج لسيدتي في عيد الميلاد؟ يجب أن آتي به! وبالمناسبة، هل كتب جورج إلى سيدتي شيئاً؟...»

فقالت السيدة شيلبي:

ـ «نعم يا كلو. ولكنه كتب سطراً واحداً ليس غير، سطراً يقول فيه إنه قادم الليلة، إن استطاع.»

فتساءلت المرأة السوداء وهي لا تفتأ تتلهى بتسوية فناجين الشاي وتعديل أوضاعها:

ـ «ألم يذكر شيئاً عن زوجي العجوز؟»

ـ «لا، يا كلو. إنه لم يتكلم عن شيء. لقد قال إنه سيخبرنا بكل شيء عندما يعود.»

ـ «تلك هي عادة مولاي جورج دائماً. إنه يجب أن يقول كل شيء بنفسه.»

قالت كلو ذلك وصمتت لحظة. ثم أردفت:

ـ «أظن أن بعلي العجوز لن يعرف الأولاد والطفلة الصغيرة. لقد كبروا وترعرعوا. ولقد ذهبت «بولي» الآن إلى البيت لتشرف على خبز الكعك. إني أريد أن أعد لزوجي العجوز ذلك النوع من الكعك الذي يحبه كثيراً، والذي قدمته إليه صباح مفارقته إيانا. فليباركنا الله! أي شعور استولى عليّ ذلك الصباح!»

وتنهدت السيدة شيلبي، وشعرت بثقل ثقيل يضغط على قلبها لدى سماعها هذه الكلمات. والحق أن القلق لم يبارحها منذ أن تلقت رسالة ابنها القصيرة، خشية أن يكون ثمة شيء أراد جورج أن يخفيه وراء حجاب السكوت والإيجاز.

وقالت كلو في لهفة:

ـ «هل احتفظت سيدتي بالأوراق المالية؟»

- «أجل، يا كلو.»

- «لقد سألتكِ هذا السؤال لأني أريد أن أري زوجي العجوز الأوراق المالية نفسها التي أعطاني إياها الحلواني. إن مولاي جونز كان رجلاً طيباً جيداً. لقد قال لي: كنت أود أن تظلي عندنا فترة أطول. فقلت له: شكراً يا سيدي. كنت جديرة بأن أفعل لولا أن زوجي العجوز على وشك أن يعود إلى كوخه، ولولا أن سيدتي ما عادت تستطيع أن تبقى بدوني بعد اليوم...»

وكانت كلو قد أصرت، في عناد، على أن تحتفظ سيدتها بالأوراق المالية نفسها التي دُفعت بها أجورها، لتريها لزوجها كبرهان على براعتها، وكانت السيدة شيلبي قد لبّت رغبتها ابتغاء إدخال السرور على قلبها.

- «إنه لن يعرف بولّي، - إن بعلي العجوز لن يعرفها. لقد انقضت خمس سنوات على مغادرته كوخه، وكانت طفلة آنذاك، لا تستطيع الوقوف على قدميها. وإني لأذكر الآن كم كان قلقه شديداً عليها لكثرة ما كانت تقع على وجهها وهي تحاول المشي.»

وهنا سُمع صوت عربة مقبلة...

واندفعت العمة كلو إلى النافذة وقالت:

- «سيدي جورج!»

وهُرعت السيدة شيلبي إلى الباب، فطوّقها ابنها بذراعيه. بينما وقفت العمة كلو تحدق بعينيها إلى الظلام في لهفة وقلق.

- «أوه، أيتها العمة كلو المسكينة» قال جورج ذلك وتقدم إليها في تأثر، وأمسك يدها الخشنة السوداء بيديه. «لقد كنت مستعداً لأن أدفع ثروتي كلها ثمناً لعودته معي؛ ولكنه ذهب إلى بلد أفضل!»

وأطلقت السيدة شيلبي صيحة إشفاق. ولكن العمة كلو لم تقل شيئاً.

ودخل الجميع غرفة الطعام. وكانت الأوراق المالية التي اعتزت بها كلو ذلك الاعتزاز كله ما تزال على الطاولة.

فجمعتها كلو، وبيد راجفة قدمتها إلى سيدتها وهي تقول:

ـ «دونكِ هذه الأموال يا سيدتي. إني لا أريد أن أراها أو أن أسمع بها بعد اليوم. لقد وقع ما كنت أخشاه: أن يُباع ليشتغل في مزارع القطن ثم ليُقتل عليها!»..

ونهضت كلو واتخذت سبيلها إلى خارج الغرفة، فلحقت بها السيدة شيلبي وأمسكت بإحدى يديها وأجلستها على كرسي، وجلست هي إزاءها.

وقالت السيدة شيلبي:

ـ «أوه، أيتها المرأة الصالحة البائسة؟»

وأمالت كلو رأسها على كتف سيدتها وتنهدت:

ـ «سيدتي، اعذريني. لقد انكسر قلبي. هذا كل ما هنالك!»

فقالت السيدة شيلبي والدمع ينحدر على وجنتيها:

ـ «أنا أعرف ذلك. وليس في استطاعتي أن أجْبُره. ولكن يسوع قادر على ذلك. إنه يشفي أصحاب القلوب الكسيرة ويضمد جراحاتهم.»

وران الصمت لحظة على الغرفة. وبكى الثلاثة جميعاً. وأخيراً راح جورج يروي على المرأة المفجوعة كيف مات زوجها ميتة البطولة الظافرة، وينقل إليها آخر رسالات المحبة التي حمّله إياها.

وبعد شهر تقريباً جُمع الأرقاء الذين تنتظمهم إقطاعة آل شيلبي في قاعة البيت الكبيرة، ذات صباح، ليسمعوا إلى بضع كلمات أراد مولاهم الشاب أن يوجهها إليهم.

ودهش الأرقاء جميعاً حين رأوا إلى سيدهم وفي يده حزمة من

الأوراق تمثل كل منها صك إعتاقٍ لواحد من العبيد العاملين في الإقطاعة. وتعالت تنهداتهم وفاضت أعينهم بالدمع حين بدأ جورج يتلو الوثائق واحدة واحدة ويسلم كلاً منها إلى صاحبها أو صاحبتها.

وتحلّق كثير منهم حوله وراحوا يلتمسون منه في صدق أن لا يتخلى عنهم، معيدين إليه، بوجوه تعلوها أمارات القلق، وثائق إعتاقهم:

ـ «لا نريد أن نفارق بيتنا القديم. لا نريد أن نفارق سيدنا وسيدتنا وسائر الرفاق.»

وقال جورج حالما وفق إلى حملهم على الصمت:

ـ «أصدقائي الطيبين. لا حاجة بكم إلى فراقي. إن هذا البيت وهذه المزرعة ليتطلبان اليوم أيدي عاملة، شأنهما في ما مضى. ولكنكم أصبحتم الآن رجالاً أحراراً ونساء حرائر ولسوف أدفع إليكم أجراً مقابل شغلكم، أجراً نتفق عليه معاً. وبهذه الطريقة تنجون من خطر التشتت والبيع إذا ما رزحتُ تحت عبء الديون أو قضيت نحبي ـ وهما شيئان يمكن أن يقعا في كل ساعة. إني أعتزم أن أواصل العمل في المزرعة وأن أعلمكم كيف تستعملون الحقوق التي أعطيتكم إياها بوصفكم رجالاً أحراراً ونساء حرائر. وإني لأتوقع أن تكونوا صالحين، وأن تبدوا رغبة في التعلم. وأنا أعاهد الله على أن أكون مخلصاً لكم راغباً في تعليمكم. والآن يا أصدقائي الطيبين، ارفعوا أعينكم، واشكروا الله على نعمة الحرية.»

وهنا نهض زنجي عجوز عمل في الإقطاعة دهراً طويلاً حتى غطى رأسه الشيب وانطفأ نور عينيه، فرفع يديه المرتعشتين وقال:

ـ «لنرفع آيات الشكر إلى الرب!»

حتى إذا ركعوا جميعاً ركعة رجل واحد اندفعوا يرتلون «المجدك

يا الله!» فلم ترتفع إلى السماء قط ترنيمة أعمق أثراً وأصدق نبرة من تلك التي صدرت عن ذلك القلب الوفي العجوز.

ولم يكد الجمع ينهضون حتى خاطبهم جورج قائلاً:

ـ «أنتم جميعاً تذكرون صاحبنا العم توم من غير شك...»

وهنا قص عليهم حكاية موته الباسل ووداعه المؤثر لجميع أصدقائه القدماء، ثم أضاف:

ـ «والآن اعلموا أني لم أعاهد الله على أن لا أمتلك رقيقاً منذ اليوم ما دمت قادراً على إعتاقه، وعلى أن لا يتعرض أحد، بسببي، لخطر الفصل عن أسرته والهجرة من دياره ليموت في مزرعة قصية متوحدة كما مات العم توم... أقول إني لم أعاهد الله على ذلك إلا عند رمس صديقي الخالد. من أجل ذلك أسألكم أن تذكروا كلما ابتهجتم بحريتكم، أنكم مدينون بها لتلك النفس الرضية الطيبة، وأن تفوها دَينكم ذاك عن طريق المعروف تسدونه إلى امرأته وأولاده. فكروا في حريتكم كلما رأيتم كوخ العم توم. واتخذوا منه ذكرى تحدوكم أبداً على أن تترسموا خطاه، وتكونوا أوفياء مخلصين مؤمنين بقدر ما كان هو وفياً مخلصاً مؤمناً!»

انتهت

الفهرس

هارييت ستاو

كوخ العم توم

"كوخ العم توم" إحدى أشهر الروايات في الأدب الأميركي كله. لقد صوّرت فيها صاحبتها حياة الزنوج الأميركيين قبل الحرب الأهلية، فألهبت أصحاب النفوس الكريمة وأثارت الرأي العام الأميركي ضد المظالم النازلة بتلك الفئة من المواطنين، فكانت حرب تحرير العبيد (عام 1861) وتمّ النصر للولايات الشمالية على الولايات الجنوبية، وغدا اسم هارييت ستاو رمزاً للمحبة الخالدة، تباركه ملايين الشفاه وتمجّد العمل الذي قدمته صاحبته.

لقد اشتهرت رواية "كوخ العم توم" عند صدورها، وتوالت طبعاتها وترجماتها شهراً بعد شهر. ليس هذا فحسب، بل إن خمسمائة ألف امرأة إنكليزية وقعن خطاب شكر موجهاً إلى المؤلفة. وجمعت اسكتلندة ألف جنيه من أشد سكانها فقراً، بنساً واحداً من كلّ شخص، كمساعدة رمزية لحركة تحرير العبيد.

ولم تجتمع السيدة ستاو إلا مرة واحدة بالرئيس إبراهيم لنكولن. وكان ذلك سنة 1862 والحرب الأهلية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب على أشدها. ولم تكد تدخل على الرئيس حتى هرع لاستقبالها قائلا: إني أرحب بك بوصفك مؤلفة تلك القصة التي أحدثت هذه الحرب العظيمة!"



شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
malayin@malayin.com www.malayin.com


01302 روايات عالمية 978-9953-63-329-9
9 789953 633299 9